"الرواية التي طالَ انتظارُها عن الوحدة الألمانية" -"دير شبيجل"



قصص بسيطة

رواية من ألمانيا الشرقية

إنجو شولتسه

ترجمة: سمير جريس



روايات مترجمة



قصص بسيطة

رواية من ألمانيا الشرقية

قصص بسيطة

رواية من ألمانيا الشرقية

تأليف: إنجو شولتسه

ترجمة: سمير جريس

تحرير: هدى فضل

الطبعة الأولى: 2018

رقم الإيداع: 2018/1689

الترقيم الدولي: 9789773193959

الغلاف: عصام أمين



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

إنجو شولتسه

قصص بسيطة

رواية من ألمانيا الشرقية

ترجمة: سمير جريس



بطاقة فهرسة

شولتسه، إنجو

قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية/ تأليف إنجو شولتسه،

ترجمة سمير جريس. - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773193959

1- القصص الألمانية

أ- جريس، سمير (مترجم)

ب- العنوان 833

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

عندما أُسأل لماذا أكتب؟ أجيب على السؤال - في الغالب - بسؤال: لماذا تقرأ؟ فالقراءة والكتابة لهما الدافع نفسه بالنسبة إلي، حتى وإن كانت الكتابة هي مورد رزقي. إنني أقرأ حتى لا أبقى وحيدا مع خبرات معينة، خبرات لا يمكن وصفها أو التعبير عنها إلا من خلال قصص وقصائد وأغان وروايات ومسرحيات، وهي خبرات لا أستطيع الإحاطة بها عبر حديث شخصي أو مقالة علمية. إنني أعشق أن أدخل كقارئ في عالم الشخصيات، مثلما تدخل الشخصيات إلى عالمي. لا تختلف الكتابة عن ذلك، الفارق الوحيد هو أن عليَّ أن أعثر على شخصياتي أولا. ولكن عندما تبدأ الشخصيات في التحدث، أصبح أنا نفسي متشوقا لمعرفة في أي اتجاه ستسير. في بعض الأحيان تكون خاتمة القصة أو الفصل هي التي أعرفها في البداية. عندئذ يثير اهتمامي أن أعرف كيف ولماذا وصلت شخصياتي إلى هذه الخاتمة؟ ولا يقل الأسلوب أهمية عن الشخصيات، نبرة الصوت التي أكتب بها. هل وجدت أسلوبا ملائما لمكان أو زمن ما؟ عندئذ تتحرك الشخصيات والأشياء في اتجاهي، فوجودها لا ينفصل عن الأسلوب.

البلد الذي ولدت ونشأت فيه كان ينتمي دائما، هكذا أعتقد، إلى الشرق. وفجأة، بين عشية وضحاها بالمعنى الحرفي للكلمة، أصبحتُ - دون أن أتحرك من مكاني - أسكن في الغرب. من لحظة إلى أخرى بدأ تقييم كل شيء من جديد: المهنة، قدرات الإنسان ومهاراته، العائلة، ظروف السكن، السيارة. بدا آنذاك أن النقود أصبحت عمليا هي المعادل لكل شيء. أما الشأن السياسي الذي تسيد حياتنا اليومية بشكل

مباشر، فقد بدا وكأنه اختفى. كنت قد خرجت إلى الشارع مع مَن شاركوني التوجهات نفسها من أجل شيء آخر تماما غير ذلك الذي أفرزته في النهاية ثورة عام 1989. تغيرت مفاهيم الحرية والتبعية، واكتشفنا أن الشأن السياسي غيَّر من ردائه فحسب، وأنه يسيطر على حياتنا اليومية الآن بشكل أكثر لطفا فقط، وذلك عبْرَ ما أُطلق عليه الضرورات الاقتصادية والأدوار التقليدية للجنسين والتصورات الدينية وصناعة تسلية ضخمة. كان عليَّ أن أتلمس طريقي في هذا العالم الجديد. فعلت ذلك بكتابة قصص قصيرة تقليدية. وبعد أن تجمعت لدي نحو عشر قصص، بدأت أربط بعضها ببعض. تساءلت: من المرأة التي يمكن أن تكون الراوية في هذه القصة، ومن الرجل الذي يمكن أن يكون الراوي في تلك؟ رسمت مربعات، ورحت أصل فيما بينها، وأحذف بعضها، وأختار تنويعات أخرى. ظللت أفعل ذلك حتى أصبحت كل القصص متصلة بعضها ببعض، إما على نحو مباشر أو غير مباشر. تلك الأمسية كانت إحدى أجمل الأمسيات في حياتي ككاتب. وفجأة كان لديَّ عائلتان، آل "شوبرت" وآل "مويرر"، وبعد ذلك "باربارا هوليتشيك" التي تدعي أنها قامت بدهس "جربوع".

كقارئ يدخل المرء في عالم لا بد أن يقوم بتركيبه كأنه "بَزل" **Puzzle**. لكن ذلك يعادل أيضا الخبرة التي يمر بها الإنسان عندما يصل لأول مرة إلى مدينة، أو إلى مصنع أو إلى مدرسة. المرء لا يتعرف على السياقات والعلاقات إلا تدريجيًّا. وكثير مما يعرفه الآخرون في تلك اللحظة، يكون مجهولا بالنسبة إلى الوافد الجديد. بعض الأشياء ينساها المرء ثانية. ولكن كلما زاد انتباهه، اكتشف علاقات وارتباطات أكثر.

بالطبع أسأل نفسي: لماذا كتبت قصصي عن ألمانيا الشرقية بأسلوب القصص القصيرة الأمريكية تحديدا؟ أحد التفسيرات الممكنة: بحدوث الوحدة النقدية في الأول من يوليو 1990 أصبحنا فعليًّا، وبين يوم وليلة، جزءًا من الثقافة المتأثرة بأمريكا في خاتمة المطاف. بين عشية وضحاها أصبحنا نعيش في نظام رأسمالي.

المواقف التي وجدت شخصياتي نفسها بداخلها، من الممكن أن تحدث هكذا، أو على نحو مشابه، في كل مكان من العالم الذي يطلقون عليه عالمًا غربيًا. إنها مواقف بسيطة. غير أن الشخصيات تعلمت قواعد أخرى للعب غير تلك القواعد التي أصبحت فجأة سارية. رد الفعل على الضرورة يختلف عن ردة فعلهم لو كانوا وُلدوا في الغرب. المرء يلاحظ عليهم البهجة والصدمة، الاندهاش والقلق الذي تركه عليهم هذا التغيير من عالم إلى آخر. وأعتقد أن الخبرة التي يكونها المرء في فترة التحولات تلعب دورا في مصر أيضا، في حياة كل امرأة وكل رجل.

أتمنى أن يستطيع القراء الدخول في عالم شخصياتي، وأن تسمحوا لشخصياتي، أعزائي القراء، بالدخول إلى عالمكم.

إنجو شولتسه

برلين، يناير 2018

مقدمة المترجم

"قصص بسيطة": رواية "الربيع الألماني"

لم يكن أحد يصدق أن جدار برلين الحصين سينهار بين يوم وليلة، ولم يكن أحد يتخيل أن زلة لسان، أو هفوة، ستكون هي السبب المباشر المؤدي إلى سقوط جمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية). ولكن هذا بالفعل ما حدث، وهذه من سخريات التاريخ.

في مساء التاسع من نوفمبر عام 1989 كانت قاعة المؤتمرات الصحفية في برلين الشرقية تغص بالصحفيين. الجميع في حالة ترقب: كيف سيواجه الحزب الحاكم، الحزب الاشتراكي الموحد، أعنف أزمة سياسية يمر بها منذ تأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية عام 1949؟ كانت البلاد تشهد موجات هروب جماعية إلى الغرب، كما كانت المظاهرات العارمة تجتاح مدن ألمانيا الشرقية للمطالبة بالحريات وبحق السفر وفتح حدود السجن الكبير المسمى "ألمانيا الديمقراطية".

طوال ساعة راح "جونتر "شابوفسكي"، المتحدث الرسمي باسم الحزب الحاكم، يردد العبارات الإيديولوجية المستهلكة، حتى همَّ الصحفيون بالانصراف. وعندما سأله أحدهم عن الإجراءات التي تعتزم الحكومة اتخاذها، تذكر "شابوفسكي" أن سكرتير عام الحزب الحاكم أعطاه قبل المؤتمر ورقةً تخص قانون السفر الجديد. وهكذا أخذ يبحث عن هذه الورقة حتى يستند إليها في كلامه، إذ لا يكره مسؤول في دولة شمولية شيئًا مثل تحمل المسؤولية، ولذلك لا بد من إلقاء المسؤولية على آخر، والآخر هنا هو سكرتير عام الحزب. لم يكن "شابوفسكي" يعلم أن قرار السماح للمواطنين بالسفر كان مجرد فكرة لم يقرها مجلس الوزراء بعد. كان يظن أنه يقرأ مادة من قانون نافذ، وعندما تعالت نداءات

الصحفيين تتساءل: متى سيسري القرار، ارتبك "شابوفسكي" أكثر، وأجاب الإجابة التاريخية: "فورًا – منذ الآن!".

بسبب سوء التفاهم هذا، أو زلة لسان "شابوفسكي"، انهار الجدار الحصين "المناهض للفاشية" كما كان يحلو لسياسيي المعسكر الشرقي أن يطلقوا على سور برلين. أذاع الصحفيون نبأ السماح لمواطني ألمانيا الشرقية بالسفر، وعلى الفور تدفق الآلاف إلى حدود ألمانيا الشرقية وإلى جدار برلين العتيد. وسرعان ما انهار جدار برلين، بل وسقط المعسكر الشرقي بأكمله.

والآن، بعد مرور نحو ثلاثين عاما على ذلك الحدث التاريخي، وبعد إتمام الوحدة بين شطري ألمانيا في الثالث من أكتوبر 1990، يتساءل كثيرون: ماذا بقيَ من ألمانيا الشرقية؟

في الحقيقة لم يبق الكثير. أو لم يبق شيء.

الجدار الذي كان يفصل بين برلين الشرقية والغربية أُزيل بكامله ولم تبق منه سوى أجزاء صغيرة يقصدها السياح. الاقتصاد الاشتراكي تحول برمته إلى الرأسمالية، وتم بيع منشآت القطاع العام إلى مستثمرين (غربيين) من القطاع الخاص. المباني المتهالكة في المدن الشرقية رُممت أو هُدمت وبُنيت مكانها أبراج إدارية تملكها في الغالب شركات غربية. كل هذا ولَّد الانطباع لدى الألمان الشرقيين بأن بلادهم راحت ضحية الخصخصة، وأن الغرب الرأسمالي اشترى الشرق الاشتراكي.

من ناحية أخرى استمتع الألمان الشرقيون بالحرية، حرية السفر وحرية التعبير عن الرأي، وحرية النشاط السياسي، كما ارتفع على الفور مستوى المعيشة بعد تغيير العملة والتحول إلى المارك الألماني الغربي. فُتحت السجون، وتحول بعضها إلى متاحف تُذكِّر بفظائع الحكم الشمولي في ألمانيا الشرقية، كما فُتح أرشيف جهاز المخابرات "شتازي"، وبات بإمكان المواطن أن يقرأ التقارير التي كان يرسلها إلى الجهاز جيرانه وأصدقاؤه، بل وأحيانًا أفراد عائلته، مثلما

رأينا في فيلم "حياة الآخرين" الذي أخرجه "فلوريان فون دونرسمارك" عام 2006، وبـرع فيـه الممثل "أولريش موهه" في تجسيد دور ضابط المخابرات البارد الخالي من المشاعر الذي يتفانى في تأدية عمله بقناعة كاملة.

بمرور الوقت شعر عديد من الألمان الشرقيين بالحنين، الحنين إلى تلك الأيام القديمة التي ربما لم تكن جميلة، ولكنها على الأقل كانت أكثر بساطة. وسرعان ما انتشرت "النوستالجيا" الشرقيـة، فكثرت البرامج التلفزيونية والأفلام والكتـب التـي راحـت تمجـد تلـك الفـترة وكأنهـا كانـت فـترة ذهبية، وربما كان منبع ذلك شعور كثيرين بالإحباط لما حدث بعد الوحدة من هـزات اقتصـادية واجتماعية، تماما مثلما يحن البعض في مصر بعد الثورة إلى فترة حكـم مبـارك، أو حتـى إلى عهـد الملكية. هذا الحنين موجود لدى كل الشعوب التي تمر بخبرات تاريخية مشابهة. وهذا ما جعـل الفيلم الألماني "وداعًا لينين" الـذي أخرجـه "فولفجـانج بيكـر" عـام 2003 يـنجح نجاحًـا سـاحقًا، ويجتذب إلى قاعات السينما سـتة ملايـين مشـاهد في ألمانيـا. ينتقـد الفـيلم الاشـتراكية و"يـودع" شيوعية "لينين"، لكنه يثير في كثير من مشاهده الحنينَ إلى التضامن الاجتماعي في "العهد البائد".

انهارت ألمانيا الشرقية، وفرح كثيرون بزوال الديكتاتوريـة وسـجونها، كـما فرحـوا بـاقتراب الرخاء الاقتصادي، لكن كثيرين أيضا أصابهم الحزن، لأنهـم كـانوا مقتنعـين بالنظـام الاشـتراكي، رغم كل مساوئه.

آنذاك كتبت الأديبة الألمانية الشرقية الكبـيرة "كريسـتا فولـف" (1929 – 2011) إلى كبير أدباء ألمانيا الغربية "جونتر جراس" رسالة ترثي فيها وطنها القديم الذي اختفى مـن الخريطة: "لقد أحببت هذا البلد للغاية. كنت أعرف أنه يعاني سكرات الموت لأنـه كـان يلفظ أفضل مواطنيه، ولأن ضحاياه كـانوا كـثراً". كـان "جـونتر جـراس" (1927 - 2015) من منتقدي الوحـدة الألمانيـة، لا سـيما الطريقـة التـي تمـت بهـا. آنـذاك قـال مقولتـه الشـهيرة: "العمـلاق (ألمانيـا الغربيـة) يريـد أن يصـبح وحشًـا". كـان صـاحب "طبـل

الصفيح" يفضل حدوث وحدة كونفيدرالية بطيئة بين ألمانيا الشرقية والغربية، لا أن يستولي "المستعمرون الغربيون" على ألمانيا الشرقية بين عشية وضحاها.

أثارت آراء جراس انتقادات كثيرة، لا سيما في الشطر الغربي من ألمانيا. غير أن كُتَّابا عديدين اتفقوا معه على انتقاد طغيان الجانب الاقتصادي على الوحدة الألمانية، ولعل أبرزهم هو الروائي (الألماني الشرقي) "إنجو شولتسه" الذي يصور في هذه الرواية اللقاء مع الغرب على أنه اغتصاب للشرق (الفصل الثاني: "نقود جديدة").

في عديد من أحاديثه الصحفية يعبِّر "إنجو شولتسه" عن شعوره بالإحباط من سيطرة الاقتصاد على الحياة في ألمانيا الموحدة. هذا ما قاله مثلا في الحوار الذي أجراه معه في برلين الروائي الراحل جمال الغيطاني. في ذلك اللقاء – الذي توليت فيه الترجمة بين الأديبين - أبرزَ شولتسه المكانة السامية للغة في ألمانيا الشرقية، في حين أن الأرقام كانت تحتل المكانة العليا في ألمانيا الغربية: "المهم أن تكون الأرقام مضبوطة"، يقول "شولتسه". ("أخبار الأدب" في 24 مايو 2004).

هذا الصراع المرير الذي خاضه الألمان الشرقيون مع الأرقام، ومع اقتصاد السوق الحر نقرأ تفاصيله في أولى رواياته "قصص بسيطة" التي نشرت عام 1998، وحققت بمجرد صدورها نجاحًا باهرًا في ألمانيا وفي العالم، وترجمت في غضون سنوات قليلة إلى أكثر من عشرين لغة. واليوم يجمع النقاد الألمان على أنها من أفضل المعالجات الروائية لموضوع الوحدة الألمانية.

تتكون الرواية من 29 "قصة"، أو تسعة وعشرين فصلا، تدور أحداث معظمها في مدينة "ألتنبورج" الصغيرة في شرق ألمانيا. هناك عاش "شولتسه" من 1988 حتى 1992، وهناك عمل مُعدًّا مسرحيًّا (دراماتورج)، ثم أسس صحيفة أسبوعية عمل فيها محررا، قبل أن يؤسس صحيفة أخرى تعتمد على الدعاية والإعلانات. في "ألتنبورج" شارك المواطن "شولتسه" مع أعضاء التجمع السياسي "المنتدى الجديد" في المظاهرات التي اندلعت عام 1989 للمطالبة بإصلاحات في النظام الاشتراكي، وهناك عايش البداية الجديدة بعد الوحدة.

تشكل تلك الفترة الخبرة الحاسـمة لـدى الكاتـب "إنجـو شولتسـه". آنـذاك آمـن كثـيرون بحدوث المعجزات، وانتظروا غدًا أفضل، أفضل في كل شيء. ولكن سرعان ما أصابهم الإحبـاط. مَن يقرأ أعمال "شولتسه" يدرك أنه احتفظ لنفسه بمسافة نقدية، فلم يبـالغ في الـتحمس، ولم يبلغ إحباطُه حدَّ اليأس.

لن يجد قارئ "قصص بسيطة" سردا لتاريخ ألمانيا الشرقية، أو عرضا لأهم الأحداث التـي أدت إلى انهيار سور برلين، بل إن كلمات مثل "الوحدة" أو أو "جدار برلين" أو اسم الحزب الحـاكم لـن تـرد في الرواية مرة واحدة. ليس دور الأدب - هذه هي قناعة "شولتسه" - أن يكون بديلا لكتـب التـاريخ أو علم الاجتماع. ما نقرأه هنا هو صدى الأحداث التاريخيـة، وتأثيرهـا عـلى حيـاة الفـرد، دون كلـمات كبيرة. "شولتسه" يلمح ولا يصرح، وكتابته - كالحياة - مفتوحة على تأويلات عديدة.

يحكي "شولتسه" عن البسطاء الذين لم يستطيعوا التأقلم مع تلك التحولات، وعـن الـذين عرفوا كيف يقتنصون فرص الواقع الجديد، ويبين أن الوحـدة لم تكـن النهايـة السـعيدة لكـل مواطني ألمانيا الشرقية. الأسئلة التي يجيب عنها "شولتسه" روائيا هي: كيـف عـاش المؤمنـون بالاشتراكية في ألمانيا الرأسمالية الموحدة؟ ماذا يفعل مَن فقـدَ عملـه بـين يـوم وليلـة؟ الأسـتاذ الجامعي الذي يجد نفسه فجأة يعمـل منـدوبا للمبيعـات؟ كيـف واصـل العـاملون في جهـاز المخـابرات الشرقـي (الشـتازي) حيـاتهم بعـد الوحـدة؟ مـاذا كـانوا يفعلـون عنـدما يقـابلون ضحاياهم؟ مـاذا يفعـل "المخـبرون" بعـد أن افتضـح أمـرهم؟ مـاذا يفعـل مَـن تعـرض لظلـم "الشتازي"، خصوصا إذا عرف مَن وشى به؟

"شولتسه" يصف بدقة مشـاعر سـكان مدينـة "ألتنبـورج" الشرقيـة الصـغيرة، ويظهـر لنـا تمزقهم الداخلي، ويصف الشعور بالحيرة وفقدان الوعي، كما يصور الهلـع الـذي اسـتولى عـلى كثيرين.

صدرت ترجمة "قصـص بسـيطة" في طبعتهـا الأولى عـام 2004 عـن المشروع القـومي للترجمة بالقاهرة، ولكنها للأسف الشديد لم تلق الاهتمام الذي تستحقه بسـبب التوزيـع

السيء لمطبوعات المشروع، وربما أيضا بسبب البنية الروائية غير المألوفة لـدى القـارئ. لـذلك أشعر بسعادة خاصة لظهور طبعـة جديـدة مُراجَعـة ومُنقحـة ومـزودة بمقدمـة خاصـة مـن المؤلف، بالإضافة إلى مقدمة المترجم. وتيسيرا على القراء، وحتى لا يفقـد القـارئ طريقـه بـين زحـام شخصـيات الروايـة (نحـو 40 شخصـية)، فقـد أعـددت لهـذه الطبعـة قائمـة بـأهم الشخصيات، يستطيع القارئ، إذا أراد، الرجوع إليها في أي وقت.

عندما قرأ الكاتب الراحل إبراهيم أصلان "قصص بسيطة" في طبعتها الأولى، قال لي: "هـذا كاتب يشبهني، يكتب الرواية بمزاج كاتب القصة القصيرة". وهي ملاحظة صائبة تماما، ومثلما تبين مقدمة "إنجو شولتسه"؛ فالقارئ يستطيع أن يطالع كل "قصة" من قصـص الروايـة عـلى نحو مستقل، لكن القصص لن تعطي معناها الحقيقي إلا في سياق الرواية. إنها مجرد أحجـار صغيرة في لوحة فسيفسائية ضخمة عن تلك الفترة. البنية الروائية المتشظية تعكس على نحـو جيد التمزق الداخلي لمعظم الشخصيات.

لذلك تتطلب قراءة الرواية بعض التمهل حتى يستطيع القارئ تركيب فسيفساء "القصص البسيطة"، عندئذ سيفهم القارئ العلاقات بين الشخصيات، والتفاصـيل الصـغيرة التـي ينثرهـا الكاتب بين ثنايا النص، وسيدرك أيضا ما بين السطور.

"شولتسه"، أحد أفضل روائيي جيله في ألمانيا، يكـافئ قارئـه عـلى الجهـد المبـذول في القـراءة. ويبرهن النجاح العالمي للرواية على قدرة المؤلف على مخاطبة ملايين القراء حـول العـالم، لا سـيما أولئك القراء الذين مروا بخبرات تاريخية مشابهة، سواء في أوروبـا الشرقيـة بعـد انهيـار المعسـكر الشرقي، أو في منطقتنا العربية بعد الانتقال من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي، وبعد خبرات "الربيع العربي".

سمير جريس

برلين، يناير 2018

(1)

زيوس



"ريناتا مويرر" تحكي ما حدث أثناء رحلتها بالأتوبيس في فبراير 1990. السيد "مويرر" وزوجته لأول مرة في إيطاليا احتفالًا بعيد زواجهما العشرين. حدث عطل في الأتوبيس قبل مدينة "أسيزي" يدفع رفيقهم في الرحلة، "ديتر شوبرت"، إلى القيام بفعل يائس. تبادل الذكريات والمؤونة.

ببساطة لم يكن الوقت ملائمًا لذلك. خمسة أيام بالأتوبيس: "فينيسيا" و"فلورنسا" و"أسيزي". كان وقع أسماء هذه المدن على أذني مثل كلمات أهل "هنولولو". سألت "مارتين" و"بِت" كيف خطرت هذه الفكرة على بالهما؟ ومن أين جاءا بالمال؟ كيف تخيلا أن نقوم برحلة مخالفة للقوانين في عيد زواجنا العشرين؟*

كنت واثقة من أن "إرنست" لن يقبل ذلك. الأشهر الماضية كانت جحيمًا بالنسبة إليه. أشياء أخرى تمامًا كانت تشغل بالنا غير إيطاليا. لكنه صمتَ. وفي

---

* سقط جدار برلين في نوفمبر 1989، لكن الوحدة الألمانية لم تتم إلا في أكتوبر 1990؛ أي أن هذه الرحلة حدثت في فترة كانت قيود السفر على الألمان الشرقيين لا تزال سارية.

منتصف يناير، سألني هل هناك شيء ينبغي التحضير له؟ - سنبدأ الرحلة يوم 16 فبراير، وهـو يوم جمعة يوافق إجازات المدارس - سألني كيف سنعبر الحدود الإيطالية والنمساوية بأوراقنا التابعة لألمانية الشرقية؟ حكيت له ما أعرفه من الأولاد، أننا سنحصـل مـن مكتـب سـياحة في "ميونيخ" على بطاقات هوية تابعة لألمانية الغربية، ربما تكـون مـزورة؛ عندئـذ قلـت لـنفسي: "هذه نهاية الموضوع، ليس "إرنست مويرر" مَن يفعل ذلك". إلا أنه لم يطلب غـير الصـورتين، هل كانا لهذا الغرض؟ فأجبته: "نعم، صورتان لجواز السفر، تاريخ الميلاد، الطول، لون العينين. لا يحتاجون إلى أكثر من ذلك".

وسارت الأمور كما تسـير دائمًـا. وضـعنا أمتعتنـا في الحقيبـة الـخضراء الداكنـة، وفي الشـنطة المخططة بالأحمر والأسود وضعت الشوك والسكاكين والأطبـاق ومؤونـة الطريـق؛ معلبـات بهـا سجق وسمك محفوظ، وخبز وبيض وزبدة وجبنة، وملح وفلفل، وشرائـح خبـز مجفـف، وتفـاح وبرتقال، ولكل واحد تُورمس به شاي وآخر به قهوة. أوصلنا "بيتر" بسيارته إلى مدينة "بايرويت" في ألمانيا الغربية. على الحدود سألونا إلى أين نحن ذاهبون؟ فقال "بيتر" للتسوق.

كان القطار يقف عند كل قرية. لم أر غير الثلوج والشوارع المضاءة والسـيارات ومحطـات السكك الحديدية. جلسـنا وسـط رجـالٍ كـانوا في طـريقهم إلى العمـل. لم أفكِّـر في إيطاليـا إلا عندما بدأ "إرنست" بتقشير برتقالة.

لا بد أن "إرنست" تعرف عليه لأول مرة في محطة "ميونيخ". لم ألحظ ذلـك. ومـن أيـن لي أن أعرف كيف يبدو؟ بل إنني لم أعرف حتى اسمه الحقيقي.

أتـذكره جيـدًا منـذ أن كنـا في "فينيسـيا". رجـل متوسـط القامـة، حركاتـه متعجلة، له عين زجاجية سيئة التركيب، ودون رموش. كان يحمـل معـه كتابًـا ضخمًا، ويضع إصبعه بين الصفحات كي يستعرض - دومًا معلوماته عندما تقوم

"جابرييلا" - مرشدتنا السياحية الإيطالية - بشرح شيء ما. نموذج متجسد "لأبي العريف". كل فترة يمر بيده في شعره الأسود الذي غزاه الشيب، ويزيحه إلى الخلف. لكن شعره لا يلبث في اللحظة التالية أن يسقط على جبهته وعينيه.

قصر النبلاء في "فينيسيا"، الأعمدة والسباع التي كنت رأيتها في التليفزيون. نساء "فينيسيا" - حتى اللاتي في عمري - يرتدين جيبات قصيرة وقبعات جميلة عتيقة الطراز. كنا نرتدي ملابس أدفأ من اللازم.

حتى نتمتع بالاستقلالية، أخذنا معنا في شنطة المؤونة بعض المعلبات وخبزًا وتفاحًا لاستهلاكنا أثناء النهار. أمَّا مساءً فكنا نتناول طعامنا في الغرفة. لم نتحدث - "إرنست" وأنا - كثيرًا، ، ولكن ما تحدثناه في تلك الفترة أكثر من الشهور الماضية على كل حال. " Una gondola, per favour"* هتف زوجي ذات صباح وهو يغتسل. كان الانطباع الذي يتركه "إرنست" على وجه العموم هو الإعجاب بإيطاليا. بل لقد مدَّ يده مرةً إلى يدي وأمسك بها.

لم يأتِ ذكره بكلمة واحدة. إلى أن وصلنا "فلورنسا". هناك انتظرنا نزول المجموعة كلها من البرج ذي الأجراس. حينها سأل "إرنست": "أين إذًا متسلق الجبال؟" لم أنتبه لذلك، أو اعتقدت أنهما تبادلا بعض الكلمات - إذ إن "إرنست" كان يذهب قبلي لتناول الفطور. قال شيئًا عن تمارين العقلة التي يمارسها مستخدمًا العارضة الخشبية فوق الباب. قبلها، في "بادوا"، أصر متسلق الجبال على أن نتوقف حتى نزور كنيسة صغيرة، أو حلبة مصارعة. وكلها أشياء لم يتضمنها برنامج الرحلة. أدرت رأسي ناحيته. كان يجلس في آخر الأتوبيس. لم يكن هناك ما يمكن أن يشتت نظراته المسددة نحو زجاج السيارة الأمامي، وكأننا كلنا موجودون فقط حتى يصل سيادته إلى هدفه. ربما

* الجملة بالإيطالية، وترجمتها: "نريد جندولًا من فضلك". والمقصود تلك القوارب الصغيرة التي يتنقل بها الناس في "فينيسيا".

أظلمه. وربما لم أكن سأتذكره دون الجلبة التي كـان يحـدثها. وربمـا لا أتـذكر الأمـور بترتيبهـا الصحيح، لكنني بالتأكيد لا أخترع شيئًا.

حاولوا أن تتخيلوا هذا: فجأة يجد الإنسان نفسه في إيطاليـا وفي جيبـه جـواز سـفر ألمـاني غربي. أعطوني اسم "أوُرسولا"، و"إرنست" أصبح "بودو". محل الإقامة: مدينة "شتراوبينج". أمَّـا اسم العائلة فقد نسيته. إننا في الجزء الآخر من العالم، ومع ذلك يتعجب المرء من أنـه يشرب، ويأكل، ويضع قدمًا أمام الأخرى كما في وطنه، وكأن كل ذلك بديهي. عندما نظـرت لـنفسي في المرآة أثناء غسيل أسناني، لم أصدق أننا فعلًا في إيطاليا.

قبل أن نغادر "فلورنسا" في اتجاه "أسيزي" - اليوم الأخير في الرحلة - توقـف الأتـوبيس في موقف للسيارات حيث استطعنا أن نلقي نظرة على المدينة. السـماء ملبـدة بـالغيوم. اشـترى "إرنست" طبقًا عليه إحدى رسومات "دانتي" وأهداني إياه - بمناسبة عيد زواجنا.

انطلقنا وسط الأمطار، وشيئًا فشيئًا ابتلع الضباب الطريق حتى أنني لم أرَ سـوى الحـواجز المعدنية على جانبي الطريق، إلى أن غلبني النعاس.

عندما أيقظني "إرنست" كانت المجموعة تغادر الأتوبيس. كنا نقـف عنـد محطـة وقـود. عطبٌ ما أصاب المحرك أو ماسـورة العـادم. هـبط الـثلج عـلى المظـلات، وأضـاءت السـيارات كشافاتها. جو ملائم تمامًا لتعطل سيارة. شرع سائقنا يبحـث عـن تليفـون. أتـذكر كيـف كـان يحرك ساعديه، بالتقاطع، يمينًا ويسارًا. أعلنت "جابرييلا" أنه لا بـد مـن انتظـار عـمَّال خدمـة تصليح السيارات. اقترَحَت أن نذهب لمشاهدة مدينة "بيروجيا" ومعالمها السياحية.

أحضرنا معاطفنا وسرنا في صف وراء بعضنا البعض تجـاه المدينـة القديمـة، وعلى رأس المجموعة "جابرييلا" ومعها متسلق الجبال الذي هاج ومـاج وأصر على مواصلة السفر إلى "أسيزي"، مدعيا أن بيننا وبـين المدينـة "فركـة كعـب"،

حتى أنه يمكن رؤيتها إذا كان الجو صحوًا. لم يمل تكرار كلمة: "فركة كعب".مع أن حظنا كان تحت أقدامنا - كما يقولون. ماذا لو أن الأتوبيس تعطل في منتصف الطريق السريع، أو أننا تُهنا على الطريق الزراعي مثلًا؟

الثلج الآن متراكم فوق الرصيف. أبواب المتاحف والكنائس مغلقة بسبب استراحة الظهيرة. قادتنا "جابرييلا" إلى نافورة "مادجورة" الشهيرة، وتحدثت قليلًا عن دار البلدية والكاتدرائية التي بدت ضخمة لأن أسوارها اختفت في الضباب. عمرها 500 عام وما زالت الواجهة دون أحجار تكسوها. علقت امرأة من مدينة "بلاون":

- مقارنةً بذلك لم تكن ألمانيا الشرقية سيئة إلى هذا الحد.

هكذا ظلت المرأة تسخر وتتهكم. لم يبدُ على "إرنست" أي رد فعل. ببساطة تجاهل الأمر برمته.

في ميدان السوق توزعت المجموعة على المقاهي والمطاعم هناك. مطعمنا كان اسمه "فيكتوريا". حتى الآن لم ننفق شيئًا، باستثناء طبق "دانتي" وعدة فناجين قهوة. لذلك قررنا أن نطلب شيئًا. كان الجرسون يتلوى كالثعبان بمريلته الطويلة البيضاء بين الموائد القليلة التي امتلأت فجأة. أحيانًا كان يقف مادًّا جذعه في اتجاه شخص ينادي عليه. كان يتجمد أمام شاشة التليفزيون فقط، حين يقترب المتزحلق على الجليد من إحراز هدف.

جلس إلى مائدتنا أيضًا رجلان من مدينة "دريسدن"؛ طبيب أطفال، ومصمم ديكور مسرحي. كانا يعرفان بعض الكلمات الإيطالية، لذا شرحا لنا قائمة الطعام. حاول "إرنست" أن يشير للجرسون، بينما ركزتُ اهتمامي على إصبع "إرنست" حتى لا ينحرف عن السطر المكتوب عليه Pizza con funghi، وهي بيتزا بالمشروم.

فجأة نهض طبيب الأطفال. ولأنه أخذ يحملق في النافذة فقد استدرت لأرى ما لفت انتباهه هكذا. من الناحية الأخرى تدافعوا كلهم ناحية الميدان كأطفالٍ

في طريقهم إلى معركة بكُرات الثلج: "جابرييلا" بقبضتين مضمومتين، الآخرون في إثرها كسربٍ صاخب يشبه المثلث. الكراسي حولنا تُدفع إلى الوراء. وعندما تزاحم الجميع - مرورًا بالجرسون - في اتجاه المدخل، كان وقع الأقدام كوقع حوافر الخيل. تبعناهم إلى الكاتدرائية حيث تجمعت دائرة صغيرة من الناس على السلم أمام المدخل الجانبي.

على ارتفاع أربعة أو خمسة أمتار كان متسلق الجبال يقف على إفريز يمتد أفقيًّا على طول السور، فاردًا يديه على الجانبين، لاصقًا كتفه إلى الجدار. ساد هدوء غريب، وكأن هذا المتسلق من السائرين أثناء النوم، لذلك خشي الناس أن يستيقظ لأدنى صوت ويسقط. الجليد الأبيض ضوؤه الباهر جعل "جابرييلا" ترمش بعينيها. آخرون ظللوا بكفوفهم فوق أعينهم ليروا بشكل أفضل. حذاؤه نصف الرقبة كان مُلقى أسفله تمامًا. مد رأسه إلى الأمام، وكطائر ألقى نظرةً علينا في الأسفل بعين واحدة. كلا الجوربين كانا عالقين بأطراف أصابع قدميه. بدا التسلق سهلًا لمَن تدرب عليه ولو قليلًا. ربما وصل إلى البرج الصغير عن طريق تسلق أحجار المدخل، ثم وقف على الإفريز إلى أن وجدت قدماه مكانًا على الأحجار البارزة وعلى السقالات.

- لا تنظر إلى أسفل.

هتف أحد الرجال. على إثر ذلك مدَّ متسلق الجبال ساعده الأيسر، ثم استدار بخطوات متخشبة، وعلى الفور التصق ثانيةً بالسور، وتشبثت أصابعه بالنتوء التالي. تحسست ساقاه الجدار. كضفدعة أخذ يحرك ساقيه متسلقًا إلى أعلى. ثم استند على الحافة البارزة أعلى النافذة.

جذبني "إرنست" من كوعي. وهمس في أذني:

- هيا بنا من هنا!

كان السيد "زونيبِرجِر" - العملاق ذو الشعر الأحمر - أول من بدأ بالتقاط الصور. هتفت "جابرييلا" لاعنةً:

- لو قفز هذا الرجل إلى أسفل!

أخذت تذهب وتجيء وسط المجموعة، وطوت ياقة جاكتتها المنتصبة، ثـم أسرعـت تنـزل الدرج في اتجاه شرطية كانت تضع على رأسها خوذة بيضاء بـدت بهـا وكأنهـا في كرنفـال. مـن الخلف لم يرَ المرء من رأس "جابرييلا" سـوى ضـفيرتها الصـغيرة البـارزة. تحـدثت الشرطيـة في جهاز لاسلكي.

قالت السيدة التي تسكن مدينة "بلاون" إن الموضوع الآن دخل في الجد، ثم صاحت:

- "هربرت"، هيا يا "هربرت"، انزل، هيا.....

قاطعها "زونيبِرجِر" لأنه رأى أنه من غير اللائق أن نناديه بـ"هربرت". "هربرت" هو الاسم المكتوب في هوية "شتراوبنجر". بعدها ران الصمت، ولم يتحدث الناس إلا همسًا.

ضايقتني معاملة "إرنست" لي، شدَّه وجذبه. أردت أن أبعـد عنـه عـدة خطـوات، إلا أنـه أمسك بذراعي.

- لن يحدث له شيء!

هكذا همس في أذني، ثم أضاف:

- إنه "زيوس"، هيا!

قلت دون وعي:

- لا!

هذا الاسم سمعته آخر مرة منذ عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا:

- "زيوس"؟

أدارت "جابرييلا" رأسها.

- هل يُدعى هكذا؟ "زيوس"؟

وفجأة أخذنا نتبادل النظرات جميعًا.

- هل يُدعى "زيوس"؟

قال "إرنست":

- هذا الرجل لن يسقط.

- "زيوس؟"

تساءل شخص بصوت عال. وعلى الفور صاحوا كلهم:

- "زيوس".. "زيوس".

وكأنهم عثروا أخيرًا على الكلمة التي انتظروها على أحر من الجمر كي يكسرون جدار صمتهم. وبشعور يشبه التحرر هتفوا جميعًا حولنا:

- "زيوس".. زيوس"!

لم يصمتوا إلا عندما ابتلعته سحب الضباب. البعض مد ذراعيه ليشير للآخرين أين رصد "زيوس" آخر مرة. تناقلت الأيادي آلات التصوير المزودة بالزوم والتي استُعملوها منظارًا مُقرِّبًا. سقط جورب من سحابة الضباب في منتصف الدائرة التي كونًّاها حول حذائه. أعقبه بعد قليل سقوط الآخر. أصابتني رعشة في كلتا المرتين.

وفجأة ظهر "زيوس" كالشبح من جديد. انحنى إلى أسفل انحناءة دفعت البعض إلى الصراخ والرجوع إلى الوراء. كان من الممكن أن ينتشر الذعر. أمر لا يُصدق، كيف وجد شيئًا يرتكز عليه على هذا العلو! سال لعابه بين شفتيه، وتحرك كعنكبوت معلق بخيط، إلى أن تحرر وهبط بهدوء وسط الثلج. بجسد

مقوس، وبفم معوج ذكرني بالأشكال التي تقذف الماء من فمها في نافورات "ناومبورج" أو "براج"، شرع يخطب فينا.

لم يعرف أحد بالطبع مَن المقصود عندما تحدث عن "مويرر الشيوعي الأحمر". وبديهي أن الإيطاليين لم يفقهوا حرفًا مما نطق به. وصف "إرنست" بالرجل "ذي البدلة الخضراء المُستغِّل لمنصبه"، مشيرًا بذراعه الممدود ناحيتنا. لم يفهم أحد قصده. تعجبت كثيرًا لقدرته على الصراخ، من أين أتى بها؟

حدثت القصة قبل سنوات طويلة. كما أن "إرنست" لم يكن مسرورًا عندما فعل ما فعل، أعلم ذلك. كان في البيت يدعوه بـ"زيوس"، وهو اسم الشهرة الذي كان الآخرون يستخدمونه أيضًا. اسمه الحقيقي "شوبرت"، "ديتر شوبرت".

إذا لم يدقق المرء النظر فإنه لم يكن ليسمع سوى الصراخ السخيف. اعتقدتُ أن "زيوس" قد يسقط في أي لحظة، ويُشج رأسه أمامنا. تخيلت كيف سيتزاحم الجمع إلى الأمام حتى يروه. لن تواتي أحد الشجاعة كي يلمسه. سيبدو جسده سليمًا دون خدش، كما تبدو جيفة الحيوانات أحيانًا على حافة الطريق. فقط الدم المتجمع تحتها يجعل الناس يعرفون ما حدث. أخذت "جابرييلا" تتحدث إلى نفسها برأس منكس.

مر وقت طويل إلى أن صمت "زيوس"، وكأن الثلج قد أحكم قبضته عليه وخنقه. عندئذ شرع يتزحزح سنتيمترات معدودة ناحية الشمال في اتجاه أنبوبة الصرف. أصبحت حركاته أكثر حذرًا وترددًا، وكأنه يسير أثناء النوم، لكنه استيقظ فجأة.

قلتُ لـ"إرنست":

- خلاص، انتهى الموضوع.

وشبكت ذراعي في ذراعه. أردتُ الصراخ بالطبع. ظل "إرنست" يضع يديه في جيبه محملقًا في ضفيرة "جابرييلا" البارزة.

تعلق "زيوس" بالعامود الخشبي وتسلق هابطًا. استقبله أفراد من الشرطة الإيطالية وأحاطوا به، بينما أخذ يلبس جوربه وحذاءه الذي غطاه الثلج. اقتربت عربة مطافئ بأنوارها الزرقاء. رسمت "جابرييلا" الصليب على صدرها، ثم أخبرتنا بموعد التجمع عند الأتوبيس وانصرفت مع "زيوس" والشرطة. انقسمت مجموعتنا من جديد. الجرسون ذو المئزر الطويل أسرع خطاه وسبقنا إلى "فكتوريا".

لبرهة ظللت واقفة مع "إرنست". من كُم جاكتته الجديدة الطويلة لم تبرز إلا أنامله. بدأت أشعر بالبرد، وتوجهنا إلى الأتوبيس.

فجأة سأل "إرنست":

- هل تشمين؟

- نعم.

أجبته معتقدةً أنه يقصد البنزين، فرائحة كل شيء هنا مختلفة. لكنه هتف:

فراولة! تفوح في الجو رائحة الفراولة.

لم نزرع شيئًا في حديقتنا إلا الفراولة. كنا نميز السنوات بعدد التورتات التي استخدمت فيها الفراولة. أضحى شرب القهوة مع الضيوف شيئًا احتفاليًا بحق عندما أقول: "هذه آخر تورتة فراولة لآخر في هذا العام". حينها تخيلتُ حديقتنا والكوخ الذي أسميناه "جحر الثعلب". قلت:

كؤوس البيرة الفارغة. هل تشم رائحة كؤوس البيرة الكثيرة الفارغة على المائدة تحت أشعة الشمس؟

أنا متأكدة أننا لبرهة رأينا الأشياء نفسها أمام أعيننا؛ الصينية القديمة والكؤوس ذات النقطة الحمراء في القاع وثمار الفراولة في حديقتنا.

فتح السائق الباب. دعوته لمشاركتنا الطعام. كان قميصه مشمرًا لأعلى. مسح يديه المتسختين في منشفة، وانهمك في حشو فمه بالطعام. ما زالت لدينا

كميات كبيرة من المأكولات، وحتى من التفاح، رغم أننا كنا نتناول طعامنا دائمًا من شنطة المؤونة، باستثناء وجبة الإفطار الشحيحة في الفندق. كنا نشعر نحن أيضًا بالجوع. ظللنا نأكل حتى عندما رجع السائق إلى مقعده واتكأ على ظهره واسترخى ليغفو قليلًا قبل رحلة العودة. في تلك الأثناء كان الثلج قد ذاب.

لماذا أحكي هذه القصة؟ لأن الإنسان اعتاد على النسيان بسرعة. رغم أنه لم يمض وقت طويل على تلك اللحظة التي فكرنا فيها – أنا و"إرنست" في الشيء نفسه، ولا على تلك الأيام التي كنا نحمل فيها شنطة مخططة بالأحمر والأسود مليئة بالأطعمة المحفوظة، ونتنقل بها من مكان إلى آخر.



(2)

نقود جديدة



"كوني شوبرت" تحكي حكاية قديمة: شاب يأتي إلى المدينة، يعقد صفقات، ويوقع فتاة في غرامه، ثم يختفي. السذاجة والحيطة.

وصل "هاري نلسون" إلى "ألتنوبورج" قادمًا من "فرانكفورت" في مايو 1990، بعد مرور أسبوع على عيد ميلادي التاسع عشر. كان يبحث عن منازل، ويبحث أكثر عن أراضٍ مخصصة للبناء على الطرق المؤدية للمدينة. أراد إنشاء محطات وقود.

"هاري" متوسط القامة، داكن الشعر، ولا يدخن. نزل في فندق المدينة الوحيد، فندق "فنتسل"، في الطابق الأول. في كل مكان يظهر فيه - حتى على الفطار أو العشاء - كان يحمل دومًا حقيبة جلدية مزودة بقفلين يعملان بالأرقام.

أعمل منذ سبتمبر 1989 نادلة في فندق "فنتسل". هذا أفضل عمل وجدته في محيط سكني. وإلا توجب عليَّ السفر إلى مدينة "لايبتسج" أو إلى مدينة "جيرا" أو مدينة "كارل ماركس". رئيستي في العمل – "إريكا بانرت" التي

أعرفها منذ فترة تدريبي - قالت لي ذات مرة إنها كانت في السابق مثلي تمامًا، رشيقة وجميلة. أعرف طبعًا أن فمي أصغر قليلًا من اللازم. وعندما أمشي مسرعةً تهتز وجنتاي اهتزازًا خفيفًا للغاية.

أحببتُ "هاري"، وخصوصًا طريقته في المشي عندما يدخل إلى الغرفة ويحيينا بإيماءة رأس، وبعدها يجلس واضعًا ساقًا فوق ساقٍ، ساحبًا بنطلونه عند الركبة إلى أعلى قليلًا؛ أحببت طريقته في تذوق النبيذ، وفرد منديل السفرة. أحببت عطره، ووجهه في المساء الذي يبدو غير حليق، وأنه كان يخطئ في الحِساب، وأنه كان يعرف أسماءنا دون أن يضطر إلى الحملقة في البطاقات الصغيرة التي نعلقها على صدورنا. وأكثر ما أحببته فيه هو تفاحة آدم. كنت أراقب "هاري" وهو يشرب. بطريقة آلية، كنت أفعل ذلك ضد رغبتي. وفي طريق عودتي إلى المنزل كنت أحاول أن أتذكر ملامحه بكل دقة ممكنة.

اعتاد نزلاء فندق "فنتسل" حجز الغرف التي يفضلونها بالفندق حتى يتمكنوا من الإقامة فيه عند العودة إليه لاحقًا في عطلات نهاية الأسبوع، حيث يكون الفندق مشغولًا بالكامل وقتها. في المساء كانت هناك مائدة لستة أشخاص محجوزة لـ"هاري". لديه دائمًا ضيوف. همست "إريكا" في أذني بأسمائهم، ولوحت لبعضهم بيدها التي بدت وكأن النار حرقتها. قالت لي:

- لم ينسَ منهم أحد ما يمتلكه في هذا الفندق أبدًا.

لم يكن "هاري" يوجِّه إلا الأسئلة، لذا فمع حلول الوقت الذي يكون قد انتهى هو فيه من طرح أسئلته، يكون الوقت قد تأخر لكي يبدأ الناس بإجابته. لم يضايقني العمل طويلًا. بالإضافة إلى ذلك كنت وما زلت أعتقد أن العمل في مطعم أسهل من الخروج صباحًا من المنزل بحقيبة ملفات لإبرام عقود.

عدا "هاري"، لم يبقَ سوى نزلاء قلائل في نهاية الأسبوع. أتذكر رجلًا بدينًا يُدعى "تشيسلا" من مدينة "كولونيا". كانت تعمل لديه مجموعة من الشباب

الذين يبيعون كاسيتات وأسطوانات ويتنقلون بها من سوق إلى آخر. في "فنتسل" كان يقابل هؤلاء البائعين، شباب من المنطقة يفهمون بعض الشيء في الموسيقى. في الأغلب كانوا يأكلون ويشربون هنا، إذ أن "تشيسلا" كان يتركهم ينتظرون حتى يتأكد من صحة الحسابات. "إريكا" كانت تهتم بأمر "بيتر شموك" الذي يعمل في "الكوميرتس بنك". شاب نحيل ذو كفين ضخمتين وضحكة بلا صوت. كان يظل جالسًا حتى يتوفر لها الوقت للإصغاء إليه. كان هناك أيضًا رجل من شركة تأمين "أليانتس"، كنا ندعوه مستر "ويلا"؛ وواحد آخر كنا نسميه "شوشاين". نادرًا ما كانوا يتبادلون الأحاديث فيما بينهم خلال الأسبوع. فقط في أيام الآحاد، عندما كان المرء يرى من غرفة الفطار طوابير البشر التي تقف في الناحية المقابلة أمام المحطة في انتظار وصول صحيفة "بيلد" التي لم يكن مسموحًا بها في ألمانيا الشرقية - وهي أكثر الصحف الشعبية انتشارًا في ألمانيا الغربية. كان الناس يشترون - في أغلب الأحيان - أكثر من نسخة. بعدها اعتاد الناس تبادل النكات حول ذلك أثناء جلوسهم معًا لتناول الطعام.

في منتصف يونيو نشرت صحيفتان، هما: "فولكس تسايتونج" و"فوخن بلات" صورًا لهاري وهو يصافح عمدة المدينة الجديد. كان من المنتظر أن يتم بناء محطة وقود خلال عام 1990، أعتقد تابعة لشركة BP "بي بي" الإنجليزية.

وفجأة تردد أن السيد "نيلسون" سيسافر. ثم سمعت أنه وجد شقة وسينتقل إليها. كما قالوا إن "هاري نيلسون" سيسافر لمدة أسبوع، ويعود. كنت أود أن أعد له طعامًا للطريق، إلا أنني خفت أن يلاحظ الآخرون ذلك، أو أن يشعر أنني أفرض خدماتي عليه.

أخذت إجازة لمدة أسبوع، شبعت خلاله نومًا. في البيت كان والدي يكثران الحديث عن النقود الجديدة التي ستُطرح للتداول بدءًا من الإثنين القادم. أبي - الذي انضم بعد رحلته الفاشلة إلى "أسيزي" لحزب DSU اليميني المتطرف - قال إن ما أفعله هو عين العقل. اليابانيون يكتفون أيضًا بخمسة أيام فقط

إجازة في السنة. لا بد أن يبذل المرء الآن قصارى جهده. حتى أمي قالت إنه لا بد من فصل الغث عن السمين الآن، فنحن في وسط المعمعة. ذات مرة تخيلت وأنا في البانيو أنني أُقبِّل "هاري" على تفاحة آدم.

في يوم الإثنين، 2 يوليو، بدأت ورديتي في الظهيرة. المطعم خال من الزبائن. سيستمر الأمر هكذا على الأقل ثلاثة أسابيع أو أربعة، قالت "إريكا"، حتى يكون الناس عندنا أيضًا على استعداد لدفع نقود غربية مقابل قطعة ستيك.

حوالي الواحدة ظهرًا دخل اثنان بشرتهما داكنة، "باكستان" كما أسمتهما "إريكا"، يتاجران في السجاد. عند دفعهما للحساب خامرني الشعور نفسه كما في بداية فترة تدريبي عندما قدمنا الطعام لبعضنا البعض على سبيل التمرين، ودفعنا الحساب بنقود غير حقيقية.

ظهر "هاري" في المساء. عندما دخل المطعم حاملًا حقيبة الملفات قال:

- مساء الخيييير!

وجلس عند النافذة، في المكان المحجوز له دائمًا. أخيرًا رأيت أذنيه الصغيرتين مرة أخرى، وأظافر أصابعه العريضة، وتفاحة آدم. كان "هاري" يرتدي قميصًا قصير الكمين، وبنطلونًا من الكتان، وصندلًا دون جوارب. قالت "إريكا" إن "هاري" قدَّم استقالته، لكنه يريد البقاء هنا.

- واحد مثله.

همَسَت في أذني:

- يحتاج دائمًا إلى الجديد، دائمًا يتحرك إلى الأمام، إلى الأمام، إلى الأمام.

بعد أن أفرغ الباكستانيان حمولة أتوبيس الـ"فولكس فاجن" من السجاد، وحملاه إلى غرفتهما في الطابق الثاني، طلبا حساءً. كان "هاري" يقلب في صحف الأسبوع الماضي وهو يتناول طعامه، أما أنا فكنت أحضر له كأس نبيذ بعد الآخر.

"تشيسلا" - الذي كان قد أخلى غرفته - جاء لإحضار بعض الأشـياء، ثـم جلـس فـيما بعـد معه. قال:

- في صحة مشروعك الخاص.

ورد "هاري":

- في صحة المحل، وأن يسير كل شيء على ما يرام.

فأجابه "تشيسلا":

- في صحتنا!

هذا الحوار احتفظت به في الذاكرة على الرغم من تفاهته. ولأن بار الفنـدق كـان مغلقًـا يوم الإثنين، فقد انطلقا معًا في حوالي العاشرة. رأيـت الـرجلين يمـران بجـوار الشـباك في اتجـاه مركز المدينة.

لف "تشيسلا" ذراعًا حول كتف "هاري"، وبالثـاني أخـذ يلـوح ويشـير، مسـددًا نظراتـه نحـو الأرض. بقيت بمفردي مع الباكسـتانيين. تحـدثت المـرأة بصـوت خافـت مـع الرجـل الـذي كـان يحسب شيئًا على الآلة الحاسبة، ثم أدار الآلة ليريها الناتج. قلت لهـما إننـي لا بـد أن أحاسـبهما الآن لأن المطعم سيغلق. دفعا واختفيا.

أخذت أفرش الموائد في الجزء الخلفي مـن المطعـم اسـتعدادًا لوجبـة الإفطـار. بعـد أن انتهيـت، جلست إلى المائدة بجوار الباب وأخذت أطبق المناديل. العاملون في المطبخ انصرفوا إلى بيوتهم. وفيما عدا صوت الراديو في الاستقبال، ساد الهدوء في الفندق.

عندما سمعت صليل السلسلة المعدنية عند بوابة الدخول بعـد الحاديـة عشرة والنصـف بقليل، عرفت أن "هاري" قد عاد. لم أكن بحاجة حتى إلى النظر إليه. وقـف خلـف مقعـدي ، ثم انحنى ببطء على كتفي. أدرت رأسي ولمست وجنتـه أثنـاء ذلـك. همـس في اللحظـة التـي شعرت فيها بكفه:

- "كونّي".

لمس أولًا بطاقة الاسم، ثم تحسس طريقه إلى صدري. صحتُ:

- لا.

ضغط "هاري" صدري ناحية ظهر المقعد. أخذ يقبِّل عنقي، فوجنتي، ثم - عندما رجعت برأسي للوراء - شفتي. مد ذراعيه وأصابعه إلى ركبتي. استدرت تحت ذراعيه بسرعة إلى الجانب، ونهضت.

كان أطول مني كثيرًا. اكتسى وجهه الآن لونًا أحمر قانيًا، بينما كان شعره أشعث. نظراته مسددة إلى أسفل، إلى حذائي القماشي الأبيض نصف الرقبة. تطلعت إلى خصلات شعره الواقفة على رأسه. اكتسبت ملامح "هاري" الآن جرأة لم ألحظها فيه من قبل.

- تعالي. فلنتمشَ قليلًا.

استولى عليَّ الخوف من أن أخطئ. أحضرت الجاكيت التريكو، وأقفلت باب المطعم، وسلمت المفتاح عند الاستقبال. في الخارج لف "هاري" ذراعه حول خصري. وددت لو اختفيت عن الأنظار، إلا أننا كنا نقف كل عدة خطوات، لنتبادل القبل. لقد عثر كل منا إذًا على الآخر، هكذا ببساطة، بلا كلمات كبيرة. هكذا فكرت.

عند التقاطع جذبني على قطعة أرض عشبية. همستُ آملةً أن يكون في هذه الكلمة الكفاية:

- "هاري".

انحدرت يداه من خصري إلى أردافي، ثم إلى أسفل، إلى الساقين، ومن تحت الجيبة ارتفعت ثانية.

- "هاري".

رجوته. قبَّلت جبهته، في حين امتدت يـداه إلى مـلابسي الداخليـة، ثـم سـحبه إلى أسـفل. أحكم "هاري" الإمساك بي، واندست إحدى يديه إلى ما بين فخذي، وشـعرت بأصـابعه، إصـبع واحد في البداية، ثم أصابع عديدة.

بدا "هاري" سعيدًا. ضحك قائلًا:

- لِمَ لا؟ قولي لي، لِمَ لا؟

رأيت شعره وقفاه. واصلَ التحدث. لم أفهم كل ما قاله، لأنه كان يضحك كثيراً. لا هو أصغى إليَّ ولا يداه. أعقب ذلك ألم، بدأ من الكتف وسرى إلى الظهر. صاح صوت:

- ارفعي ذراعك.. ارفعي ذراعك!

للحظة لم أدرِ أين أنا، ولا ما الشيء الذي جثم عليَّ. شُدت البلوزة إلى أعلى. وكرر الصوت جملته عدة مرات، مشددًا على كل مقطع:

- ارفعي ذرا-عك!

لم يعد صوت "هاري" يشي بالسعادة. استند لحظة على معصمي، وبعدها لم أعد أرَ شيئًا. ظللت أسمعه فحسب. ثم أحسست به يلحـس ويعـض. حاولـت أن أتـنفس بانتظـام. ركـزت فكري على ذلك. مهما كان ما يحدث - المهم أن أتنفس. هذا هو ما أتذكره.

ظل "هاري" راقدًا فوقي. استطعت أن أخلِّص ذراعًا من البلوزة. وحاولت أن أسـتدير وأبعـده عني. كانت السماء سوداء، والمصابيح كزهرة رمادية كبيرة. انقلب "هاري" على ظهره، فـاغرًا فمـه. قميصه مشدود لأعلى. بطنه أبيض، وصرته قاتمة اللون. ارتخى عضوه جانبـًا، فـوق فتحـة ملابسـه الداخلية مباشرة. نطقت:

- "هاري". لا يمكن أن تظل راقدا هنا.

ابتلع ريقه. كنت أريد التحدث. تحدثت طوال الوقت الذي كنت أبحث فيه عن ملابسي الداخلية. تصرفت مثلما يفعل الناس الذين تعرضوا إلى حادثة اغتصاب في فيلم. حاولت أن أشد الجاكتة من تحته، لكنني فشلت. ومشيت مبتعدة.

خطر على بالي الفكرة التي تجيئني كثيرًا في الفترة الأخيرة وأنا في طريقي إلى المنزل: "ليس عليَّ سوى النوم، وفي الغد سوف أراه ثانية، زوجي القادم، أبو أطفالي الكثيرين الذي لا يقارن برجل آخر في الدنيا؛ الرجل الذي سيريني الدنيا، والذي يفهم كل شيء؛ الرجل الذي سيحميني - ويثأر لي".

ما حدث بعد ذلك عرفته من الرسائل والمكالمات التليفونية. ظلت وظيفتي شاغرة، وفي الخريف أغلق "فنتسل" أبوابه. وجدت "إريكا" عملًا لدى إيطالي جرَّب حظه بافتتاح مطعم للبيتزا في شارع المصنع. في أبريل 1991 وجد نفسه مرغمًا على إغلاق المطعم. وجدت "إريكا" عملًا في مطاعم أخرى. ولكن ما تكاد تمر عدة أشهر على الافتتاح، حتى يغلق المطعم. حدث لها ذلك أربع مرات، وهو ما جلب لها في نهاية الأمر سمعة سيئة. إنها تجلب النحس. لم تلتصق السمعة بها طويلًا، فقد لاحظ الجميع سوء الأوضاع.

في تلك الأثناء كان "هاري نلسون" قد غادر بحقيبة ملفاته المدينة من جديد. يقولون إنه ما زال يملك عددًا من المنازل. ولكن لم يره أحد بعد ذلك.

لم أعثر على عمل إلا في الغرب، في مدينة "لوبيك". وبعد سنتين عملت على سفينة سياحية إنجليزية. والديَّ يحكيان ذلك بسرور. كثيرًا ما أتصل بهما تليفونيًّا، أو أرسل لهما كارتًا سياحيًّا.

على الرغم من أنني كنت ساذجة للغاية وبلهاء، فإنهما يقولان إنني أدركت مبكرًا - عندما كان الآخرون لا يزالون يتمسكون بأهداب الوهم - ما ستؤول إليه الأمور هنا. ولديهما بعض الحق في ذلك.

(3)

قصة جيدة فعلًا



"داني" تحكي عن عيون التماسيح. إنها تكتب أقل مما ينتظره زبائن الإعلانات، وأكثر من اللازم عن المشاجرات. رئيسها – "كريستيان باير" - ساخط. حكاية "بيتر برترام". في النهاية لا بد أن تفكر "داني" في حجة مناسبة.

فبراير 1991. أعمل في صحيفة أسبوعية. في كل مكان ينتظرون الانتعاش الاقتصادي. يبنون سوبر ماركت ومحطات وقود، ويفتتحون مطاعم، ويقومون بترميم وتحديث أول مجموعة من المنازل. عدا ذلك ليس هناك سوى بطالة واسعة، ومشاجرات بين الفاشيين والمجموعات المسماة بالـ"Punks" بالـ"بانكس"، وبين حليقي الرؤوس الـ"سكينهد" "Skinhead" وذوي الرؤوس الحمراء. في عطلة نهاية الأسبوع يأتيهم المدد من المدن المجاورة، من مدينة "جيرا" و"هاله" و"لايبتسج" – "كونيفتس". المتفوقون في العدد يطردون الآخرين. الأمر يدور دائمًا حول الثأر. المسؤولون في المدينة وفي المجلس المركزي يطالبون الشرطة والقضاء باتخاذ خطوات أكثر حزمًا.

في مطلع يناير كتبتُ صفحة كاملة عمَّا يحدث كل يوم جمعة في محطة السكك الحديدية. أمدني "باتريك" بالصور. بعد ذلك بأسبوع أثارت مقالة أخرى لي عاصفة من الجدل. استنادًا على أقوال شهود عيان كتبت أن مجهولين فتحوا عنوةً في الليل باب إحدى الشقق في شمال مدينة "ألتنبورج"، وانهالوا ضربًا على "مايك ب." من جماعة الـ"بانكس" حتى كاد أن يموت. استفاق من الغيبوبة بعد يومين. كان أخوه يرقد في القسم نفسه من المستشفى مصابًا بارتجاج في المخ. خدَّروا الأب، أمَّا الأم فكانت في إحدى الدورات التدريبية.

منعني "باير"، رئيسنا في العمل، من أن أكتب اسمي على التحقيق الصحفي. أيضًا لم يسمح لي بكتابة اسم "باتريك". وأصر على هذا، لأن صديقته كانت تنوي الانتقال للسكن معه، فخاف عليها في حال قام المتطرفون الذين كُتب عنهم التحقيق الصحفي بمهاجمتها. فكَّر "باير" جديًّا في شراء كلب "شيفر" لحراسة قسم التحرير، إذ أن "لا أحد يؤمِّن الإنسان ضد التخريب والنهب"، كما يقول.

لكنني كنت أشعر بالخوف أكثر من المُسن الذي يسكن في الطابق الذي يعلو غرف التحرير. في البداية، وجدت أوراقًا تحت مسَّاحة السيارة تطالبني بصفة نهائية بإرجاع نقوده، ثم مزَّق الإطارات الأمامية لسيارتي القديمة من طراز "بليموت" التي لم يرضَ أحدٌ أن يؤمِّن لي عليها. فعل العجوز ذلك مرتين. في المساء كان ينتظر ساعات على السلالم المظلمة أمام مدخل الجريدة. لم أكن ألحظ وجوده إلا عندما يزأر:

- فلوسي، عايز فلوسي.

حاولتُ أن أتحدث معه، وضربت جرس شقته. قبل أربعة أسابيع كنا نتبادل الحديث بصورة طبيعية للغاية. بل لقد حملت ذات مرة دلو الفحم بدلًا عنه، وصعدت به إلى شقته.

أنا مجهدة من فرط العمل وأعيش - منذ أن انفصل "إدجـار" عنـي - عفيفـة كالراهبـات. أتفهم موقف "إدجار". أنا ليس لديَّ حتى الوقت لشراء هدية لابن أختي بمناسبة عيد مـيلاده الثالث.

مرة أخرى يذكرون اسمي في غرفة رئيسنا "باير"، لأنني لم أنته بعد من كتابة المقالة عن عقـارات "نيلسون". "هاري نيلسون" من زبائن الإعلانات في الجريدة. ينشر إعلانًا أسبوعيًّا، على ثلاثـة أعمـدة، مائة ملليمتر. على الرغم من الخصم الذي يبلغ 20 في المائة فإنه يدفع 336 ماركًا، بالإضافة إلى ضريبة المبيعات، أي في العام 17,472 ماركًا، بالإضافة إلى ضريبة المبيعات. "أن تملك، أو لا تملك" يقول "باير".

السيدة "شولتسه"، التي تدخل ممسكة بفنجانين من القهوة، تصب لي حليبًا. في العادة لا تفعل ذلك إلا لـ"باير".

أقول إن نشر صورة مع إمضاء تحتها أفضل من أي مقالة، وإنني أسـتطيع كتابـة أربـع مقـالات للتعريف بتلك الشركات على صفحة واحدة، لكنني لا أعرف متى، وإننا لا بد أن نتعلم متى يجب أن نقول "لا". "باير" يتحدث من جديد عن الــ 17,472 ماركًـا، وينتهـي بقولـه: "ربمـا يتوجـب علينـا أن نتحدث عن راتبك، يا "داني".

أتطلع إلى الكسوة الخشبية لمكتبه المخابراتي - وهو من أثاث مكاتب وزارة أمن الدولة في ألماني الشرقية "الشتازي"، الذي وُهِبَ إلى جمعية "الغوث" الخيرية، والتي قامت بدورها ببيـع ما لا تحتاجه بأسعار زهيدة. الأشكال المتموجة على سطح الخشب ذكرتني مرة أخرى بسـؤال "باير" أثناء المقابلة الشخصية، مثل سـؤاله إذا كنـت حـاملًا أو "أخطـط لمولـد طفـل". واصـل أسئلته في هذه الموضوعات، وكان يبدو على استعداد لتبرير سبب سؤاله. في البدايـة حملقـت فيه، ثم في المكتب، وأجبته بـ"لا".

في كل مرة أنوي أن أتحدث مع الآخرين عن هذه التموجات أميبية الشكل. كلنا كنا مجـبرين عـلى تسـديد النظـر إلى هـذه الخطـوط والـدوائر الموجـودة في طـرف

المكتب جهة اليسار التي تشبه عين التمساح، لكن لا أحد يتكلم عن ذلك، وأنا أنساها دومًا وكأنها حلم كريه.

أشرح لـ"باير" - الذي يقوم بشبك إصبعيه السبابة أو الوسطى بإبهامه في المواقف المحرجة - أنه ليس من الجيد أن ترضخ صحيفة لرغبات عملائها. على العكس. لا بد أن نهتم أكثر بالمحتوى، بالتصميم والأخراج الداخلي. لا بد أن نتبنى الموقف التالي: "من المسموح أن يكون المرء زبونًا عندنا". العكس معناه أن نصير كالأحذية!

أجابني قائلا:

- مهلًا، مهلًا، يا "داني"!

لا يكبرني "باير" في العمر كثيرًا. عندما يناديني باسم العائلة فإن وقع اسمي يكون غريبًا. لكن من السخافة أيضًا أن يناديني بـ "داني". يريد أن يكون زميلًا، وعادلًا، لذا يتيح لنا دائمًا الوقت لنتحدث. ولكن متى سمع كلامنا؟ إنه حتى لا يفكر في مقترحاتنا. لا يفقه شيئا في العمل، ويظن أنه إذا دبَّر النقود فستسير الأمور على ما يرام. قال لي إنه يجب أن أحضِّر المقالة عن "هاري نيلسون" المزودة بصورتين - إذ أن "نيلسون" قام بتجديد منزلين. كما رجاني "باير" بأن "أدع حروب العصابات على جنب" - على حد تعبيره - خلال الأعداد القادمة، وأن أهتم بمتابعة الموضوعات الأخرى. مثلًا مقالة عن البحيرة في "روزيتس" أو عن الممتلكات اليهودية السابقة في ميدان "ماركت بلاتس"، مناقشة نقدية حول المبدأ القائل: "الإرجاع بدلًا من التعويض".

اتفقنا ألا نرفض أحدًا يتصل بنا أو يأتي إلينا في الجريدة، وأن علينا أن نستمع إلى كثيرين حتى نستطيع الحصول على قصة جيدة، فالمرء لا يعرف أبدًا إذا كانت المعلومات صحيحة، وإذا كانت كذلك، فما ذلك الشيء الصحيح؟ لا يريد شكاوى بعد الآن، أو على الأقل لا يريد شكاوى كثيرة، وعلى أي حال لا

يمكن أن يسـمح إطلاقًـا بفقـد عميـل – "نيلسـون" - يـنشر مائـة مليمـتر عـلى ثلاثـة أعمـدة. صافحني "باير" مودعًا:

- إلى اللقاء. الساعة السابعة مساءً في نادي السيارات. بعدها ممكن أن نشرب معًـا كـأس بيرة.

أتساءل متى سأرى شكل الأميبا وعين التمسـاح عـلى مكتبـه مـرة أخـرى؟ وهـل سـتكون حياتي قد تغيرت عندئذ؟

عندما مررت بالسيدة "شولتسه"، مدت إليَّ سجل التنقلات، وعليه مفتاح السيارة "الرينو" وورقة مكتوب عليها: "برترام، الساعة الخامسة مساءً" - ثم العنوان والتليفون وعلامتا تعجب.

قالت:

- إنه يعلم أنك ستتأخرين، وهو ينتظر.

تذكرت اتصاله التليفوني. تحدث بصوت خافت مضطرب. لـيس كالأصـوات اليائسـة التـي تصل إلى غرفة نومها من العائلة التـي تسـكن بجوارهـا، أو مـن العـاملين في الجـراج. قـال إن صحيفتنا هي الوحيدة التي يثق بها.

يسكن "برترام" في شمال المدينة، شارع "شومان"، أمام مسـاكن الـروس. أمـام بـاب منزلـه تمامًا وجدت مكانًا شاغرًا أستطيع أن أركن فيه السيارة. عليَّ الصعود إلى الطابق الرابع.

فتح بسرعة وصافحني. قلت له:

- ليس لدي إلا ساعة.

رد قائلًا:

- على الأقل يمكننا البدء.

ثم صب قهوة من الترمس. على طبقي وطبقه قطعتان من الجاتوه. وضع "برترام" طفي السجائر ثانية على الطاولة الصغيرة أمام الكنبة، ثم أشعل شمعة حمراء.

- أم أنك تفضلين الشاي؟

تساءل "برترام" وهو يجلس أمامي على الفوتيه. رأيت خلفه حوض سمك دون نباتات خضراء. كما أنني لم أرَ أسماكًا.

أعداد من صحيفتنا مرتبة في عدة كومات على الكنبة. أقرأ المانشيت: "من جنوب أفريقيا عبر أستراليا إلى كندا: المطالبة بالممتلكات في ألتنبورج" الخميس 25 أكتوبر 1990 (حينها قام المهاجرون والهاربون من النظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية بالمطالبة بممتلكاتهم التي تركوها عند هربهم). قبل معارك الـ"سكينهد" والـ"بانكس" هبطت أرقام توزيع صحيفتنا إلى أقل من 12 ألف نسخة.

- أحسدك على مقالاتك. عندما يكتب المرء فإنه يرى العالم بعيون أكثر انتباهًا. ولكن لا بد أن تكوني أكثر شجاعة...

بدلًا من أن يواصل الحديث، أخذ قطعة من الجاتوه المسماة "لدغة النحل"، وقال لي:

- تفضلي.

عندما التوت شفتاه وظهرت في عينيه نظرة مرعوبة، وازدادت التجاعيد بين حاجبيه عمقًا. بفم ممتلئ راح يمضغ بعناية فائقة مبالغ بها. فوق الكنبة كانت لوحة "مقهى ليلي" لـ"فان جوخ" معلقة على حائط مكسو بورق أبيض به نقش فضي اللون.

أخرجت جهاز التسجيل، وفتحت دفتر الملاحظات، ونزعت غطاء قلم الحبر، ثم كتبت "برترام" وتحت الاسم جررت خطًا.

- حتى أكون صادقًا معكِ، لم أحك ما حدث لإنسان.

أسرع في مضغه ثم بلع، وأضاف:

- أريد في البداية أن أسألك إذا كنت تريدين أن أخبرك بذلك. إن ما حدث فظيع إلى حد ما. أنت أول إنسان أحكي له.

نفض راحة يديه فوق الطبق من فتات الجاتوه، ثم ارتاح إلى الوراء.

سألته إذا كان يسمح بأن أبدأ التسجيل.

فأجاب "برترام":

- آه طبعًا، بديهي.

تدلى ساعده الأيمن من فوق الفوتيه.

- حدث ذلك يوم الخميس، من أسبوعين. كل خميس تذهب زوجتي لزيارة إحدى زميلاتها في العمل. كل واحدة تعتني بشعر الأخرى، وكذلك بأظافر القدمين. لا يكلف هذا شيئًا، ويتبقى لهن أيضًا وقت كاف حتى تحكي كل واحدة للأخرى عمًّا لا تحكيه النساء إلا لبعضهن البعض. في تلك الأمور يظل الرجال في الخارج، شئنا أم أبينا. لا تتخيلي ما قد تدفعه "دانيلا" للحصول على شعرٍ كشعرك!

تعاقبت عدة خبطات. لم ألحظ على الفور أن "برترام" هو الذي كان ينقر على الفوتيه.

- مثل كل يوم خميس خرجت "دانيلا" من شقتنا نحو السابعة النصف مساءً. كنت قد سمحت لابننا "إريك" - هو في الثانية عشرة من عمره، وإن كان يبدو أكبر من ذلك - أن يشاهد التليفزيون، أو يلعب على الكمبيوتر حتى التاسعة. استمتعت بالهدوء، وعملت هنا في غرفة المعيشة - ربما أحكي لك عن ذلك في مرة قادمة، لا أريد أن أضيع وقتك. إلى هنا وكل شيء تمام. عندما دقت التاسعة ناديت على "إريك" وقلت له إن عليه أن يودِّع صديقه ويذهب إلى

السرير لينام. صاح "إريك" من غرفته: "حاضر يا بابا، حاضر". واصلت العمل وسمعت بعد عشر دقائق باب الشقة ينغلق. أسعدني أن "إريك" سمع الكلام من أول مرة. كنت بصدد وضع اللمسات الأخيرة على جزء شائك.

- لمسات أخيرة على ماذا؟

- أنا أكتب. وعندما أكتب لا أطيق أقل إزعاج أو أخف الأصوات. وفي هذه الحالة - وأنتِ خير العارفين – عندما تحاول التركيز، تصبح جميع الأصوات عالية فجأة، لدرجة أن الأمر قد يصل إلى أن يسمع المرء بكاء امرأة عبر ثلاثة طوابق. ومع ذلك كان لا بد – رغبت أو كرهت - أن أنتظر حتى يجيء "إريك" ليتمنى لي ليلة طيبة. سمعت صوت السيفون، وكذلك تحركاته في الحمام. وعندما خيَّم الهدوء على الشقة، اعتقدت أن "إريك" قد ذهب إلى الفراش دون أن يأتي إليَّ. في الفترة الأخيرة كان يقوم بأفعال غريبة من هذا القبيل - مراهقة. أخذت أفكر هل سأزعجه إذا ذهبت إليه لأقول له تصبح على خير؟ ثم قررت الذهاب إليه. وهناك.. فتحت الباب.....

صمت "برترام". وعندما رفعت رأسي، تلاقت نظراتنا. بقيت التجاعيد على جبهته رغم أنه كان يبدو منبسط الأسارير.

- تخيلي.. ثلاثة فتيان كانوا يجلسون هناك.

ندت عن يده اليمنى إشارة وكأنه ينتزع شيئًا من الهواء.

- تخيلي ذلك. ثلاثة فتيان، كلهم في عمر "إريك"، ثلاثة عشر عامًا على الأكثر، أو أربعة عشر عامًا على أقصى تقدير. جلسوا هناك يتهامسون دون أن يلاحظوا وجودي. لم أعرف بالطبع حول أي شيء يتهامسون. كل ما أعرفه أن ثلاثة فتيان غرباء يجلسون في شقتي في التاسعة والنصف مساءً. نهضوا وصافحوني الواحد بعد الآخر متمتمين بأسمائهم الأولى والعائلية، ثم جلسوا. سألتهم: "أين "إريك"؟"، ولأنهم لم يجيبوا، كررت السؤال، وفجأة لمحت "إريك" راقدًا تحت غطائه المفرود تمامًا، كأنه جثة - لا يظهر منه سوى جزء من الشعر فقط.

"إريك"، ناديت عليه. "إريك، ما معنى هذا؟"، عندئذ وضع كل فتى من الفتيان الثلاثة إصبعًا فوق الشفاه محذرين، وقالوا بصوت كالفحيح: "هس"!

راح "برترام" يمثِّل ذلك، ويكرر: "هس، هس".

انهمكت في رسم حلقات مستطول على طول الصفحة، من اليسار إلى اليمين. احمرَّ رأس "برترام" من الانفعال. أكمل:

- صاح أطولهم رافعًا موس حلاقة: "لا توقظه لا بد أن ينام".. سحب الغطاء حتى ظهرت رأس "إريك".

قال:

"أذن صغيرة جميلة"، ثم أضاف، محركًا الموس يمينًا ويسارًا حتى أراه جيدًا، وكأنه ساحر يظهر شيئًا أمام الجمهور: "أنف صغير جميل". صاح آخر: "ليس أمامك أي فرصة. لذلك دعك من الحماقات، وإلا فلن يفقد "إريك" الصغير أذنه فقط". سألتُهم: "من أنتم؟"، فأجابوا: "لا تشغل بالك بهذا". أمروني بأن أجلس، وقيدوني إلى كرسي مكتب "إريك". لبرهة، استيقظت داخلي الرغبة في المقاومة: قلت لنفسي وهم يقيدونني: "ستتمكن منهم، أنت أقوى من هؤلاء الأطفال".. إلا أنهم مسلحون بالأمواس، وإلى أن أصل إلى "إريك" سيكونون قد أصابوه بعاهة أو قتلوه. يبدو من تصرفاتهم أنهم لا يفعلون ذلك للمرة الأولى. تمرنوا على ذلك. إنهم محترفون.

ما زلت أرسم خطوطًا ثعبانية حول اسم "برترام". لم يعد يتحدث. آخذُ قضمة من قطعة الجاتوه، ثم أضعُ الطبق مرة أخرى. "برترام" يرسل نظراته ناحيتي. "هذه القطرة يمكن أن تنقذ حوض أسماكك"، أقرأ في إحدى الإعلانات في الصحيفة الموضوعة أعلى الكومة، وتلقائيًّا أحسب الثمن: عمودان، طول الواحد 60 مليمترا، بالإضافة إلى 50% للنشر على الصفحة الأخيرة.

- يرن الجرس لحظة.

أضاف برترام، ثم تنحنح، وقال:

- صرخت يأسًا، أخذت أصرخ كالمجنون طالبًا الغوث، إلى أن ضغط أحدهم براحة يده القذرة الرطبة على فمي. ثم دخل اثنان، كان كل همهما أن يبصقا عليَّ. راح الخمسة يبصقون عليَّ، كل منهم ثلاث مرات على الأقل. ثم كمموني بمنشفة "دانييلا". الحمد لله أنني تقريبًا لم أكن مصابًا بالزكام، وإلا لمت مختنقًا. لم يهمهم إذا كان ذلك سيسبب لي الاختناق أم لا. ثم سمعت صوت المفتاح في باب الشقة. وفجأة خيَّم عليهم الصمت التام. صاح أحدهم في اتجاه الممر: "مساء الخير، يا مدام "برترام". "إريك" الصغير ليس على ما يرام، تفضلي، بسرعة، هيا ادخلي!" كدت أجن عندما فكرت في الصدمة التي لا بد ستصيب "دانييلا"، صدمة لن تتغلب عليها طول عمرها. إلا أنني مقيد، ولا أستطيع مساعدتها. لم أعد أستطيع أن أفعل أي شيء. أغلقوا الباب على الفور خلف "دانييلا"، ثم قال الولد الذي يجلس على سرير "إريك": "اخلعي معطفك يا مدام "برترام"، الجو هنا حار"، وعلى الفور قهقه الخمسة.

صوت "برترام" يغدو خافتًا ورتيبًا. يتحدث متعجلًا وكأن الوقت ينساب من بين يديه. الفتيان يفتحون البنطلونات، ويحدث ما يجب أن يحدث. لا يترك "برترام" أي تفاصيل، وإن كان قد نسي منذ وقت طويل الكمامة التي سدت فمه.

- حكايتك أصبحت غير منطقية.

قلت له وأنا أغلق جهاز التسجيل. وأضفت أنني أود أن أستفيد من الدقائق الخمسة المتبقية لأحكي له قصة عشتها بنفسي، لكنها – على عكس قصته - حقيقية، حقيقية بكل تفاصيلها.

أحكي له أنني في الشهر الماضي كنت من الحمق بحيث دخلت شقة رجل عجوز مجنون يسكن فوق صالة التحرير في الجريدة. عندما وقفت في شقته الباردة - لأنني كنت أعتقد أن بإمكاني أن أطرد الأوهام المعششة في رأسه - قادني إلى غرفة النوم

وزأر في وجهي مُدعيًا أنني لصة محترفة، زعيمة عصابة لا تقف في طريقها ولا حتى الأقفال المصنوعة في الغرب. ادَّعى أنني سرقت منه معاش شهرين، وأيضًا بنطلونه الجديد وصندله البني. ليس هذا فحسب، بل إنني ألقيت ببقايا الشمع في عدة حلاقته، وأخفيت البلطة خلف دولاب الملابس. وإثباتًا لصحة كلامه أخرج البلطة من خلف الدولاب، وأمرني أن أتبعه، لأن هذا لم يكن كل شيء، لا. جر ساقيه مارًّا بي، ثم أطفأ النور، وساد الظلام التام. لم يكن هناك ضوء في أي غرفة داخل البيت، ولا حتى في الممر. أقف هناك متخشبةً أصغي إلى حفيف خطواته. ضربة واحدة تكفي، وأنا..... ثم يُشعل ضوء أحد المصابيح. أدرك أخيرًا أنني أقف في غرفة نوم رجل عجوز مخبول. وقف معطيًا ظهره لي، واضعًا البلطة بين ركبتيه، ثم فتح أحد الأبواب، مغمغمًا بشيء عن اللصة المحترفة. حمدتُ الله على أن المفتاح كان في الباب. أديره، لكن اللسان لم يستجب..... أشد الباب عنوة فينفتح، يتشبث العجوز بذراعي، ويصرخ، وتسقط البلطة على الأرض، الباب الآن مفتوح وعلى أعتابه تقف السيدة "شولتس"، "شولتس" البدينة، فتدفعه إلى الخلف. تدفعه بكلتا كفيها إلى الخلف.

أقول له وأنا أغلق سوستة شنطة يدي:

- هذه قصة جيدة بالفعل. ومقارنة مع قصتك فهي قصة بارعة!

بضجر ينظر "برترام" أمامه. أقول له إنني غارقة حتى أنفي في مثل هذا الهراء الذي حكاه لي لتوه، وأضع يدي أمام أنفي. "حتى أنفي!"، أصرخ في وجهه وأضيف أنني لا أفهم أبدًا لماذا أسمع كل يوم هذه الثرثرة التي يحكيها لي أناس غرباء. تدهشني هذه الحقيقة وأجد نفسي مرغمة على الضحك.

- بطريقتك هذه لن تتقدمي كثيرًا.

قال "برترام" ذلك وشرع وهو جالس يجمع الأطباق. تناول طبقي وعليه قطعة الجاتوه "لدغة النحل"، والقطعة الأخرى المقضومة، ثم أمسك فنجاني النصف ممتلئ، ووضع كل شيء على طبقه، ونفخ في الشمعة حتى انطفأت.

أقول له إنه ربما على صواب، وأحملق في منظر الأرضية الباركيه التي أراها الآن أمامي بدلًا من الطبق والفنجان. وها هي ثانية - عين التمساح التي ترمقني من وراء جفون ثقيلة، عيـون تـتراءى لي من الموائد وورق الحائط والدواليب والألواح الخشبية في الممرات، تـتراءى لي مـن كـل مكـان - العالم مليء بعيون التماسيح.

أنصح "برترام" - عندما تختمر مثل هذه الحكايـات في رأسـه - أن يشـتري مسدسًـا بغـاز مسـيل للدموع، أو "سبراي" يمكن وضعه في حقيبة اليد، أو أن يلجأ لعاهرة، أو أن ينشر إعلانًا يبحث فيه عن امرأة. أثناء حديثي أركز نظراتي على تجعيدة جبينه التي خِلتُها لوهلة ندبة. وأنا أوزع نصائحي فكرت في العيون والأميبا والتماسيح التي أراها حولي في كل مكان، وأحدس أن هذه هي البداية فقـط، التـي ستتبعها أشياء أخرى ستطاردني أيضًا، وأنني في القريب العاجل لن تخطر على بالي فكرة واحـدة دون أن أجدها مسمومة، أو تذكرني بشيء وضيع، أو تثير قرفي.

أغلقَ "برترام" الباب خلفي. أتحسس مفتاح النور في الممر، ثم أسمع التكة وبعـدها يضيء النور في طابق "برترام".

إطارات "الرينو" على ما يرام. ولكن شخصًا ما ركن سيارة "أوبيل" ملاصـقة لسـيارتي، حتـى أننـي وجدت نفسي مرغمة على الصعود إلى السيارة من الباب الأيمن.

ما زال لديَّ وقت حتى السابعة. كانت المحلات التجارية قد أغلقـت أبوابهـا. لا أعـرف مـاذا أفعل كل هذا الوقت. في البداية عقدت عزمي عـلى قيـادة السـيارة إلى الخلـف، ثـم الاسـتدارة، حتى أخرج سالمة من بين السيارات المتلاصقة على كلا الجانبين بجـوار حاويـات القمامـة. يخطـر على بالي كم سيثير اختفاء سيارتي الفرحة، العثور الآن على ثغرة لصفِّ السيارة، وربمـا أمـام بـاب البيت! أرى نفسي في المرآة أضحك. أفكر أنه ليس جيدًا أن يعـيش الإنسـان بمفـرده. لـيس فقـط لأن كل شيء يمسي أكثر صعوبة، إنه أيضًا أمر شـاذ. ومـع ذلـك لـن أخـرج مـع "بـاير"، ولا حتـى لشرب كأس من البيرة. سأقول له ذلك بعد قليل. أجد دائمًا حجة مناسبة.

(4)

هلع



"مارتين مويرر" يحكي عن حياته المهنية، وعن رحلة بلا سيارة. زوجته تتنقل بالدرَّاجة. ما عايشه مع سائحة وسائق تاكسي في مدينة "هالبرشتات".

عندما لم يجددوا لي عقدي كأستاذ مساعد في جامعة "لايبتسج"، غدوت بين عشية وضحاها بلا دخل. كانت "أندريا" قد التحقت بدورة إعادة تأهيل مهني تعلمت فيها مبادئ المحاسبة، كما أخذتْ قبل الظهر - أثناء وجود "تينو" في الحضانة - دروسًا في الفرنسية والآلة الكاتبة. قدمنا طلبًا للحصول على سكن، وعقدنا العزم على الإقلال من التدخين، وألغينا الدورة التدريبية التي كانت "أندريا" تريد أن تشارك بها في مدرسة تعليم قيادة السيارات. استغنيتُ عن غرفتي في "لايبتسج"، وقدمتُ طلبًا للحصول على منحة دراسية، أو للحصول على عمل كمرشد سياحي، أو في أحد المشاريع، أو في شركة إعلانات، وأخيرًا في شركة VTLT المساهمة التي تعمل في مجال الحفاظ على الأحجار الطبيعية

والتي كانت بها وظيفة شاغرة كمندوب مبيعات براتب شهري مضمون يبلغ 1800 مارك بعد خصم كل المستقطعات.

قبل أن أستقر في الوظيفة قالوا لي إنهم يبحثون عن كيميائي أو جيولوجي أو فيزيائي أو ما أشبه، لكنهم لا يحتاجون أبدًا إلى مؤرخ في الفن. رجعت إلى الوراء على الكرسي الحديدي حتى لامست مسند الظهر، وشرعت أتحدث عن عمارة العصور الوسطى وعوامل التعرية وترميم المدن. قلت هذا دون أن أحول بصري عن عيني ذلك الرجل، "هارتمان"، الشبيهتين بعيني البوم؛ وهو أمر لم أنجح فيه إلا عندما كنت أتحدث دون أن أُمعن في التفكير.

بعد أسبوع جاءتني في مظروفين منفصلين دعوة لحضور دورة دراسية تستغرق عشرة أيام، مع الموافقة على العمل لديهم لمدة نصف عام على سبيل التدريب. لكنني لن أقضي فترة التدريب في ولاية "ساكسونيا" أو "تورينجن"، بل في ولايتي "ساكسونيا – أنهالت" و"براندنبورج" حيث يتركز نشاط الشركة.

سارت الأمور سيرًا لا هو بالحسن ولا هو بالسيىء. بعد ثلاثة أشهر لم أحقق الحد الأدنى المطلوب مني في الشركة. كنا نتدبر أمورنا بالكاد. والدا "أندريا" كانا يرسلان بين الحين والآخر مائتي مارك لمصاريف "تينو". ووالدتي أهدتنا أشياء للأطفال، وعندما كان "إرنست" - حماي - يأتي إلينا ليهتم بالطفل في غيابنا، كان يذهب معه للتسوق ويتكفل بثمن كل شيء. كما كانت لدينا "داني"، أخت "أندريا".

قبل أن نبدأ الحملة التسويقية الكبيرة للمادة الحافظة "أونيل 290" طلبت السماح لي بأسبوع إجازة في يونيو. سافرنا بسيارتنا الـ"أوبيل كاديت" إلى "آلبيك" على بحر البلطيق. عندما أتذكر هذه الرحلة اليوم أعتقد أن تلك الأيام كانت آخر أيامي السعيدة. كنا نبحث عن المحار وأحجار الكهرمان، ونبني القلاع الرملية، نطفو ثلاثتنا فوق المرتبة الهوائية على سطح المياه ونجذف بالأيدي والأقدام حتى نصل إلى العوامة. اشتريت لـ"أندريا" بسعر مخفض

مركبًا داخل زجاجة. وفي المساء، بعد أن ينام "تينو"، كنا نذهب إلى بار الفندق، ونشرب كأسًا، وندخن أو نرقص عندما يعزفون موسيقى ذات إيقاع بطيء.

في نهاية الأسبوع ابتلعت ماكينة البنك بطاقة الائتمان الخاصة بي. في اليوم نفسه سافرنا عائدين. سألتني "أندريا":

- هل نحتفظ باشتراكنا الشهري في أوراق اليانصيب؟

يوم الأربعاء التالي، وبعد أن عدت لتناول العشاء، نادتني "أندريا" إلى غرفة النوم، وهناك سلمتني رسالة مطوية. ابتسمتُ معتقدًا أنها حصلت على موعد لمقابلة شخصية.

عليَّ أن أدفع 433.50 ماركًا غرامة، وأن أرسل رخصة القيادة بالبريد المسجل إلى مركز الغرامات الذي سيحتفظ بها لمدة شهر، وذلك لأنني قدت السيارة بسرعة 146 كم في الساعة بدلًا من 80. بالإضافة إلى ذلك فقد حصلت على أربع نقاط، وفقًا للنظام المطبق على أصحاب السوابق. لاحظتُ أن "أندريا" على وشك بالبكاء على الرغم من أنها كانت تبتسم، ثم ألقت بنفسها على الفراش وضغطت بيدها اليسرى على المخدة التي وضعتها أمام وجهها. ظللت أحملق طوال الوقت في نعل حذائها المنزلي النظيف، بلا شائبة واحدة. في ذلك المساء أحسسنا لأول مرة بالهلع.

في الصباح كنا قد تجاوزنا أسوأ الأمور. أرسلت رخصة السواقة، وخططت للسفر بالقطار لإنجاز مقابلاتي التالية. لا أعرف السبب، ولكن هذا القرار جعل مزاجي معتدلًا. في أسوأ الأحوال سيتوجب علينا الاقتراض من "دانيداني" أو من والدينا. لن تلحظ الشركة شيئًا، وبذلك أحصل على الوظيفة. قالت لي "أندريا":

- أنت لها.

أعدت لي الحقائب، فوضعت في أسفل الشنطتين الكتالوجات مع مشروع قلعة "آبنبرج" في "فرانكن الوسطى"، التي سنثبت فيها الحجر الرملي بمادة OH ومادة 290 UNIL، ثم غلفت عينة الزجاجات (200 مليمتر) أولًا بورق

جرائد، ثم بين ملابسي الداخلية وجواربي وقمصاني. كانت قد خيطت قطعة جلد كبطانة على حزام الشنطة الذي يعلق على الكتف.

قضيت اليوم في مصلحة العناية بالآثار في ولاية "ماجدبورج"، ثم زرت شركتي "ماكيولان" و"شوستر" دون أن أتمكن من الاتصال بالمدير هناك أو مساعديه، فتركت كتالوجاتنا، واتفقت على عرض منتجاتنا عندهم بعد ظهر الخميس وصباح الجمعة لمدة نصف ساعة في كل مرة. في المساء سافرت إلى "هالبرشتات" حيث كان لدي في اليوم التالي خمسة مواعيد.

عند وصولي، كان ضوء المساء ما زال يقاوم الليل، حتى أنني تعرفت من نافذة القطار على أبراج الكاتدرائية وكنيسة القديس مارتين والسيدة العذراء.

كانت كشافات سيارات الأجرة مضاءة. سرت في ساحة المحطة متجهًا ناحية كابينتي تليفون، ووضعت حقيبتي بجانب الكابينة اليمنى ذات التليفون الذي يعمل بالكارت. وسماعة التليفون في يدي، دفعت بخصري باب الكابينة، ثم قربت أمتعتي من الكابينة. رأيت رصيدي على شاشة التليفون 3.45.

عندما قالت "أندريا" آلو، تحوَّل رقم 45 بعد الفاصلة إلى 26. قالت "أندريا" ثانية:

- آلو؟

حكيتُ لها أن الدكتور "زيدليوس"، الجيولوجي في مصلحة العناية بالآثار، استمع إلى كل ما قلته، وفي النهاية صافحني متمنيًا لي حظًا طيبًا.

انطلق تاكسي وراء الآخر، وعندما لم تبق سيارة أجرة واحدة قلت لها إن جميع السيارات قد انطلقت. قالت:

- بالتأكيد سيأتي تاكسي قريبًا.

ثم حكت لي أن أمام مدخل منزلنا مباشرة - نحن نسكن في شارع "بروكهاوس" عند جبل "ليرشن"- قد وقعت حادثة، لكنها لن تجعلها تحيد عن قرارها بالذهاب بالدراجة إلى صالة التسوق "تيب" في شارع "شتاينفيج". ما زالت تستخدم كلمة "صالة تسوق". كلهم يقولون الآن "سوبر ماركت".

قالت "أندريا" إنها لم تعد تواجه صعوبة في قيادة الدراجة، وإنها تنوي من الآن فصاعدًا التنقل بها دومًا. هذا هو أيضًا أفضل تدريب على الأسبوع القادم، حيث تنوي القيام بنزهة بالدراجة مع "تينو" و"دانيداني" التي اشترت لنفسها، خصيصًا، دراجة مزودة بمقعد للأطفال. هذا ما قرروه بعد ظهر اليوم.

الرقم على شاشة التليفون يتناقص من 2.88 إلى 2.69، ثم إلى 2.50. جاء تاكسي ووقف، ثم انطفأت أنوار كشافاتها. . أضافت "أندريا":

- صالة التسوق تعرض كافة مستلزمات الدارجات. هناك رأيت إعلانا، خمن لأي شيء؟

لم تنتظر ردي، وانفجرت قائلة:

- "برنس دنمارك" سجائري المفضلة.

قلت لها:

- قبل أسبوع لم تكوني تجرؤين على التفكير في ذلك.

- نعم! ولكن إذا كانوا يبنون في كل مكان طرقًا للدراجات، فلمَ لا أجرب؟

نطقت "أندريا" بضعة كلمات فرنسية لم أفهمها. ضحكتُ وقلتُ لها:

- تمني لي حظًا طيبًا للغد، حتى أتخلص من البضاعة.

- لا تقل دائمًا "بضاعة" يا "مارتين". إن عملك مهم جدًّا!

هكذا صاحت في السماعة، ثم أضافت:

- كل تاريخ الفن سيصبح عديم الجدوى إذا بدأت أحجار كل هذه المباني الجميلة تتفتت. كل هذه القذارة في الهواء يا "مارتين"، إنها تفتت كل شيء!

جاء تاكسي آخر، وفي هذه المرة قلت لها ذلك:

- هيا، ضع السماعة بسرعة!

- انتظري!

أجبتها مذعورًا، ثم استدرت إلى الجانب. ما زالت الحقائب هناك في مكانها. قلت لها:

- أحبك.

ثم أضفت بأنني لا أقول ذلك لأنني هنا بمفردي دون سيارة.

ردت:

- جميل.

فكرتُ أولًا أنني سأُنهي المكالمة عند 1.17، لكن المبلغ سرعان ما أصبح 0.98، ثم 0.79، وبعد أن قالت "مع السلامة" تناقص إلى 60 فرنك. صحتُ: "حبيبتي"، لكنها كانت قد وضعت السماعة. علقت سماعتي وسحبت كارت التليفون. ثلاث سيارات تاكسي تقف الآن هناك. سائق السيارة الأولى يتكئ على الباب المفتوح بذراعين مشبوكين. أمامه وقفت امرأة ترتدي "أوفرول" أحمر بأكمام قصيرة. هز رأسه نافيًا عندما أرته المرأة الورقة التي بها العنوان. استدارت ناحيتي، يابانية بعيون واسعة ووجه أبيض وشعر متموج. التفتت مرة أخرى نحو السائق، لكنني سألتها بالإنجليزية:

- ماذا تريدين؟ ? What do you want

أعطتني الورقة مكتوب بها: "إلى مدينة "ماجدبرج".To Magdeburg

بينما كنت أضع حقيبة على قدمي، وأسلم الأخرى للسائق، أعطتني ورقة ثانيـة وبهـا: إلى "فرانكفورت". To Frankfurt

صحتُ ورفعتُ الحقيبة الثانية، ووضعتُها على المقعد الخلفي:

- لا تضعها في شنطة السيارة!

لم أحتفظ إلا بشنطة الملفات، ثم عُدت مع اليابانية - التـي كانـت طويلـة نسـبيا مقارنـةً بالآسيويات - عبر الباب المتأرجح إلى المحطة.

لم يعد هناك قطار إلى "ماجـدبورج"، ولا إلى "فرانكفـورت". فقـط إلى "جـوتنجن"، بعـد عشر دقائق. قلت لها إن المسافة من "جوتنجن" إلى "فرانكفورت" ليست بعيدة. أومـأت برأسـها، لكـن الخوف ظل يطل من عينيها. كما ظلت تقطب جبينها. لم أتذكر كلمة "رصيف" بالإنجليزية. عندما قلت: "من رقم ثلاثة"From number three ، توقفت عن الإيمـاء. لـذلك سرت معهـا إلى النفـق، وأشرت إلى السلم الثاني، وقلت مكررًا: "رقـم ثلاثـة" number three إلا أننـي رأيـت عـلى إحـدى اللافتات رقم "4"، وعلى الأخرى "5"، وفي الرصـيف الآخـر "1" و"2". فرافقتهـا إلى الرصـيف حيـث كانت قاطرة ديزل ووراءها عربتان يدخلان المحطة.

على الرصيف كان جدول السفر معلقًا، ولكن لم تكـن هنـاك قطـارات إلى "جـوتنجن"، ولا إلى "ماجدبورج". سألتني اليابانية:

- ماذا نفعل إذًا؟

ونظرت إليَّ نظرة يائسة وألصقت شنطة يدها بجسدها. عدوت خلف المُحصِّلة التي هبطـت من القطار الواصل لتوه. وضَعَت الملف الأسود الذي كانـت تمسـك بـه عـلى إحـدى الـدكك، ثـم راحت تقلب فيه. في البداية سمعت دقات كعب اليابانية، ثم شعرت براحتها عـلى ذراعـي. عـبر أزرار الأوفرول سددت بصري على جدول السفر المطبوع بخط صغير وموضوع في جيب بلاستيكي بالأوفرول. انهمكـت المحصـلة في تقليـب صـفحاته إلى الأمـام وإلى الخلـف. أخـذت تهـز رأسـها.

ارتفع نهدا اليابانية وانخفضا، كما برزت بطنها واضحة خلف القماش. إذا كان سـائق التـاكسي قد شغَّل العداد، فالغبي هو أنا.

"تسافر معي"، قالت المحصلة، "الساعة 10 و17 دقيقة إلى "أوشرزليبن"، ومن هناك تأخـذ سيارة أجرة بستين ماركًا، وفي الحادية عشرة والنصف تكون في "ماجدبورج".

ترجمتُ لها.

- وإلى "فرانكفورت"؟ And to Frankfurt?

أغمضت المحصلة عينيها لحظات، ثم أغلقت الملف الأسود، ورجعت إلى العربة، ووضعت إحدى قدميها على أول درجة من السلم الحديدي الشبكي.

- والآن؟

كان بنطلونها مشدودًا على فخذها المـدملك. سـألت اليابانيـة هـل تسـافر معهـا؟ مقابـل ستين ماركًا قد تجد هنا أيضًا غرفة في أحـد الفنـادق. تـومئ موافقـة. شـكرتُ المحصـلة التـي تمسك بالمقبض بجانب الباب، ثم ترفع قدمها اليسرى وتصعد بجذع منحن. بدت أردافها أكـبر في بنطلون الزي الرسمي.

مشيتُ وراء اليابانية إلى دَرَج النفق، وسألتها من أين هي؟ أجابتني:

- من كوريا From Korea

- "جوسلار".

نطقت دون وعي عندما مررنا بجدول السفر في ساحة محطة "هالبرشتات":

- جدول القطارات المتجهة إلى "جوسلار". The Timetable of Goslar!

ردت:

- شكرًا جزيًلا لك.Thank you very much

قلتُ محاولًا البدء في حوار معها:

- رائع. Wonderful

سألتها إن كانت تسافر وحدها دائمًا. أومأت أن نعم. أخبرتها أنني مؤرخ فن، وأنني أكتب رسالة الدكتوراة عن التماثيل غير المألوفة لآدم وحواء في كاتدرائية "هالبرشتات". سألتها إذا كانت سمعت يوما عن مدينة "دريسدن". أجابتني:

- بالطبع، "دريسدن"Of course, Dresden.

شفتاها المدهونتان بالأحمر بقيتا مفتوحتين قليلًا. نظرت إليَّ وأومأت، فأمسكت لها ضلفة الباب المتأرجحة.

عندما سألت سائق التاكسي:

- هل تريد أن توصل المدام إلى الفندق، أو تأخذني إلى بنسيون "شنايدر"؟

رفع أنفه إلى أعلى، وجلس خلف عجلة القيادة. يقع البنسيون في الناحية الأخرى من المدينة، خارجها قليلًا، أما الفندق فيبعد بضعة مئات من الأمتار في قلب المدينة. ذهبت مع اليابانية إلى التاكسي التالي. السائق – صغير السن نسبيا، قد لوَّحته الشمس، يرتدي شورتًا - ظل واقفًا شابكًا ذراعيه خلف الباب، مثلما فعل زميله من قبل. لم يقل إلا أن غرف الفنادق شحيحة وسيئة، وبأقل من 100 مارك لن يجد المرء شيئًا جيدًا. ولكن بمائة مارك يصل المرء بعيدًا، مثلا إلى "ماجدبورج". ترجمتُ لها. صاح سائق التاكسي الآخر أن وقته ليس هدية مجانية.

تقول اليابانية:

- إلى "ماجدبورج".To Magdeburg

عندئذ اختفى السائق داخل السيارة، ومن الداخل فتح الباب الآخر. استدارت اليابانية مرة أخرى وقالت:

- شكرًا جزيلًا لك. Thank you very much

ثم ركبت السيارة.

صرخ سائقي:

- إلى "ماجدبورج"!

كان قد قفز خارج سيارته.

- إلى "ماجدبورج"!.

تناثر رذاذ لعابه وكأنه ممثل.

- لا بد أنني أحلم!

ومن جديد بدأ الرذاذ يتساقط تحت ضوء مصباح الطريق.

فتحتُ الباب الخلفي للتاكسي لامسًا كرش السائق، وحشرت نفسي بجانب حقائبي بعد أن وضعت شنطة الملفات على حِجري. انغلق البابان في اللحظة نفسها. رد عليَّ بصوتٍ عالٍ وغاضب وهو ينظر عبر زجاج السيارة الأمامي.

- يومين.

ارتد الصوت إليَّ. شغل السيارة، وقبض على عجلة القيادة المغطاة بجراب من الفرو.

- بقى هو ياخد 100 مارك، وأنا 15!

أردت أن أعتذر، لكنني لم أقو حتى على فتح فمي، إذ فجأة دوَّى صوت الراديو. اهتزت المروحة الصغيرة في مقدمة السيارة. وفي اللحظة التالية لاحظت أننا لا نسلك الطريق إلى بنسيون "شنايدر"، فقد كنت على معرفة جيدة بالشوارع.

زادت سرعة السيارة. الإطارات تصدر ضجيجًا لمرورها فوق الشارع المكسو بالأحجار. فجأة انحرفَ بالسيارة إلى اليمين، فاصطدمت رأسي بالشباك. لم يعد هناك مصابيح تضيء الشوارع. انزلقت في كرسيٍّ أكثر، وانفرجت ساقاي. ضغطتُ بركبتي على ظهر كرسيه. بعد ذلك سلكت السيارة طريقًا صاعدًا، ثم مرة أخرى طريقًا بين الحقول.

خطر على بالي أنه كان عليَّ أن أرسل اليابانية إلى "جوسلار" أو "براونشفايج". كان ذلك سيكون أرخص من الرحلة إلى "ماجدبورج"، ومن هناك كانت ستجد توصيلة أفضل. كان من الممكن أيضًا الاتصال بالبنسيون والسؤال إذا كان لديهم غرفة مناسبة السعر لفتاة يابانية. عمومًا: كنت غبيًّا. ضيَّعت على السائق مكسب يومين، ولم أعترض عند الشرطة، بل حتى لم أحاول وسلمت ببساطة رخصة القيادة. وها أنذا أجرُّ حقائب السفر من مدينة إلى أخرى في طول البلاد وعرضها، وأبيع مياه سحرية، بينما تتمرن زوجتي على قيادة الدراجة حتى تستطيع التسوق، وتستعير من المكتبة العامة كتبًا لتعلُّم الفرنسية عفا عليها الزمن. وبالنقود التي منحها والدها لطفلنا "تينو" ندفع ثمن اشتراكنا الشهري في أوراق اليانصيب. مع أنني على استعداد لخيانة "أندريا" في أي وقت مع يابانية. مَن يعرف ما الذي سأرتكبه خلال الساعات والأيام والسنين القادمة؟

أظن أنني أعرف ماذا ينوي السائق. لكنني لم أرد الدفاع عن نفسي. إنه على حق! إنه على حق ألف مرة إذا ألقى بي وبزجاجاتي في الحفرة التالية. فجأة توقفنا. قرأت في ضوء الكشافات: "بنسيون شنايدر". خرست الموسيقى، وفوق رأسي أضيء مصباح. قال:

- 12.20 ماركًا.

قلت له:

- تفضل 13 ماركًا.

قرَّب من الضوء محفظة النقود المستطيلة التي يستخدمها الجرسونات، حيث توضع الأوراق الماليـة دون أن تُثنى. أمسك باليمنى ورقة المائة التي أعطيتها له. سألته:

- هل مصابيح الشارع لا تعمل؟

الظلام دامس في الخارج. ناولني عدة أوراق نقدية، ثم عددت في كفي سبع قطع نقديـة. قلت له:

- شكرًا.

ودسست كل شيء في جيـب الصـدر. راح يراقبنـي في المـرآة العاكسـة. أشرت إلى الصـورة الملونة المعلقة أمام المروحة:

- هل هذه زوجتك التي ترتدي البكيني؟

كان الإطار الخشبي مصنوعًا بمنشار اليد الصغير.

- اسمع أنت دفعت. تفضَّل الآن وانزل.

أخرجت الشنطتين، وبركبتـي أغلقـت بـاب السـيارة. سرت بـبطء أمـام السـيارة في اتجـاه البناية، ثم انتحيت جانبًا - فبسبب ظلي لم أر الجرس - ووضعت الشنط بحـرص. انزلـق ضـوء الكشافات على باب المنزل، وتوقف على العتبة، ثم استدار منيرًا عمق الشارع. لوهلة سـمعت صوت الراديو مرة أخرى.

تحسست أصابعي الجرس، وتعثرتُ أثناء ذلك في الشنط. انبعثت ضوضاء فظيعـة. إلا أننـي لم أقـع. استقمت واقفًا، بهدوء، لكنني بقيتُ منحنيًا قليلًا إلى الأمام. سمعتُ حفيفًا بجـانبي يتكـرر عـلى فـترات قصيرة منتظمة. ربما فأر، أو طائر. ابتلع الظلام بنسيون "شنايدر". لم أرَ له حـدودًا خارجيـة، ولا حتـى إذا نظر المرء تجاه السماء. كلما تحركـت اصـطَدَمت زجاجـات الأونيـل 290 بعضـها بـبعض. حتـى أسـمع قعقعة الزجاجات مرة أخرى، كان يكفي أن يلامس إصبع قـدمي الأرض، أو أن أرفـع كعبـي قلـيلًا عـن الأرض، كان يكفي أن أنقل مركز ثقلي من قدم إلى أخرى، أو أن أثني ركبة.

(5)

الطير المهاجر



"ليديا" تحكي عن الدكتورة "باربارا هولتشيك" التي تدَّعي أنها دهست حيوان ا. حديث مطول عن الحيوانات. مكان الحادث. نهاية غامضة دون حيوان الجربوع.

اليوم هو الإثنين، في الأصل عطلة أسبوعية. ينبغي عليَّ في العاشرة والنصف أن أقوم بإرشاد فصل مدرسي من الفرقة السابعة في صالات المتحف. تلاميذ المدارس هم أسوأ الزوار. متعبةٌ أنا. تدخل "هني"، رئيستي في العمل، ولا تغلق الباب. تقول:

- الدكتورة "هولتشيك" دهست بسيارتها حيوان الجربوع.

تظهر امرأة قصيرة في مطلع الثلاثينيات، ذات شعر طويل، ترتدي جيبة زرقاء غامقة و"بلوفر" رمادي برقبة. تظل واقفة في إطار الباب ناقرةً عليه بأحد أصابعها.

قالت معرفةً بنفسها دون أن تنظر إليَّ:

- "هولتشيك". دهستُ جربوعًا بسيارتي.

قالت "هني" مشيرة إليَّ:

- "ليديا شوماخر". اختصاصية التحنيط عندنا.

- أهلاً.

أنهضُ. يداها باردتان. أسألها:

- هل أحضرتِه معك؟

الدكتورة "هولتشيك" تهز رأسه نفيًا، ثم تنتشل منديلًا ورقيًّا من علبته، وتـتمخط بعـد أن تستدير جانبًا.

- كلا، ليس معي.

- حيوان كبير؟

تجيب وهي تومئ برأسها:

- نعم.

- فاحت رائحة نفاذة، رائحة حيوان متوحش. حوافره الأمامية كانت هكذا.

ضغطت بظهر يديها على وجنتيها، بينما راحـت أصـابعها تتحـرك، وكأنهـا تـزيح شـيئًا إلى الجانب.

أسألها:

- هل تصفين حيوان الجربوع؟

زاغ بصر "هني" التي كانت تجلس عـلى مكتبـي نصـف جلسـة، وبإصـبع مقـوس راحـت تمسح على رأس عصفور دُخلة البساتين.

قالت الدكتورة "هولتشيك":

- كان يرتجف.

صاحت "هني":

- نحن بحاجة إلى جربوع، أليس كذلك؟

- طبعًا. نحتاج إلى جربوع.

- وأمام مدينة "بورنا" يرقد واحد بالفعل. الدكتورة "هولتشيك" في عجلة من أمرها. ربما تذهبين وتشاهدينه، ثم تأخذينه إذا كان على ما يرام؟

- والجولة مع التلاميذ؟

قالت "هني" موجهة إليَّ مرة أخرى نظرتها المحملة بالمعاني:

- لن تبقى خيارات كثيرة.

ثم استمرت في مداعبة عصفوري المغرد. تتمخط الدكتورة "هولتشيك" ثانية، وتحاول أن تبتسم. ثم تقول:

- عندئذ لن يكون ما حدث كله دون فائدة.

ألقت "هولتشيك" بشعرها خلف أكتافها.

في سيارتها - جولف زرقاء غامقة بثلاثة أبواب - اصطدمت إحدى ركبتي بدُرج السيارة الأمامي. استندت على التابلوه أبحث عن ذراع المقعد، فلمستُ كاحلي. قالت آمرة:

- ادفعي.

على المرآة العاكسة عُلِّق معطِّر السيارة أحمر اللون على شكل ورقة شجر. أدارت مفتاح التشغيل بصعوبة ما.

- "هني" حكت لي عن الجربوع الأخير. كيف يمكن لإنسان أن ينتزع ببساطة فيشة الثلاجة! مَن يفعل شيئًا كهذا؟ لا يمكن أن يكون هناك إنسان بمثل هذا القدر من الغباء!

- ربما احتاجوا البريزة لتشغيل المكنسة.

- وكيف كان منظر الجربوع؟ وكيف أخرجتموه؟

- قمتُ بتوصيل الثلاجة مرة أخرى بالكهرباء، وهوَّيت الغرفة، ثم فتحتها بعد أسبوع. كنت أنتظر أسوأ مما حدث.

- لو حدث هذا لي...

ننعطف إلى الشارع، ونتحدث عن الذين يعملون في شركات التنظيف والحراسة. تبدو سيارتها جديدة، لا أوساخ ولا تراب في أي مكان. أسألها في أي تخصص حصلت على الدكتوراة.

- أنا أعمل في حي "دوزن" بمدينة "لايبتسج". كنت في طريقي إلى هناك – حين ظهر لي.....

لا أفهم ماذا تقصد.

تقول لي:

- المصحة النفسية هناك. أنا في الأصل طبيبة أعصاب. لستِ من هنا؟

أحكي لها أنني انتقلت للعيش في "ألتنبورج" منذ عامين فقط. بعد وفاة دكتور "جورنه"، أصبحت وظيفة "المُحنِط" شاغرة، كنت أريد وظيفة ثابتة، في أي مكان.

- هناك مَن لايستطيع الحياة إلا في المدن، وهناك من يشبه عصافير الأرياف. كما أن هناك مَن يفضِّل المدن الصغيرة.

قلت لها:

- أعتقد أنني من سكَّان المدن.

ثم أضفتُ:

- أو من عصافير الأرياف.

عند إشارة المرور أمام مصنع ورق اللعب أوقفت الدكتورة "هولتشيك" السيارة بفرملة مفاجئة. بعدها طرنا في شارع "لايبتسج".

- هل تعملين في هذا المجال فقط من البداية؟ أنا أيضًا كنت أريد أن أعمل مع الحيوانات.

- وماذا حدث؟

- كانت لوالديَّ سيارة "سكودا". كانت المقاعد مغطاة بفراء لونه بيج، من الألياف الصناعية طبعًا. ذات مرة. كان صندوق الإسعافات الأولية موضوع على الفراء، لذا فعندما أشرقت الشمس ولامست أشعتها الفراء، بدأ بالذوبان. وعندما ركبنا السيارة، بذلت أمي مجهودًا كبيرًا لانتزاع الصندوق الملتصق بالفراء الذائب بالمقعد الخلفي. عندما أريد أن يقشعر بدني، أتذكر ذلك المنظر فحسب، ذلك الشيء المنبعج الذي التصقت به أجزاء من الفراء المهترئ. كنت في الرابعة عشرة، ولم أستطع أن أتمالك أعصابي أو أن أستعيد هدوئي. اعتقدت أمي أنني أمثِّل هذا الفيلم فقط حتى يُسمح لي بالجلوس في الأمام بجانب أبي. قالت لي:

- لا تقولي بعد ذلك أبدًا إنك تريدين أن تعملي في أي شيء له علاقة بالحيوانات.

أثناء التحدث كانت تنظر إليَّ بدلًا من النظر إلى الأمام.

- لا أفهم.

- من يشمئز سريعًا هكذا..... كما أنني أخاف من الكلاب. الطيور أحبها. "كريمزون روزيلا" أو "كوكابورا" أو "الورين". هل تعرفينها؟

- كلها أسترالية.

تومئ برأسها، ثم تسألني:

- هل لديك حيوانات منزلية؟

- لا.

أحكي لها عن أمي التي تتورط دائمًا في استضافة قطط لديها تموت بعد عامين على أكثر تقدير.

- إما بسبب سم فئران، أو فشل كلوي، أو دهس بالسيارات. عندئذ تظل تتصل بي يوميًّا ولمدة أسبوع، وتعدني أنها ستكون قاسية حقًّا هذه المرة، وأنها لن تستضيف قططًا مرة أخرى. وعندما تقول لي ما ذنب القطط التي لم يسألها أحد إذا كانت تريد المجيء إلى هذا العالم، أعرف أن أي كلام أقوله لن يأتي بنتيجة.

واصلت كلامها قائلة:

- عثرَ جارنا مرة على نورس جناحه مكسور، فأحضره إلى الطبيب البيطري. أجرى الدكتور على الفور عملية بتر، دون أن يسأل. ماذا يفعل طائر بجناح واحد؟ حديقة الحيوانات في الجزيرة لا تقبل حيوانات مشوهة. والآن يقفز النورس في حديقة بيته، ويحفر في الطين، ويلتهم كل شيء - كالخنزير. وكل مرة كان يفرد فيها جناحه، وفي الناحية الأخرى لا شيء، كنت أعتقد أنه سيقع. كان يلتهم كل شيء! الأبراص العملاقة لا تلتهم كل شيء فحسب، إنها تهضم أيضًا كل شيء، حتى حوافر الحيوانات. فقط الكلس يبقى، لا شيء إلا الكلس الخالص. شيء يجنن! ليست لديكم أبراص عملاقة؟

- لا.

- على المرء ألا يحبس الحيوانات. فمثلًا تبدأ الدلافين في العض، إذا تعرضت لضغط عصبي. إنها مثل البشر، الحيوانات، أعني لا بد من معاملتها كالبشر.

الحيوانات تُصاب أيضًا بخيبة الأمل. فيما بينها تسلك هي أيضًا سلوكا أنانيًّا ولا مباليًا بالآخرين. هل قرأتِ عن قرود المعبد؟ ماذا يحدث هناك؟ الإناث يلدن مبكرًا لأن الباشا، رأس القطيع، يعض القرود الوليدة حتى الموت إذا لم تكن من صلبه. يريد أن يفرض جيناته. هذا هو كل شيء. أنانية.

- هل يدهشك هذا؟

- على الأقل كتبت مجلة "دير شبيجل" عن ذلك.

ارتعشت يداها على مقبض "الفتيس". كنا ننتظر عند إشارة ضوئية تنظم مرور السيارات في منطقة إصلاحات أمام مدينة "ترين". الرياح تصفر. الضوء كأننا قبل الغروب. عطست الدكتورة "هولتشيك"، وقالت:

- معذرة.

ثم واصلت العطس. علق بعض الرذاذ على الزجاج الأمامي. أو ربما جاء الرذاذ من الخارج، من ضربات الحصى، أو من الحشرات. تتحسس بأصابعها باحثةً عن شنطة يدها على المقعد الخلفي. السيارة تنطلق. تحتاج إلى منديل.

- هذا العصفور الصغير على المائدة في مكتبك، أي عصفور هو؟

أقول لها ناظرةً في ساعتي:

- دُخَّلة البستان.

تفكِّر الآن في التلاميذ وهم يتزاحمون لدخول المتحف.

- "دُخَّلة البستان"؟

كانت دكتورة "هولتشيك" قد أسرعت القيادة جدًّا، والآن تفرمل.

- هل هذا هو العصفور الذي يلتهم أمعاءه أثناء الطيران؟ معجزة غير مرئية. إنـه يفـترس ما يعادل 80% من وزن جسمه، ثم يفقد كل ذلك فيما بعد. "دُخَّلة البستان"، أعتقد أن هـذا هو اسمه.

سيارتنا هي الأولى في طابور طويل يقف خلف شاحنة لنقل الماشية.

- ما أود معرفته، هو ما تعنيه جملة "أنظمة استشعار متداخلة". كيف تهتدي الطيور إلى الشجرة التي وقفت عليها آخر مرة؟ "سنونو السواحل" يقطع أربعة آلاف كيلو مترٍ سنويًّا. أمَّا عصفور "صفَّارة المطر الذهبي" فيحتـاج إلى 48 سـاعة لا غـير مـن ألاسـكا إلى هـاواي، يـومين فقط!

بعد ذلك تحدثت دكتورة "هولتشيك" عـن الاحتبـاس الحـراري، وارتفـاع منسـوب ميـاه البحـر، والتصحر، وعن تناقص علف الحيوانات، وعن عدم انتظام فصول العام.

- فصول الخريف المعتدلة عطَّلت الساعة الداخلية للطيور. إنها تتأخر من 10 أيام إلى 14 يومًا في الطيران إلى الأماكن الشتوية، يعني عنـدما تصـل إلى المشـتى يكـون كـل شيء قـد تـم التهامه. ولكن الأمر يستغرق لدى بعض الطيور...

مدت يدها مرة أخرى ناحية شنطتها، ثم واصلت قائلة:

- عدة أجيال فقط حتى تجد أوكارًا جديدة، وحتى يتم حفظ خريطة الطيران في الجينات الوراثية. بل إن بعضها بدأ يقضي الشتاء في جنوب إنجلترا بدلًا من البرتغال أو إسـبانيا. معظـم طيور "الشحرور" مثلًا لم تعد تعاني إطلاقًا من القلق الذي كان يصيبها قبل الهجرة.

دكتورة "هولتشيك" هي الوحيدة التي يمكنها أن تجتـاز الشـاحنة أمامنـا المكتـوب عليهـا: LONG VEHICLE – الشاحنة الطويلة.

أكملت حديثها قائلة:

- أمَّا السيىء في الأمر فعلًا، فهو أنه عندما تعود البلابل والعنادل إلى أوكارها، فإنها تُفاجأ بأن طيورًا غريبة قد احتلتها. تلك الطيور أكثر عدوانية وقوة من الطير المهاجر الحقيقي.

تتوقف الشاحنة التي تسير أمامنا قبل مدينة "زربيتس". بدأت دكتورة "هولتشيك" تتحدث عن تقاطع طرق الطيور المهاجرة مع الطيور المقيمة. أفتح الشباك. السيارات خلفنا توقف المحرك واحدة بعد الأخرى. ينساب المرور من الاتجاه المعاكس مارًّا بنا. تظهر أشعة الشمس من خلف الغيوم فتبهر العين. عندما تحركنا مرة أخرى رأيت سيارة بضوء أزرق في حارتنا. يشير إلينا رجال الشرطة وهم يمرون بنا.

أقول:

- حادث جديد.

ولكن سيارة إسعاف هي التي مرت بنا. لا نرى سيارات متصادمة.

تواصل دكتورة "هولتشيك":

- مع أن 70% من الطيور المحلية الحاضنة هي من الحيوانات المهددة بالانقراض.

دون أن تعطي إشارة ضوئية أو تقلل من سرعتها تنحرف يسارًا إلى طريق بين الحقول، وتقف. الآن يدور الحديث حول أسراب الفراش التي لا تُرى إلا مرة واحدة كل جيل. أقاطعها وأسألها عن الجربوع. تتمخط الدكتورة "هولتشيك"، وتفك حزام الأمان وتنزع المفتاح، ثم تنزل من السيارة وتبدأ في المشي. أتبعها في اتجاه سيارة الشرطة والكيس البلاستيكي الأزرق مطوي في جيب الجاكتة. أثناء السير، أرتدي القفاز المطاطي. دكتورة "هولتشيك" تميل جانبًا عند كل هبَّة هواء منكسةً رأسها وكأن أحدًا يشدها من شعرها. قطعت الشارع ومرت بين سيارتين عابرتين، ثم أكملت سيرها على الناحية الأخرى. ترددت طويلًا، والآن أحاول على الأقل أن ألحق بها.

أقبل شرطي ناحيتها. فـرد ذراعيـه، كـادا يصـطدمان ببعضـهما. هـذا معنـاه أن الـدكتورة "هولتشيك" حاولت أن تتفاداه. تحدثا في آن واحد.

ببطء تمر بنا عربة نقل عليها حاوية. أجمع الحروف الزرقاء المكتوبة على الخلفية البيضاء PLUS، أقرأ تحتها: "الحياة الهانئة بسعر زهيد". أقف وسـط صَـهد العـادم. شـبكت دكتـورة "هولتشيك" ذراعيها. تطلع الشرطي إلى نهديها. تبادلا الحديث، ثم نظرا فجأة تجاهي.

مرة أخرى مرت مقطورة تحمل حاوية.

وقف الشرطي وحيدًا هناك وهو يعض على شفته السفلى. راقبني وأنا أخلع قفـازي. ثـم تهـادى عائدًا إلى السيارة ذات الأنوار الزرقاء دون أن يستدير مرة أخرى.

سبقتني دكتورة "هولتشيك" مرة أخرى. أحسسـت بـالريح تـدفعني في ظهـري. أمسـكتْ الدكتورة بكوعيها. ناديتها. لم ترد، ثم اختفت خلف أوتوبيس.

عندما عادت كانت تعرُج. ركبتها اليمنى مجروحة. ظلت واقفة أمامي، واضعةً يديها على عينيها وجبهتها، ثم أزاحت خصلات شعرها إلى الوراء.

- يدَّعي أن لا شيء هنا. قلت له أن يسمح لي بالمرور. لكنه قال إنهم بحثوا في كل الحفر والتلال. لـو كان هناك جربوع، لوجدوه. لقد نفق، أتفهمين، ارتجف ثم احتضر.

أسألها عن ركبتها.

- كان قد نفق. لا يسمحون لأحد بالمرور. وإذا وجدوا شيئًا، فسيتصلون بالمتحف. بالتأكيد سيتصلون. إذا لم يفعلوا، لا بد أن نعود إلى هنا في المساء أو في العصر، عندما ينتهـي كـل شيء هنا، عندما يزيلوا... هذه الأشياء.

- أي أشياء؟

- إنهم لا يقولون شيئا، لا يقولون أي شيء.

- اسمحي لي الآن بأن أتولى السواقة.

قلت لها ذلك، ومددت لها ذراعي لكي تمسك بي. سمعنا صوت كلاكس سيارة مرتين. لم نلتفت إلى مصدره.

- هل تراهنين على أنهم سيكونوا قد اتصلوا عندما نصل إلى المتحف؟

ميدالية المفاتيح تبدو وكأنها لافتة مرورية: Koalas next 15 km – "كوالاس" بعد خمسة كيلومترات. أفتح لها الباب المقابل لباب السائق.

- سيتصلون في الدقائق القادمة، أراهن على ذلك مقابل أي شيء، وستتعجب "هني"، وتتساءل ماذا نفعل إذًا؟ ستعتقد أننا ذهبنا إلى مقهى أو مطعم، واستمتعنا بوقتنا بدلًا من البحث عن الجربوع. سترين، ستواجهين صعوبات معها. سأشرح لها الأمر. شيء لا يُعقل، إنهم يصرفون المرء بكل بساطة. إنهم كما هم، لا يتغيرون!

تعطس الدكتورة "هوليتشك"، ثم تمسح بظهر يدها تحت أنفها عدة مرات.

- فقط لأنه عنيد، ستواجهين المصاعب. إنهم يفرحون عندما يستطيعون إثبات شيء على المرء، عندما يتيح المرء لهم فرصة.

أحرك مسند الظهر إلى الوراء، ثم أشغل المحرك. تمسك الدكتورة "هوليتشك" بالذراع تحت مقعدها، وتتخشب في جلستها. ركبتها ما زالت تنزف. تقول:

- الإسورة، شَبَكَت، هل تسمحين؟

لا تحرك ساكنًا. تقبع هناك منحنية إلى الأمام وإحدى يديها تحت المقعد. بأصابعي ألمس راحة يدها. أحس بنبضها. بظهر يدي أصطدم بسمانة قدمها. لا أعرف إطلاقا كيف أصل إلى يدها أو ساعدها حتى أحررها. أتحسس ما شبكَ بإسورتها. تستسلم تمامًا لما أفعله. أدير ذراعها. جواربها يمكن إلقاؤها في القمامة على أي حال. أنحني أكثر، تكاد رأسي تكون على فخذها. من أسفل

أرسل النظر عبر "التابلوه" إلى الزجاج الأمامي. من مكاني لم أعد أر السيارات. لا أرى إلا سقف الشاحنات، وفوقها السماء الملبدة بالغيوم.

فجأة تتحرر يدها. أجلس على مقعدي. تمر بنا سيارة إسعاف تسير ببطء، دون الضوء الأزرق.

أثناء رحلة العودة أحاول قدر جهدي ألا أقترب من الخطوط المرسومة على حافة الطريق، ولا من الخطوط في المنتصف أيضًا. تمسك يداي بعجلة القيادة كما تعلمنا في المدرسة: "اثنين إلا عشرة"، أي يسارًا ويمينًا أعلى قليلًا من المنتصف.

أمام إشارة التقاطع أتوقف لأنها لا ترد عليَّ. لا أعرف إلى أين ينبغي أن أذهب. بتردد تذكر لي أخيرًا اسم شارع ورقم بيت.

أسألها:

- البيت يقع على القناة؟

أستطيع أن أوقف السيارة أمام مدخل البيت. أقول لها وأنا أوقف المحرك:

- وصلنا!

أعبث بيدي باحثة عن ذراع المقعد، ثم أنزلق بالمقعد إلى الأمام، وأعيد تعديل المرآة العاكسة، ثم أنزع المفتاح. أسألها إذا كانت تشعر بغثيان. أرى صبيين في المرآة العاكسة يحملان الحقيبة المدرسية، وأسمع خطواتهما على الأسفلت. يمر الأول على يمين السيارة، والآخر على يسارها. عندما يتحاذيان مرة أخرى يلتفتان إلينا دون أن يقفا. أبقى جالسة لبرهة. ثم أقول لها إنني لا بد أن أنصرف الآن. أنزل من السيارة، أنتظر لحظة، ثم أغلق الباب.

أمام المتحف ملأ الفصل المدرسي السابع الطريق ضجيجًا. يتبادل المدرس الحديث مع "هني" أمام شباك التذاكر. تسأل "هني" وتنظر إليَّ وإليه:

- أتعرفان بعضكما؟

قال معرفًا نفسه:

- "برترام".

نتصافح بسرعة. أرى ورق الشجر الذي التصق بأحذية الأطفال متناثرًا حتى في صالات العرض. أمام فترينه "ملك الفئران" تفاحة مقضومة.

وأنا على السُلَّم أسمع رنين التليفون في غرفتي. عندما يتوقف الرنين، أسحب الفيشة، وأجلس إلى مائدة التحنيط أمام عصفور "الدُخَّل". تدخل "هني" وتظل واقفة وراء ظهري. إنها الوحيدة التي لا تدق على الباب. تنزع الجاكتة من على أكتافي، وتشرع في تدليك رقبتي. تنتظر أن أتوجه إليها بالشكر لأنها تولت عني القيام بالشرح للمجموعة.

تسألني "هني":

- ما زلتِ تشعرين بصداع؟

إبهاماها يتزحلقان لأسفل على العمود الفقري، ثم يتجولان ثانية إلى أعلى ناحية الأكتاف. أثناء ذلك ألمح منبت سبابتها اليمنى الملتهب.

أسالها:

- ألا تقدرين على دفع أجرة مانكير؟

غريب أن امرأة مثل "هني" تتلف أظافرها بانتظام.

تتنهد بعمق لتظهر لي مقدار العذاب الذي أسببه لها، وكم يصعب عليها أن تقرر طردي من العمل، هذا العام، أو العام القادم، أو خلال عامين. إنها ليست فقط الرئيسة، إنها هنا منذ مدة طويلة، ولديها طفل، ابنة.

- أين الجربوع؟

أسمع دقات كعبها على البلاط.

- لم أكن أعلم أنكما تعرفان بعضكما.

- ظننت أنني أصنع لكِ معروفًا. هل تقرب منك؟

تحركت يدها في جيب المعطف. العظام التي تحصي بواسطتها أيام الشهر برزت الآن تحت القماش. صرخات التلاميذ تبتعد وتخفُت.

- هنا يعرف كل واحد الآخر. هذا هو الوضع هنا. كما أن صديقك "باتريك" يتصل بك باستمرار.

تخطو عدة خطوات في اتجاه الباب، ثم تسألني:

- أنت لم تنامي طول عطلة نهاية الأسبوع؟

بادرتها بالسؤال:

- هل تحنين أنت أيضًا في بعض الأحيان إلى أيام زمان؟

قالت بنبرة هادئة نسبيًّا:

- ما معني هذا السؤال الآن؟ لم يكن لك أي علاقة بذلك كله! يا إلهي! ماذا بك يا "ليديا"؟

تصرخ غاضبة عندما هممت بالرد. ثم تضيف:

- لم يعد أحد يطلب منك شيئًا إلا تحنيط بضعة حيوانات. أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تصحبي التلاميذ في جولة عبر صالات المتحف، أو أن ينقطع التيار الكهربائي، أو أن يشد أحدهم فيشة الثلاجة. ليس عليك أن تعتني حتى بطفل، ولا حتى طفل!

تضع "هني" – وظهرها لي – سيجارة بين شفتيها، وتنفخ الدخان في اتجاه السقف.

- ماذا حدث للجربوع؟

أتحسس مفتاح السيارة في جيب جاكتتي.

- لقد نسيته.

أقول لها رافعةً المفتاح المعلق في الميدالية الصفراء، وكأنني بذلك أستطيع إثبات شيء ما.

لا تنظر "هني" ناحيتي، بل ولا تستدير حتى. تخرج من الغرفة وتنزل السلم. عند كل خطوة تخبط بكفها على الدرابزين الخشبي وهي تسب وتلعن. لا أفهم ما تقوله، على الرغم من أنها تركت الباب مفتوحًا. أسحب الجاكتة مرة أخرى فوق أكتافي، وأضع مفتاح السيارة على المائدة بجانب العصفور، ثم أواصل عملي.



(6)

كل هذا في ليلة واحدة



"باتريك" يحكي عن صعوبة العثور على منزل في الظلام. الاحتفال بعيد الميلاد في الأرياف. مطاردة في رحلة العودة، وحفلة في محطة الوقود.

الثلاثاء، السابع من أبريل. "توم" يحتفل بعيد ميلاده الخامس والثلاثين. قبل عامين ورث إرثًا كبيرًا، وبعده مباشرة ورثت "بيلي" – زوجته – إرثًا أكبر. يسكنون الآن في عزبة فسيحة عند "لايزنيج". تهتم "بيلي" بأمور الطفلين التوأم، وتعتني بالحديقة، وتعطي دروسًا في الناي. "توم" ما زال يعمل على تماثيله الخشبية – رؤوس عملاقة بأنوف عملاقة – التي لم يعد بحاجة الآن إلى بيعها. "ليديا" تعرف الاثنين من "برلين" عندما كانت طالبة في كلية التربية. أتقابل مع "توم" و"بيلي" بانتظام عندما أسافر إلى مدينة "لايبتسيج" أو "كمنيتس" من أجل تصوير حفلات افتتاح المعارض الفنية. في كل مرة تقول لي "بيلي": "لا بد أن تأتوا وتتفرجوا على العزبة".

عندما اتصلت قبل الثامنة بقليل لأسأل عـن أقصر طريـق، كانـت "بـيلي" عـلى التليفـون. قالت إنها كانت تنتظر قدومنا قبل ذلك، قبل ذلك بكثير، وإنها لا تنتبه أبدًا إلى الطريق لأنهـا لا تقود سيارة. يبدو من صوتها أنها تحيي ضيوفًا دخلوا أثناء حديثها، أو أنها تعطـي إشـارات تحدد أماكن الجلوس. وفي نهاية حديثها قالت بيلي:

- "توم" الآن في الأتيليه الخاص به. إنه يركِّب طاولة بينج بونج.

صبغت "ليديا" شعرها بلون جديد، وترتدي لأول مرة الأسورة الفضـية التـي أهـديتها لهـا بمناسبة عيد ميلادها. على حجرها تمسك بأطلس الخرائط الخاص بنـادي السـيارات لعـام 90. كان الغلاف الخلفي للأطلس قد انفصل عن الكتاب، لذلك نستخدمه كعلامة بـين الصـفحات. ليديا وأنا نتحدث عمَّا سوف نفعله لو ورثنا مليونًا مثلًا. لا يخطر على بالنـا شيء سـوى رحلـة حول العالم، وحتى هذه الفكرة ليست جيدة، لأننا بعدها سنكون قد فقدنا وظيفتنـا. أي أننـا نحتاج إلى نقود أكثر بكثير.

تسألني "ليديا" إذا كنت أعرف شخصًا، مثلنا، لا يرث. "أعتقد هذا"، لكن سـؤالها يجعلنـي أتردد. ثم يتضح بعد وقت أن حماي وحـماتي يملكـان شـاليه عـلى البحـر، أو أن هنـاك عقـارًا للجدة مساحته 5 هكتار، وبالصدفة بـين "بـرلين" ومدينـة "بوتسـدام". "ليـديا" تعـرف امـرأة تعيش وحدها، نزل على دماغها – كما يقولون – مليونان من الفرنكـات تعويضًـا عـن قطعـة أرض كانت تزرع فيها البطاطس، قبل أن يستولى عليها لإكمال أحد مـداخل الطريـق السريـع عند بلدة "شمولن". لا نستطيع كلانا أن نفهم لماذا لا يشعر بالسعادة أولئـك الـذين يربحـون الملايين من أوراق اليانصيب. تقول "ليديا":

- ربما كانوا من أصحاب الملايين قبلها أيضًا.

أمد لها كفي، فتمسك به وتضغط عليه لبرهة. في بلدة "روخليتس" آخذ المخرج الخطأ، وبعد عدة كيلو مترات يتوجب عليَّ اللف. أتردد مرة أخرى عند التقاطع. "ليديا" ترى أن علينا أن نتبع اللافتة المكتوب عليها: "كل الاتجاهات الأخرى". أشعر أننا نعود إلى حيث أتينا بعد أن قطعنا نصف دائرة كبيرة.

قالت "ليديا" إنها تشعر بالحرج لأننا سنصل متأخرين. كان قد مضى علينا ساعة في الطريق منذ أن انطلقنا. تريد أن نلف عائدين لأننا لم ننتبه إلى لافتة. انطلاقي بأقصى سرعة لم يعد يفيد الآن شيئًا. أتنهد قائلا عندما نصل إلى التفريعة:

- أخيرًا!

علينا الآن التوجه يمينًا. "ليديا" تغلق الأطلس، وتمشِّط شعرها. أبطئ من سرعتي، وأضيء كشاف النور البعيد. بعد فترة طويلة نصل إلى القرية التالية. "يمينًا بعد التفريعة!"، هذا هو كل ما أعرفه. بعد عشر دقائق نعود إلى التفريعة، بجانب اللافتات تمامًا. أستدير، أقول لها وأنا أشعل الضوء وأطفئه:

- لا بد أنه هناك.. هناك بالضبط!

تزفر "ليديا":

- ماذا تفعل؟ أطفئ الكشافات. أعتقد بالفعل أنني لمحت ضوءًا على الجانب. لكن العزبة لا بد أن تكون على الجهة اليسرى. مع ذلك نواصل البحث عن الطريق.

نسير إلى الأمام على طريق ملئ بالحفر العميقة، والأعشاب تنمو على جانبيه.

تسألني:

- "بيلي" و"توم" لديهما سيارة جيب؟

أومئ بنعم.

- لا غنى عنها في مثل هذه الطرق.

لا يمر وقت طويل حتى نتعرف على ظل بيت صغير مضاء بعدة مصابيح متناثرة، محطة محولات كهربائية أو ما شابه، محاطة بسياج من الأسلاك. يستطيع المرء قراءة اللافتة: "خطر الموت". تتعجب "ليديا":

- في وسط الحقول!!

أفرمل فجأة، لا أستطيع السير للوراء بسبب ماسورة العادم. "ليديا" تصمت. لا بد أن تهبط لتشير لي حتى أستطيع الخروج من الحقول، ولكن من العبث أن تفعل ذلك بمثل هذا الحذاء الذي ترتديه. بما يشبه المعجزة أتمكن من الدوران. لبرهة تستولي عليَّ مشاعر الفرح وكأننا وصلنا.

تقول:

- ربما تقف وتدق جرس أحد البيوت، وتسأل عن الطريق؟

- أين؟ كما أن الفلاحين يغطُّون الآن في نوم عميق!

أسير الآن في التفريعة الأخرى. تقول "ليديا":

- لكن هذا الطريق غلط.

أتفادى قطة ميتة ممددة على الطريق. بعدها بقليل أرى غرابًا ملتصقًا بالأسفلت. في الحارة اليسرى. فقط جناح يقف عموديًّا ويرفرف في الريح.

أسألها:

- هل عاودك الصداع؟

- كنت أعتقد أنك سألت عن الطريق؟

- عند التفريعة يمين. سأدق الجرس. عندما أرى ضوءًا سأنزل وأدق الجرس.

- لقد رسم "توم" لنا رسمًا تخطيطيًّا... اسمع كلامي وارجع!

أخذت تقلب في محتويات الدرج الأمامي. نمر ثانية على الغراب والقطة. في غمرة البحث والتقليب تتوقف "ليديا" فجأة، وتتكئ إلى الوراء. لأول مرة أنتبه إلى وجود المصباح الصغير في الدرج الأمامي. بسبب ضلفة الدرج المفتوحة تمزق جوربها في عيد الميلاد. أقول لها إنه لم يعد ينفع أي شيء، وإننا بحاجة إلى تليفون. أسألها هل تتذكر أين رأت تليفونًا لآخر مرة؟ لم تند عن "ليديا" أي حركة، ولا حتى هزة رأس.

بعد بضعة كيلو مترات نتوقف أمام إشارة المرور في منطقة إصلاحات في الطريق. أمامنا سيارة فورد بيضاء. أوقف المحرك وأقرأ الملصق عليها: "أنت قريب من سيارتي - ولكن ربنا أقرب".

أقول:

- كلام فارغ! ما هذه السخافة؟!

قالت "ليديا" بعد برهة:

- دائمًا ما نخطئ. كل ما نفعله خطأ.

تنظر إلى الأمام. ظهر إحدى يديها على حافة المقعد، وكفها نصف مغلق. يمكن للمرء أن يضع شيئًا داخله.

تصرخ "ليديا":

- أخضر، أخضر!

ثم تغلق الضلفة بخبطة عنيفة.

الفناء مكتظ بسيارات لا أعرفها، من بينها سيارتان عليهما لوحات مدينة "فيسبادن". "بيلي" و"ليديا" يتعانقان طويلًا، وتميلان يمينًا ويسارًا. أمسك

الهدايا: للتوأم علبتان صغيرتان بهما مكعبات ليجو. ظلت العلبتان عدة أيام في مـدخل بيتنـا، في الجزء المخصص لتعليق الملابس. أمَّا هدية "توم" فهي كتاب مصوَّر: "تماثيل عصر النهضـة - الفنان دوناتيلو وعالمه".

تقول "بيلي" إن "توم" تشاجر معها. ثم تتعانق هي و"ليديا" مرة أخرى. تتنهد "بيلي":

- آه، يا "ليديا".

أمام الباب تحكي أن "إنريكو" هنا أيضًا، "إنريكو فريدريش"، من المسرح.

- لقد حضر بالأتوبيس، ثم سار لمسافة طويلة، والآن ينام في سريري، متكورًا كالجنين.

أقول لها إنه يستطيع العودة معنا في السيارة.

- لن نتحدث الآن عن العودة!

تقول "بيلي" ثم تمسك معصم "ليديا"، وتجذبها معها إلى المطبخ.

تجلس النساء بمفردهن، ليست بينهن واحـدة نعرفهـا. نـدور حـول المائـدة ونصـافح كـلًّا منهن. بعدها نجد طبقين في انتظارنا عليهما سلطة بطاطس وقرص لحم مفروم ساخن، وخيار مخلل. تكرر "بيلي" أكثر من مرة دعوتها لنا بأن نأكل في هدوء. النساء الأخريـات يتكـئن عـلى مقاعدهن ويتفرجن علينا.

عندئذ ظهر الرجال. نقف ونهنئ "توم" الـذي يرتـدي ثيـاب النجَّـارين. يقـول إنـه اتصـل تلفونيًّا ولكن لم يرد عليه أحد. ثم يضيف أن علينا الآن - هو وأنـا - أن نلعـب مبـاراة. بعـض الأزواج ينصرفون.

من الأتيليه نسمع هدير السيارات وهي تنطلق. لا بد أن أتعود أولًا على لوح الطاولة الألومينيوم، ولهذا أخسر كـل كـرة تقريبًـا. يسـأل "تـوم" إذا كنـت أنـوي الزواج قريبًا من "ليديا"؟ وماذا نفكـر بالنسـبة للإنجـاب؟ ومتـى سـأقيم معرضًـا

لأعمالي؟ بين الحين والآخر يمتدح كرة أرسلتها. يقول إنه على استعداد لدفع نقود للاعب على مستواه. أسأله عن "إنريكو".

"توم" يضحك ضحكة صفراء:

- إنه يقول لكل من يقابله إنه مريض بسرطان المعدة، وإنه سيسافر خلال أسبوعين إلى البرازيل ليعمل في مجال المعونات الإنمائية – بما معناه: هذه آخر مرة نرى فيها بعضنا. لا تصدق حرفًا مما يقول! وعلى فكرة، هو لم يكن مدعوًّا على الإطلاق.

"بيلي" تصعد الدرج، وتقول لـ"توم" إن عليه أن يودِّع شخصًا ما. أنتظر لبرهة في الأتيليه بين الرؤوس الخشبية. ثم أعود إلى المطبخ. ليديا تتحدث بصوتٍ عالٍ وبانفعال مع الضيوف القادمين من مدينة "فيسبادن".

سيبيتون هنا. "إنريكو" ما زال نائمًا. أمَّا الآخرون فقد انصرفوا. تقول "بيلي" إننا لا بد أن نبقى حتى نعطي الهدايا للتوأم بأنفسنا. تبدو "ليديا" أنيقة للغاية، وكأنها طيف أو خيال في هذا المطبخ.

أحد الضيوف القادم من "فيسبادن" يعمل تاجر نبيذ بالجملة. يومئ باتجاه السيدتين اللتين تملأ لهما "بيلي" الكأس من جديد، ويقول إنهما شقيقتان. منذ فترة طويلة وهو معجب بأعمال "توم". في البداية لم يستسغ التماثيل الملونة، أمَّا الآن فإنه لا يستطيع أن يتخيلها على أي نحو آخر. بعد ذلك نتحدث كلنا عن تطور "توم" الفني. تقول "بيلي" إن اللون يكتسب أهمية متزايدة في أعماله. تمر فترة صمت. يكرر تاجر النبيذ ملاحظته السابقة، ثم يضيف أن هذا هو ما قاله من قبل. نهز رأسنا. تسأل "ليديا" ألا يصح أن نوقظ "إنريكو"؟ يزفر "توم" وهو يملأ طبقه عن آخره بسلطة البطاطس:

- لستُ جليسة أطفال.

نجلس جميعًا إلى المائدة. انطلقت "ليديا" تتحدث بحماس عن الماضي، عمَّا أصبحت تسميه "حياتها البرلينية". وأخذ "توم" يحكي بين المضغ والبلع ما حدث عند افتتاح أحد المعارض الفنية. في البداية انقطع التيار الكهربائي، وبعد ذلك كان صدى الكلام يتردد من السقف. تنفجر "بيلي" و"ليديا" في الضحك. ويشرح "توم" أن السقف كان به جهاز تنصت لم يعمل على الوجه الصحيح، بل كان يعمل بالعكس، كمقوٍّ للصوت. الآن يضحك الأصدقاء من "فيسبادن" أيضًا.

تجلس "بيلي" بجانبي وتسأل، وفمها على أذني، إذا كانت "داني" - نحن نعمل في الصحيفة نفسها - قد أخذت ابن أختها مؤقتًا أو دائمًا، ثم تضيف:

- أم الصبي، أخت "داني"، لقت مصرعها في حادث موتوسيكل، أليس كذلك؟

أرد قائلًا:

- لم أكن أعرف أنك تعرفين "داني".

تتذكر "بيلي" حالات أخرى هرب فيها السائق بعد الحادث، وتتحدث عن الصدمة التي تسببها حادثة كهذه، وأن من المفروض أن يحصل السائق على حكم مخفف. أعترض على ذلك، لأنه عندئذ سيتحجج كل حيوان بهذه الحجة. تقول "بيلي":

- عندك حق، ولكن في بعض الحالات لا بد من مراعاة أثر الصدمة.

- عن أي شيء تتحدثان؟

يدعو "ليديا" ويدعوني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع كاملة، في مايو أو يونيو، أو عندما تقيم "بيلي" حفلًا موسيقيًّا لتلاميذها. تقول "بيلي":

- تعرفان الطريق الآن.

ما زالت هديتنا مغلفة بورق الهدايا على الكرسي المنخفض.

عند الوداع تعانقني أنا أيضًا. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى تجلس "ليديا" في السيارة. نلوح لهما من السيارة ونبتسم، مع أن لا أحد يرانا. تقول "ليديا":

- الواحدة والنصف.

تفتح شنطتها وتتناول الكروت واحدًا بعد الآخر.

- نحن مدعوون للسفر إلى بحر الشمال، وإلى مدينة "تسيتاو"، وإلى مدينة "فيسبادن".

تفرد ساقيها وتضع قدمًا فوق الأخرى. أقترح عليها أن ترجع مسند الظهر إلى الوراء لتنام. تسألني:

- هل تحدثت أكثر من اللازم؟

- أبدًا، على الإطلاق.

عندما توقفتُ عند إشارة منطقة إصلاح الطريق، كانت "ليديا" قد استغرقت في النوم. الحارة المستقيمة المسفلتة حديثًا والمضاءة إضاءة كاشفة تقودنا عبر البلدة الميتة. أواصل السير عند الضوء الأحمر. فجأة تظهر سيارة خلفنا. بعد منطقة التصليحات أبطئ من سرعتي. يتبعون سيارتنا. ما زالوا يعطون إشارات ضوئية. أفحص ضوء الكشافات والفرامل اليدوية والحرارة والبنزين والضوء الوامض. لو كانت مصابيح الإشارات الخلفية عندي عطلانة، لكان "توم" قد نبهنا.

أدير المرآة العاكسة إلى أعلى، وأعطى إشارة إلى اليمين. لا يريدون أن يتجاوزونا. إكصدام سيارتهم يكاد يتلامس مع سيارتنا.

مع البيت الأخير تنتهي مصابيح إنارة الطريق، على كلا الجانبين حقول مفتوحة، وفوقها الهلال. أدوس على البنزين، أستخدم الكشافات، وأظل في

منتصف الطريق، خطوط الطريق بين العجلات. بسرعة مائة وعشرين نطير في اتجاه إحدى الغابات. لا يتوقفون عن مطاردتنا، هؤلاء الرومانيون أو الروس أو البولنديون، أو الجن الأزرق..... ربما تتمدد شجرة بعرض الطريق. أسأل نفسي لماذا لم نأخذ "إنريكو" معنا؟

لا بد أن أحافظ على هدوئي، وألا أسمح بأن تكون تصرفاتي مجرد ردود أفعال. خزان البنزين ممتلئ حتى ربعه. هذا يجعل السيارة خفيفة. نحن في بلد مزدحم السكان، ولسنا في سيبيريا. ترتعش ركبتاي، لكنني لا أشعر بأي شيء في القدمين. عندما استقام الطريق من جديد، مِلتُ جانبًا، وحاولت أن أضغط على قفل باب "ليديا"، إلا أنني عجزت عن الوصول إليه. أتحسس القفل في بابي.

إذا اصطدموا بنا، فستطير سيارتنا من على الشارع. ليس لدينا فرامل آلية، ولا وسائد هوائية، ولا حتى في ناحيتي. حزام الأمان مربوط. أفكر في الواقي الجانبي من الصدمات - ربما يكون لدينا.

حقول من جديد، لا منازل. منطقة تصليحات يضيق فيها الطريق. في المرآة الخارجية أرى كشافاتهم تنطفئ.

عند مزلقان السكة الحديد قبل "جايتهاين" تومض إشارة التحذير، الحواجز المعدنية قد هبطت. أمد يدي فوق "ليديا" وأضغط على القفل في بابها. الكشافات وراءنا تومض مرة أخرى. أقول لـ"ليديا" التي تفتح عينيها:

- "جايتهاين".

- ياه، يدك باردة كالثلج.

- وراءنا مجانين.

- مَن؟

تتساءل وتستدير.

يقتربون منا لدرجة لم يعد معها الضوء قويًّا. أتعرف على ملامح وجه طفولي مسطح.

أقول:

- مجنون.

يجلس منحنيًا إلى الأمام، وكأنه سائق بلدوزر، ذقنه على عجلة القيادة. يشرئب بعنقه. جبهته تصطدم بالزجاج الأمامي. نشعر برجةٍ. تنزل "ليديا" حاجب الضوء أمامها.

- ماذا يريد؟

- إنه.. الإكصدام..

أبتلع ريقي وأقول:

- اصطدم بالإكصدام.

- ماذا يريد.....؟

القطار يمر. القضبان تمتص ثقل العربات المحملة بالحبوب. أفرد ساقي تمامًا، وتتزحلق قدمي على دواسة الفرامل إلى أن تثبت في المنتصف.

الهزة التالية تجعل السيارة تتأرجح. أتشبث بعجلة القيادة. لا يخترق الصمت إلا القطار. أركز انتباهي على المسافة الفاصلة بين غطاء الموتور والحافة السفلية من الحاجز. السكة الحديد ليس بها أثر للمطر. قطار لا ينتهي.

عندئذ انتظر حتى ترتفع الحواجز إلى أعلى، وحتى تتوقف الإشارات التحذيرية عن الوميض. أقول وأنا أخبط بكفي على عجلة القيادة:

- السيارة لا تسحب كما ينبغي.

تمد "ليديا" بعنقها إلى أعلى قليلًا، واضعة رأسها على المسند. مرة أخرى أجعل خطوط الطريق بين عجلات السيارة. حتى بعد المنحنيات يظل ملتصقًا بنا.

أقول:

- لن يتبعنا إلى الأبد.

فجأة تقول "ليديا":

- طبق فضائي.

لا تنم نبرات صوتها عن أي انفعال. يبرق ضوء خلف أحد التلال، في وسط الحقول.

أقول:

- أنحن في ميامي؟

ينعطف الشارع في اتجاه الضوء الذي يـزرق، أزرق سـاطع. محطـة وقـود. أعطـي إشـارة ضوئية. تصرخ:

- أبطئ! أبطئ!

يمرق المجنون بيننا كالسهم. أفرمل في منتصف المحطة. تقول "ليديا":

- إنهم يحتفلون هنا.

أنزل من السيارة، وأفتح غطاء تانك البنزين. مجموعة من النسـاء والرجـال يرفعـون مـن داخل المبنـى كؤوسـهم ناحيتنـا. يتكـؤون عـلى مائـدتين مسـتديرتين متلاصـقتين أمـام رفـوف الثلاجة. رجل ذو شعر كالقنفذ يمسـك بـذراع جارتـه ويـومئ لنـا بـأن نـدخل. يشـير إليَّ وإلى "ليديا" التي تهبط وتقف جانبي. يصرخون جميعا عندما دخلنا:

- مفاجأة، مفاجأة.

تصيح امرأة حمراء الشعر منادية على رجل يُدعى "أوفه":

- "أو-فه، أو-فه".

فيجيبها الجميع بصوت واحد:

- مفاجأة، مفاجأة.

كلهم أكبر منا عمرًا.

يفتح صاحب محطة الوقود كرتونة بيرة "بكس" بها ست زجاجات. يمسك بكل يد ثلاثًا، ويضعهم على المائدة. يصرخون ثانية:

- "أو-فه، أو-فه".

يرحبون واحدًا وراء الآخر بـ"ليديا". يقول صاحب المحطة عندما دفعت له ثمن الوقود:

- ينتظرون مجيء التاكسي. ليس من المعقول أن أدعهم ينتظرون في الخارج. هل تريد شيئًا آخر؟

أشتري زجاجتي مياه غازية بطعم الزنجبيل، لـ"ليديا" ولي. ما زالت يداي باردتين. لذلك لا أريد أن أصافح أحدًا. تقول "ليديا" إن أمامنا ستة محاسبين يريدون جميعًا أن يصبحوا مستشارين في مصلحة الضرائب. يومئون بجدية. عندئذ يهتف الرجل الواقف جانبي:

- مفاجأة، مفاجأة.

شَرِق من الضحك. تناقلت الأيدي زجاجة ويسكي "جيم بيم" كبيرة.

يهمس أحدهم بشيء في أذن المرأة الواقفة جواري، فتصيح:

- لأ!

ثم تتفحصني، وتكرر:

- لأ!

بعدها يعانقها أحدهم. "ليديا" تتناول الزجاجة وتشرب. يضرب شخص على ظهري بكفه:

- وبعدين، يا زميل.. هل ترى هنا تاكسي؟

لا أعرف ماذا يقصد. يبدؤون في الصياح والزئير. "ليديا" تمسح على فمها. صاحب البنزينة يلصق تيكت الأسعار الصغير الحجم على علب اللبن الزبادي في السوبر ماركت الملحق بالبنزينة. برشفة واحدة أفرغ زجاجة الزنجبيل الثانية أيضًا، ولكنني أظل ممسكًا بالزجاجة.

- أو-فه، أو-فه، عايزين تاني!

تشير "ليديا" إلى البقرة المنفوخة المعلقة فوق الخزينة، بقرة على شكل طوق سباحة. تصيح:

- هذه لي.

يعلو صوت التصفيق، لأنها آخر قطعة في المحل، ولذلك لا بد من فكها من على السقف. كما تطلب كارتًا لتشغيل ماكينة غسيل السيارات آليا. يقول صاحب محطة الوقود:

- لن تعمل الماكينة قبل السادسة.

تصر "ليديا" على طلبها. تقول:

- الجو لطيف هنا.

ثم تضيف:

- وأنا متأكدة أننا سنعود مرة أخرى.

تبدأ في التسوق. تفعل ذلك كالسيدات الراقيات: تعلق ذراع السلة البلاستيكية الزرقاء فوق المرفق. تدرس المكتوب على كل علبة. تأخذ كيسين حليب، وكرتونة بها ست بيضات من بيض الفلاحين، وجبنة موتساريلا، وشرائح خبز خشن. وعليهم تضع بطاريات "فيرتا ألكالاين" الطويلة العمر. تقول لي:

- عندهم كل شيء إلا فواكه الإفطار "الموزلي المجففة".

بينما كنت أضع طوق النجاة - البقرة على المقعد الخلفي، أخذت "ليديا" تودع الآخرين. كل اثنين يركبان معًا. "ليديا" تجمع كروتا شخصية مرة أخرى، أيضًا من النساء.

عندما لوحوا لي، اكتفيت برفع إصبع من على عجلة القيادة. أعرف منذ أن دخلت أنهم يعتبرونني منغلقًا لا يقبل الهزار والمرح. أتخيل "ليديا" تسافر معهم. يأتي صاحب المحطة ويقول:

- لقد نسيت زوجتك هذا.

يعطيني كارت الغسيل المستطيل الأحمر، ومناشف في عبوتها البلاستيكية. يرفع يده ويلوح للتاكسي. ترفع "ليديا" زجاجة "الجيم بيم" فوق رأسها كأنها كأس بطولة. تقول "ليديا" التي لم تغلق بابها جيدا، وكأنها على وشك النزول مرة أخرى:

- أنت لم تهتم بأمري على الإطلاق عندما احتك بنا.

يداها تحيطان الآن بالزجاجة على حجرها.

- على الأقل كان ينبغي أن تعطيني يدك، أو تقول لي لا تخافي وأنك ستحميني، أو شيء من هذا القبيل.

أقول لها في النهاية:

- لم أكن أريد أن أكبِّر الموضوع. إنه مجرد صبي غبي.

- أنت لا تفهم. كل واحد كان جالسًا وحده، أنت هناك، أنا هنا. شيء فظيع!

- غير صحيح.

- طبعًا صحيح.

تفتح غطاء زجاجة "الجيم بيم".

- لكنك لا تريد أن ترى الأمور على حقيقتها، كالعادة تصوِّر الأشياء كما تريدها أنت.

تحيط بإحدى يديها عنق الزجاجة وتشرب.

أشعر بغثيان. أرغب أن تتوقف "ليديا" عن الشراب، وأن تربط الحزام، وتغلق بابها جيدًا.

أنزل من السيارة وأذهب إلى حيث المكنسة الكهربائية. أتبول وراءها. الهواء البارد ينعشني. يتصاعد البخار من بولي. أظل برهة واقفًا وسروالي مفتوحًا. ثم أركل الوعاء الموضوع فوقه جهاز قياس ضغط الهواء. يتأرجح يمينًا ويسارًا ويصدر صريرًا.

يدفع صاحب المحطة رفًّا بعجلات أمام الباب، عليه ولاعات وحيوانات من القماش وقطع شكولاتة.

"ليديا" تتزوَّق. الرائحة في السيارة أليفة ومحبوبة بالنسبة لي، وكأنها تصحبني منذ سنوات طويلة. مع أننا لم نشترِ السيارة "الفييستا" إلا في الخريف الماضي.

- واحدة مثلي ليست لديها حتى مفك للدفاع عن نفسها.

تمسك "ليديا" بيدها اليمنى قلم أحمر الشفاه، وفي اليسرى غطاءه، ثم تضيف:

- ولكن المعجزة أن الإنسان لا يتعرض بصورة مستمرة لهجمات الآخرين.

بابها الآن مقفول. أشغِّل المحرك وأتقدم ناحية الشارع. أعدل من وضع المرآة العاكسة.

تسألني "ليديا":

- إذا اشتريت بوليصة تأمين على الحياة، هل أكتب اسمك؟

فجأة تميل ناحيتي وتحيطني بذراعيها، وتهم بتقبيل أذني اليمنى، بينما تداعب أذني اليسرى. تتجـول شفتاها على عنقي. أشعر بكارت الغسيل في جيب الصدر، حيث يضـغط كوعهـا، وبغطـاء القلـم الـذي أمسكته بيدها التي ضغطت بها على كتفي الأيسر.

أحيط "ليديا" بذراعي. أرى بين قدميها "الجيم بيم"، وفي المرآة العاكسة البقـرة المنفوخـة. انحسر ثوب "ليديا" عن فخذيها. أرسـل بصري إلى المـرآة الخارجيـة، وعنـدما أتأكـد مـن خلـو الشارع، أنطلق.



(7)

إجازة صيفية



"ريناتا" و"إرنست مويرر" يعيدان الحياة إلى بيت ريفي مهجور. اللوح المكسور. "مويرر" يعود بمفرده متنزهًا سيراً على الأقدام. في الليل يُسمع غناء.

- لا أحد يجرؤ على الادعاء بأن الحظ لم يكن حليفنا! ولكن بيتًا كهذا يتطلب عملًا هائلًا.

مسح "مويرر" على شفتيه بمنديله، ثم وضع طبقه على اللوح الخشبي، ووضع اللوح على الصينية، ومشى خلف زوجته التي كانت تحمل زجاجات شراب الشعير الفارغة والكؤوس.

- كما أنه لم يقل لك شيئًا عن اللوح الزجاجي!

اجتازته قائلة:

- هلا توقفت عن هذه الشكوى الدائمة؟ كيف له أن يعرف ذلك؟

ظل "مويرر" واقفًا. من المطبخ سمع الطقطقة التي تعلن توقف موتور الثلاجة عن العمل. على الفور اهتزت الزجاجات.

- هذه هدية، يتقبلها المرء شاكرًا دون نقد.

ألقت "ريناتا" بهذه الكلمات في جوف الصمت.

- هه، قال هدية قال!

أخذ "مويرر" نفسًا عميقًا، لكنه لم يضف شيئًا.

- لقد عرضه عليكَ أنت، وليس عليَّ. طبعًا لا بد من إجراء بعض التصليحات. أتعتقد لو كان المنزل بحالة أخرى، كان..... أنت تعرف "نويجباور"!

رفعت الصينية عاليًا، وكأنها تريد أن تناولها له.

- على كل حال أنت الرجل!

قالت ذلك وانصرفت.

في المطبخ أخذ "مويرر" يرص الكؤوس والزجاجات على حافة حوض المطبخ. نفّض منشفة الأطباق، ثم أمسك بسكين الخبز وراح يطعن الهواء، قائلًا:

- فليأتِ الرومانيون.....*

- الأوغاد!

ردت عليه. بفرشاة خشبية طويلة راحت تحك أسنان الشوكة من الناحيتين.

سحب "مويرر" الدرج ووضع السكين بجانب صندوق أدوات المائدة.

---

* إشارة إلى اللاجئين من رومانيا في تلك الفترة. (م)

- على الأقل لم يفعلوا لهم شيئًا.

قال ذلك متناولًا منها كأسًا.

- ما هذه الأفكار؟! أود أن أراك عندما يقومون بـ.. ماذا سيكون رأيك عندئذ؟

نزعت السدادة ونظفت الحوض. ملأت المقلاة حتى منتصفها بالماء، ووضعتها فوق الموقد ثم ذهبت إلى غرفة النوم.

صاح "مويرر":

- الصحف تبالغ دائمًا. لا بد أن ننصرف.

علَّق المنشفة على حامل المناشف، ثم أنزل كمي قميصه. ترك شبَّاك المطبخ مفتوحًا. منذ يومين وهما يتحملان هذا التيار الهوائي، ومع ذلك ما زالت راحة الفطر المتعفن تفوح في المنزل مختلطة برائحة الخشب غير المطلي الذي أزالا من فوقه طبقات الغبار بقطعة قماش مبللة. عندما أتت حاملة شنطة السفر لاحظ أنها أغلقت أزرار بلوزتها بأصابع مبلولة. قال مرة أخرى:

- لا بد أن ننصرف..

لأول مرة يسيران في هذا الاتجاه. حاول "مويرر" أن يتخيل كيف سيبدو كل شيء عندما يألفه: الطريق المبلط، والسياج الخشبي أمام الحدائق الصغيرة الضيقة، ومياه البئر المتدفقة من الماسورة الحديدية وتحتها الشبكة التي تغطيها الطحالب، ومداخل المدينة المبنية على شكل أقواس. من فتحة تحت بوابة فناء ظهر أنف كلب يختلط سواده بالأبيض. كان أنفه مائلًا إلى الجانب، ثم انطلق ينبح. ربما يتعرف أيضًا على شخص، ويحييه. حمل "مويرر" الحقيبة وبداخلها الستائر التي تريد زوجته غسلها. يوم الجمعة على أقصى تقدير، سيعود إلى هنا لاستقبالها عندما تجئ بالأتوبيس. وفي المساء سيمسك بالسلم ويناول "ريناته" ستارة بعد أخرى لتعلقها. سيقول لها إنه لو كان

هناك جهاز تنصت واحد في البيت، فلن يسمع المرء منه شيئًا لمدة خمسة أيام وخمس ليال، عدا الشخير.

وجنتاها شاحبتان، وتحت إبزيم الصندل كان كعبها ملتهبًا متوردًا. حاول في السرير أن يحشر قدميه بين قدميها، عندئذ لاحظ أنها قد نعَّمت من جديد بشرة كعبيها. ولأن المرتبة كانت أطول من غطاء السرير فقد غطيا المرتبة المصنوعة من المطاط الإسفنجي بمناشف عند الأقدام.

بعد ذلك بفترة استيقظ من نومه. أراد أن يغلق النافذة، إلا أنه لاحظ عندما جلس أن الأصوات لا تصدر من الخارج، بل من زوجته.

منذ أن نقرت على زجاج الأتوبيس وقالت:

- الثاني على اليمين.

وهو يشعر بالقرف من بيت "نويجباور". بهت لون الطلاء الأبيض بفعل الأمطار، وتحته ظهر لون رمادي غامق، يتحول إلى اللون الأسود ناحية الأسفل بسبب الرطوبة. قال "موירر" لاعنًا:

- مثل بيوت الروس.

وبين بوابة الحديقة وباب المنزل كان عليهما اجتياز طريق من حطام السيراميك. ثم في النهاية اللوح الزجاجي المهشم. وجد الحجر تحت المائدة، فأمسكه بمنديل، ووضعه على الكومودينو بين صورة زفاف "نويجباور" والبارومتر (مقياس الضغط الجوي)، ثم طبَّق المنديل مرة أخرى. لم يفعل شيئًا آخر. سار وراء زوجته فحسب، متطلعًا من وراء كتفيها إلى الحمَّام والمرحاض والمطبخ، ثم أخذ يراقبها وهي تدفع بقوة الباب الخلفي الذي استعصى على الفتح. كانت المضخة في الحديقة غير المهذبة تعمل. بين شجرتين من أشجار الفاكهة تأرجحت الملاءة المعلقة للتمدد عليها (hammock). بدا السقف في حالة جيدة لا ينفذ منه الماء – لم يجدا مفتاحًا لغرفتي السقيفة.

بجانب المنزل مباشرة أخذ "مويرر" يحفر حفرة. لم يُـذكِّر زوجتـه بالغـداء. كانـت قـد ركعـت عـلى ركبتيهـا في انهـماك كامـل، وراحـت تدنـدن بافتتاحيـة "بابـاجينو باباجينـا" مـن أوبـرا "النـاي السـحري لـ"موتسارت"، وعندما تصل إلى المقطع الذي يبدأ بـ"المـرح الـدائم....." كـان صـوتها يصـدح بالغنـاء. بـلا خجل كانت تلمس كل شيء. نظَّفت حوض المرحاض، وكابينة الـدوش، وأزالـت بيـدها العاريـة خيـوط العنكبوت من الأركان، ومزقت كيس مخدة قديم ثم ثبتته بالدبابيس أمام لـوح النافـذة المكسـور. كـان على "مويرر" أن يتغلب على اشمئزازه كل مرة عندما يمسك بمقبض الباب، كـما كـان ينفـر مـن اللاصـق الطبي من صندوق الإسعافات الأولية الذي لصقته زوجته في العصر على الفقاعة التي ظهرت في كفه. لم يقبل أن يشرب القهوة من أحد الفناجين إلا بعد أن أبدت استعدادها أن تغسل الصحون الغريبـة مـرة أخرى، بل لقد لعق الملعقة بعد أن انتهى من التقليب.

الآن يسيران على حافة الطريق الزراعي، بين خط نهاية الطريق للسيارات والأخدود الـذي يحد الطريق. في العشب الطويل المدهوس على الطريق، تناثرت العلب الصفيح والزجاجـات، وكأنها نمت بين الأعشاب. كثيرًا ما تمنى "مويرر" لو يقوم بجمع كل هذه القمامة. لـو يشـاركه الآخرون في ذلك.. "مبادرة جيدة التنظيم في كل أنحاء البلاد لتنظيف حافة الطـرق ومـا حـول قضبان السكك الحديدية". سيكون هذا عملًا جميلًا بالنسبة له.

أمام محطة الأتوبيس وقف رجل يماثلـه في العمـر أمـام جـدول المواعيـد. حيَّـاه "مـويرر" بإيماءة وعندما لم يرد قال له:

- مساء الخير.

ثم أشاح بوجهه.

ما زال الجو حارًّا جدًّا. التيَّار الهوائي الذي أحدثه مرور سـيارة بهـما لم يلطـف الحـرارة إلا قليلًا. في كل مرة كانت تضع يديها عـلى فخـذيها حتـى لا تطـير الجيبـة. حـرك الهـواء كـذلك بنطلونه الصيفي الواسع.

قال "مويرر" بصوت خافت دون أن ينظر إلى زوجته، مشيرًا إلى العلامات المرورية البيضاء متآكلة الحواف:

- ما يطلقون عليه هنا محطة، ينم عن وقاحة كبيرة.

قبل عام كان يشرح لها ماركات السيارات. في حالة شرائه واحدة كان يريد سيارة ألمانية، أو على الأقل سيارة تُصنع في ألمانيا. خطر على باله "سيات" و"سكودا". ولكن حتى لو لم نحسب هاتين السيارتين، فقد كان لدى الألمان ست ماركات مختلفة. الإيطاليون لديهم أربع ماركات، بما فيها "فراري"، والفرنسيون ثلاث فقط، على الرغم من "رينو". "السيارة المستوردة رقم 1 في ألمانيا!" كان يكتبون في كل مكان. ليكن، نحن لدينا "الجولف"، رقم 1 في أوربا. لدى اليابانيين خمس ماركات. والأمريكيون؟ لا يعلم أحد عدد الماركات لديهم. كما أن هذه "السفن" التي يصنعونها لا تصلح لشوارعنا.

عندما وصل الأتوبيس حاول "مويرر" أن يقبِّل امرأته على شفتيها. قالت:

- اتصل بي، غدًا. ليس قبل الثامنة، أتسمع؟

ناولها "مويرر" الشنطة، ولأنها كانت تدفع الأجرة فقد ظل الشنطة من أسفل.

- ولا تنسَ إحضار أحدٍ ليركب لوح الزجاج.

قالت ذلك، ثم حملت الشنطة بكلتا يديها أمام ركبتيها، وسارت إلى الخلف في الممر الضيق. خروج وانتظر حتى بدأ الأتوبيس بالتحرك، ثم سار معه وأخذ يلوِّح لها. جلست في اللحظة التي انطلق فيها الأتوبيس. مسك أنفاسه. ثم تذكر ماركة "سوبراو" و"إيسوزو"، وهو ما أفسد مزاجه على نحو ما.

عندما أخذ "مويرر" نفسًا عميقًا، شم رائحة العادم. عبر الشارع. على الناحية الأخرى رأى طريقًا على جانبيه عمارات سابقة التجهيز. قرأ على اللافتة

المعوجة: "عـمارات جديـدة". في الخلـف، مبنـى ذو طـابقين. بـدا الـدور الأرضي غـير مـأهول بالسكان.

عندما رأى مجموعة العمارات السكينة على الجانب الأيسر ذات السقف الجمالوني العـالي – التي تشبه منزل "نويجيباور" - أراد أن يعبرها سريعًا. من داخل قفص راح كلب "برناردينر" ينبح نباحًا عميقًا أجش. لم يستطع "مويرر" أن يتذكر متـى سـار وحـده لآخـر مـرة في مكـان غريـب. سقطت أشعة الشمس على ظهره، وتحت قميصه شعر أنـه يشـم دفئًـا عتيقًـا راكـدًا. أعجبـه أن يمشي دون أن يعرف أين ومتى يتوجب عليه الدوران والعـودة. لم يرغـب أيضًـا في مقابلـة أحـد، ناهيك عن أن يسأله أحد: من هو؟ وماذا يفعل هنا؟ حتى لو اعتقدوا في القرية أنه أحـد أقربـاء "نويجيباور" أو أحد أصدقائه. هذا الـ"نويجيباور" يتجرأ ويعطي الآن نصائحه الضرائبيـة في ركـن الاستشارات بصحيفة "الشعب". لكنهم قد لا يعرفون شيئًا هنا عن ذلك. ربما كان بالنسبة لأهـل القرية مجرد شخص يقود سيارة "فارتبورج"، يتحدث باللكنـة الساكسـونية ويعمـل في الحديقـة حتى الإنهاك، والآن – لأي سبب كان – اختفى وأهمل منزله.

راح "مويرر" يفكر: هل يتوجب عليه الآن خلع القميص؟ إلا أنه كره أن يسير نصف عـار. على حافتي الطريق تكاثرت نباتات "بنات النار" العالية.

بعد عشر دقائق وصل "مويرر" إلى مخزن مبني بالطوب. كانت ماسورة تصريـف المطـر بهـا وكذلك مواسير المجاري مصنوعة بعشوائية من البلاستيك، وفي أكثر من مكان كانت الوصـلة بـين الأجزاء قد تفككت. أمام البوابة نمت أعشاب بكثافة شيطانية وغطت جهازًا صدئًا لم يسـتطع أن يعرف لأي شيء يُستخدم.

امتدت حقول الحبوب المتماوجة بفعل الرياح تصل حتى ربوة لم يظهـر وراءهـا الطريـق المؤدي إلى العمارات سابقة التجهيز إلا كشريط داكن. من هناك أقبلت ناحيته سيارة.

من بعيد تناهي إلى سمعه أزيز طائرة. يستطيعان – لو أرادا – أن يأخذا إجازة مثل بقية الناس، ويستطيعان شراء سيارة جولف بالتقسيط، دون أن يصلا إلى حد الإفلاس. ما زال معه - بعد استبدال العملة القديمة - 12 ألف مارك ألماني. لا يستطيع التوقف عن التفكير أنه منذ ثلاثة أشهر قبلها كانوا "يخدعونه" في الجريدة، على حد تعبير زوجته.

تنحَّى "مويرر" جانبًا حتى تمر السيارة دون أن تنحرف عن الطريق. تباطأت "الفيستا" البيضاء، ثم حيَّاه السائق الذي كان يصغره عمرًا ومع ذلك كان الصلع قد بدأ يزحف على رأسه.

يدفعان الإيجار من معونة البطالة التي يتلقاها، ويدخران المبلغ الضئيل المتبقي. راتبها كسكرتيرة في مكتب "نويجيباور" للمحاسبة والاستشارات الضرائبية كان يكفي المصاريف الأخرى. اشتريا مؤخرًا جهاز تليفزيون ستريو بالألوان، وجهاز سي دي، وعصَّارة، ومجففًا للشعر. في فبراير عام 1990، سافرا بالأتوبيس إلى "فنيسيا" و"فلورنسا". توقفا قبل "أسيزي" بقليل. ينويان قضاء أسبوع في "بورجنلاند" في النمسا في الخريف.

كان الطريق يمر بمنخفض ملئ بالأشجار، ثم يأخذ في الارتفاع تدريجيًّا. هنا الجو ألطف. انحنى "مويرر" ولاحظ كيف يسير جعران كبير أسود ولامع. قد يستطيع المرء هنا أن يتعلم شيئًا عن الطبيعة.

- جعران.

قالها لنفسه. كان يعرف أنواعًا أخرى من الخنافس؛ الخنفساء المنسوبة إلى مايو، أو مريم أو البطاطس. ولكن ربما لم يكن هذا جعران.

بالطبع لم يكن "مويرر" الوحيد الذي يعرف الكثير عن "نويجيباور". إلا أنهم جميعًا لم يفتحوا فمهم حتى الآن، ولا حتى الصحف. عندما عرض عليهما الكوخ الصيفي، أدرك "مويرر" على الفور أن "نويجيباور" ما زال يشعر بالخوف. أو أنه

بحاجة إلى بوَّاب دون أجرة. أو أن "مويرر" أرسل "نويجيباور" ليجس النبض، ويعرف إذا كان الناس هنا قد سمعوا شيئًا عن مركزه السابق.

اقترب منه جرَّار صغير يجر مقطورة كانت تتأرجح وهي تهبط وتعلو وفوقها أربعة أو خمسة رجال. انتحى "مويرر" جانبا مرة أخرى، ومشى على الشريط الضيق. كانوا في وضع أفضل منه سمح لهم برؤيته، بينما هو فبالكاد رآهم. في المرة الأولى، حيَّاهم عندما كانوا على بعد عشرة أمتار. وعندما مروا به أومأ إليهم برأسه مرة أخرى. جاء الجرَّار من ناحية العمائر السابقة التجهيز. تصاعد الغبار في إثرهم. هتف أحد الرجال بشيء ناحية "مويرر"، شيء عن الماسورة أو النافورة، وفي سحابة الغبار والقذارة لمح الرجل في المقطورة واقفًا منتصب القامة ورافعًا ذراعيه، بينما سنده الآخرون في وقفته. حبس "مويرر" أنفاسه مرة أخرى.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، وصل إلى تقاطع طرق. يمينًا كان الطريق بين الحقول يقود إلى الغابات والذي بدا أنه ينتهي بما يشبه المغارة. اتجه "مويرر" يسارًا.

ازدادت سخونة الهواء الآن. راح يفكر في إجازته المفضلة، الإجازة التي حصل عليها كجائزة. كانت رحلة إلى آسيا الوسطى في سبتمبر 1986. هناك مشيا في الظلام في حواري "بُخارى" عندما قالت زوجته:

- كأننا في فرن.

كان الفلاحون قد انتهوا من حصاد الحقول على الجانبين. بين بقايا الأعشاب رأى شيئًا فضيًّا مستديرًا، قطره يتراوح بين الثلاثين والأربعين سنتيمترًا. اتجه "مويرر" ناحيته. كان يعتقد أنه محرك، محرك كهربائي صغير، أو ربما لغم، أو طبق فضائي بالغ الضآلة. قبل أن يصل بخطوات استدار وأخذ يجمع بعض الحصى.

من الطريق أخذ يقذف الحصى تجاه القرص المعدني الذي يبرق بلون فضي منطفئ، وفي منتصفه علامة "أوبل". عندما أصابه، نجم عنه صوت مكتوم قصير

"بم"، وكأنه صوت قرع كأسي شمبانيا ممتلئين إلى الحافة. رمى "مويرر" قطع الحصى الأخرى واستكمل تجواله. لو لم يرَ علامة الـ"أوبل" لاقترب أكثر حتى يتعرف على القرص المعدني. لم يكن يعتقد في الأطباق الطائرة، على الرغم من أن الأمريكيين في قناة "برو 7" التليفزيونية كانوا مقنعين في زعمهم بوجودها. إنه لا يستبعد وجود الأطباق الطائرة على الإطلاق. ولكن فلنقل إنه لن يصدق إلا إذا رآها في برنامج "أحداث 24" الإخباري. بلا وعي كان قد بلغ أعلى نقطة في الطريق. هذا شيء يحدث ببساطة. قد يكون ذلك احتياجًا طبيعيًّا، أي في جينات الإنسان، أن يطمح دومًا للوصول إلى القمم. وهو أمر قد يكون ذا فائدة في الصراع الـ"دارويني" بين الأنواع.

مد "مويرر" بصره يسارًا ليرى السهل كله. في الأفق انتصب مفاعلان نوويان. تحته، على المنحدر، رأى قرية بها برج كنيسة حجري. حاول "مويرر" أن يقدر المسافة إلى هناك، ثم إلى المفاعلين النوويين. كان قد تخيل منزل "نويجيباور" على نحو آخر، بل وكل المنطقة المتاخمة لجبال الـ"هارتس". تخيلها ألطف ومعتنى بها أكثر. لبرهة رأى الصورة المتخيلة أمام عينيه بوضوح تام، وكأن بإمكانه العودة من تمشيته إلى هناك. أصاخ بسمعه رافعًا ذقنه إلى أعلى. ولكنه لم يسمع سوى شدو طيور القنابر.

في البيت، في الشقة الواقعة بالدور الأرضي في شمال مدينة "ألتنبورج"، هاجمه الصداع في غضون دقائق قليلة. العجوز "شميت" – الذي كان مُطاردًا أيام النازية – كان يكنس الرصيف يوميًّا. وكان يكنس كل بلاطة ثلاث مرات، أربع مرات. ويا للفظاعة عندما يخبط المقشة بالحائط. وفوق ذلك كله صوت نحنحاته تلك. بمجرد أن يسمع صوته على السُلَّم، كان "مويرر" ينسحب إلى غرفة نومه، أو يذهب للتسوق. كان "مويررط يحب أن يكون عمليًا ويربط بين الأمرين، حتى لو جلس دون أن يفعل شيئًا. مَن لديه وقت، يمكنه أن يثرثر مع العجوز "شميت" عن أي شيء. في الظهيرة يأتي الأطفال الذين يظلون يلعبون بالكرة ويضربونها بجدار المنزل حتى المساء. ذات مرة أصابوا شباك قبو

"مويرر". منذ ذلك الحين يعتقد أن كـل خبطـة سـيليها صـوت تهشـم الزجـاج. طبعًـا كانـت حساسيته مبالغ فيها، إلا أن معرفته بذلك لا تغير من الأمر شيئًا.

عندما يأخـذ القمامـة مـن الشـقة إلى الخـارج يتوقـع أن ينفـتح شـبَّاك ويصرخـون باسـمه، وينهالون عليه بالشتائم حتى يلوذ بالفرار. الأسبوع الماضي ألقت زوجته نظرة فاحصـة في دولاب الملابس وأخرجت بعض الأشياء القديمة وطلبت منه أن يحضرها إلى جمعية "التضامن الشـعبي". أخطأ "مويرر" في رقم المنزل، وراح يقـرأ محتـارًا الأسـماء المكتوبـة عـلى منـزل آخـر إلى أن سـأل صوت نسائي فوق رأسه عمَّا يفعله هناك. عندما تكاثرت الرؤوس، كان كل ما فعلـه هـو العـودة إلى منزله دون تحقيق أي شيء، وبالكيس البلاستيكي الممتلـئ. الخمـيس المـاضي أراد التسـوق في السوبر ماركت، ثم قابل في مدخل المنزل أحد العـمال. تنـاول "مـويرر" الصـحيفة مـن صـندوق البريد - وكـأن عليـه أن يـبرر شرعيـة وجـوده هنـا – وحشرهـا تحـت إبطـه، ونسـيها. لم يلحـظ وجودها إلا عند خزانة الدفع عندما شعر بالدفء الرطب تحت إبطه. وضع الصحيفة إلى جانب المشتريات على السير النقال ودفع. كان "مويرر" قد واصل سيره على الطريق المـؤدي إلى القريـة خلف التلال والذي انتهى بمنزل خشبي. وراءه ارتفعت أعمدة خرسـانية. لم يعـرف مـا إذا كـانوا يبنون هنا أم يهدمون؟ إلى أن رأى لافتة مكتوب عليها: "ممنوع رمي الأنقاض".

في طريق العودة كان على "مويرر" أن يسرع الخطى. مشي على حافـة حقـل مـن حقـول الحبوب وشمس المساء ترسل أشعتها في وجهه. أخذ يفكـر في الحفـر التـي قـرأ عنهـا في أحـد المناجم التي توقفوا عن العمل فيها، وفي أن الحياة من الممكن أن تعود كما كانت قبل ملايين السنين، فقط إذا تركوا كل شيء على حاله، إذا لم يتدخل الإنسـان. ربمـا يفعـل "مـويرر" الشيء الصحيح، فهو لا يفعل شيئًا تقريبًا. ارتجف، ثم راح يحملق في السنابل.

كان شيءٌ ما يتحرك بجواره. لا بد أنها أجسـام كبـيرة – ربمـا خنـازير بريـة. بعد أقل من خمسة أمتار قفزت غزالة عاليًا، ومثلها فعل أيل صـغير، ثـم مـرة

أخرى الغزالة. بعد ذلك قفزا مرة ثانية وكأنهما لوحة نيشان متحركة، ثم اختفيا، ولم يصدرا صوتًا إلا أثناء سيرهما عبر محاصيل الغلة. كانت الدنيا قد أوشكت على الإظلام عندما قطع "شارع العمَّال" على البحيرة في طريقه إلى الشارع المؤدي إلى القرية. أمام الكنيسة، وبين شجرتي زيزفون، رأى حجرًا تذكاريًّا لضحايا الحرب العالمية الأولى. حول الحجر كانت الأرض الطينية نظيفة من الأعشاب، ومحروثة على نحو زجزاجي. السور الخشبي المحيط بالحجر – بدت ألواحه الخشبية فاتحة اللون وجديدة – كان به باب صغير لا بد من شد مزلاجه جانبًا إذا أراد المرء أن يخطو على الطريق المفروش بالحصى.

قرر "موير" أن يأتي لرؤية الشاهد الحجري في الغد حتى يحصي الأسماء، ويحتفظ في ذاكرته بعدد منها. من المؤكد أن كثيرين منهم كانوا - عندما ذهبوا إلى الحرب - يغادرون هذه المنطقة لأول مرة في حياتهم. ربما يكون السفر شيئًا غير طبيعي، على الأقل زائدًا عن الحاجة في عصر التليفزيون.

منزل "نويجيباور" هو الوحيد الذي لم يكن عليه طبق فضائي. على لافتة الأسماء عند مدخل البيت كان هناك شريط لاصق. قرأ خط زوجته: "ر. نويجيباور/ا. موير". قفل الباب، ونادى عليها.

في غرفة النوم رأى أكياس المخدة تتدلى على حافة الشباك. ما زال دبوسان مغروزين في الخشب. بدا الثقب في اللوح الزجاجي شبيهًا بجذع إنسان، على رأسه كاب مرفوع. قال "موير":

- يا امرأة.

هكذا صاح سائق المقطورة. أخيرًا فهمه.

- يا امرأة.

سمع الآن الرجل يصرخ بصوت واضح تمامًا.

لم يشعل "مويرر" الضوء، وسار إلى الحديقة عبر الباب الخلفي. وضع رأسه تحت مضخة الماء، ثم جفف نفسه بمنديله. شمَّر بنطلونه وأخذ يحرك قدميه بالتناوب تحت تيار الماء. جر ساقيه إلى الخلف محاولًا أن يمر بجوار الباب – الذي كان يستعصي على الفتح أو الإغلاق - دون أن يلمسه. خلع ملابسه كلها ما عدا الكلسون، وظل برهة واقفًا أمام السرير، ثم أخذ يتحسس بيديه باحثًا عن جاكتة البيجاما. قربها من أنفه، وذكرته رائحة مسحوق الغسيل والمكواة بالبيت. في المطبخ أخذ يتأمل طويلًا المقلاة التي كانت فوق الموقد ممتلئة حتى منتصفها بالماء. رش بعضًا من سائل التنظيف، ثم سحب سكينة الخبز من درج أدوات المائدة.

تحت الغطاء، سحب الكلسون ودسه تحت الوسادة. نفذت إلى أنفه رائحة الصندل الذي تشرب العرق من الداخل أثناء السير. مد ذراعه بأقصى ما يستطيع وسحب الصندل من الإبزيم، فردة وراء الأخرى، قاذفًا به تحت السرير. ثمة ذبابة أو شيء أكبر يصطدم باستمرار بالحائط والسقف. هناك أصوات أخرى: السيارات في الشارع، النافورة، الثلاجة، وقطرات الماء من الحنفية. أصغى بتركيز مجهد حتى أنه كتم الهواء، ثم أخذ أنفاسًا سريعة وهو يلهث.

لا يعرف "مويرر" كم من الوقت مر عليه نائمًا. جلس مقرفصًا في السرير. وصلت جاكيتة البيجاما إلى كعبه. اتكأ بظهره على رأس السرير الحديدي، وراح يحملق في خياله ذي الكاسكيت على الحائط، وتحته خيال أكياس المخدة التي بدت وكأنها تتدلى على الحائط. مرة أخرى سمع صوت تهشم الزجاج الذي أيقظه من نومه. لم يبرح الصوت أذنه، هذا الأزيز الذي راح يتضخم ويتضخم مبتلعًا كل الأصوات الأخرى: الحفيف والهسيس والنقر والصلصلة والخشخشة والصرير. طاف الصوت في الهواء كأنه طائر أو سحابة إلى أن اصطدم بالشباك. لم يكن هناك مفر. دون أن يحول بصره عن اللوح الزجاجي لمس بأرنبة أنفه ركبته. عندئذ فقط لاحظ "مويرر" أن زوجته كانت تغني طوال الوقت افتتاحية "باباجينو باباجينا" لـ"موتسارت".

(8)

الأنفاس على عنقي



الدكتورة "باربارا هوليتشيك" تحكي عن مكالمة هاتفية ليلية. "هني" تقدم اعترافًا أثناء اللعب، وتستفسر عن الحياة مع رجل مشهور. الابنة والقطة والسلحفاة.

- نعم، بالطبع ليس إلى الأبد.

أقول وأنا أحشر السماعة بين الأذن والكتف، وأمسك بالتليفون بيد وأحاول باليد الأخـرى فك الاشتباك بين أجزاء السلك اللولبي.

تسألني "هني":

- هل أيقظتك؟

- كم الساعة الآن؟

تهتف "هني":

- يا خبر أبيض! لقد أيقظتك. أنا متأسفة يا "بابس". ولكنني كنت أعتقد أنكم تسهرون دائمًا، وإلا ما كنت أيقظتك!

جلد الكرسي المعدني ذي العجلات بارد. أحاول الوصول لقميص "فرانك". لمدة دقيقة توجب عليَّ إبعاد السماعة عن أذني. واصلت "هني" الكلام:

- قرأتُها، وسألوني... عن أنسب أوقات العمل بالنسبة إليه، فقال ليلًا، من أجل الهدوء، في الخارج والداخل. أنا تقريبًا لم أتعرف عليه عندما رأيت الصورة.

أثناء مواصلتها الحديث أُلقي قميص "فرانك" على أكتافي.

- وكيف هي الحياة مع رجل مشهور؟

أزفر بضيق:

- "هني"! كم الساعة؟

- الثانية عشرة تقريبًا.

قالتها ثم تحدثت مع شخص آخر.

- "بابس"؟

- نعم.

ثم أسألها:

- في أي جحر تختبئين الآن؟

- نحن نحتفل بعيد ميلاد.

يختلط حديث الناس الواقفين خلفها، ثم يقهقه رجل.

أسألها:

- هل حدث شيء؟

- لا. لماذا تسألين؟ كل شيء على ما يرام يا "بابس". نحن نلعب لعبة، ومن قواعدها أن يقدم المرء اعترافًا. إنهم يقفون جميعًا حولي حتى أعترف. أتسمعين؟ إنها لعبة. سأعترف الآن!

- أي لعبة هذه؟

ترد بسرعة:

- إذا خسر المرء فعليه أن يتصل بشخص كان يحبه في وقت ما دون أن يعترف له بذلك أبدًا. مجرد لعبة. هل أنت غاضبة؟

- هل تريدين التحدث مع "فرانك"؟

- معك أنت يا "بابس"، معك أنت بالطبع. هل أنت غاضبة؟

- هل كنتِ تحبينني؟

- نعم، يمكنني أن أقول ذلك. هل تسمعين التصفيق؟ إنه لنا يا "بابس". عندما قرأت التقرير عنك وعن "فرانك"، في جريدة يوم السبت، اجتاحني الشوق. أحضرت دفاتر مذكراتي القديمة، وشعرت بالرغبة في التحدث معك مرة أخرى. والآن لقد خسرت. هل تجدين الأمر سخيفًا؟

- لا.

- الرجال يسخرون من النساء اللاتي يعترفن لهم بشيء كهذا. لا يستطيعون التعامل مع مثل هذا الموقف. أنا كنت دائمًا معجبة بك. كنت أشعر بالسعادة عندما تعاملينني بلطف. ولكنك تعاملين الجميع بلطف. كنت أريد أن تكوني صديقتي، أنا وحدي.

أنتظر حتى تواصل التحدث، ثم أقول لها إنني أساسًا إنسانة خجولة.

تقول "هني":

- لا أصدق ذلك. أنت تقللين من قدر نفسك، لهـذا تتحـدثين هكـذا. إنـك تملكـين أفضـل الرجال. هذا يثبت لك أنك إنسانة فريدة من نوعها.

- كيف حال عائلتك؟

- تعنين ابنتي؟

- نعم، "ريبيكا".

- تقصدين "سارة". ليس عندي غيرها إلا "بيجي" و"فريدولين".

يبدو أن "هني" تدخن.

- "فريدولين" ليست للأسف سوى سلحفاة. عندما يتقـدم بي العمـر مثلهـا، يعنـي عنـدما أتقاعد – هذا إذا وصلت على الإطلاق إلى سن التقاعد – فـإن "فريـدولين" سـتكون مـا زالـت على قيد الحياة، وسيتحتم عليّ أن أجد شخصًا يتولى أمرها. شيء يجنن، أليس كذلك؟

- نعم. أمر لا يمكن تصوره.

- رجل مخلص بحق..... الانتقال إلى الشـقة الجديـدة أربـك "بيجـي" تمامًـا. إنهـا في غايـة الاضطراب.

- "بيجي"؟

- قطتنا. ينبغي عليّ أن أفتح عيادة لعلاج الحيوانات نفسيًّا. إن الحيوانـات العزيـزة مثلنـا تمامًا. في غاية الاضطراب.

- أتابع مقالاتك.

- مقـالات! إنهـا سـطور منشـورة في صـحيفة الإعلانـات المجانيـة، ركـن الاستشـارات والنصائح. لم أعد أستطيع أن أفعل شيئًا آخـر. أشـخاص مثـل "فرانـك" – نـوّاب شـعبنا - يريـدون دائمًـا أن نكتـب طلبـات ونقـدمها. لم أعـد أكتـب إلا طلبـات أشـكو فيهـا مـن

البنَّائين. غير ذلك أتودد إلى رجال البنوك وألقي محاضرات في نادي "الروتاري" لأنهم وعدونا بجهاز لعرض الشرائح الفيلمية. هل ما زلت تعملين؟

- ولم لا؟

- يعني، إذا فازت جماعة "فرانك" في الانتخابات فستصبحين، على الأقل، زوجة معالي الوزير. لقد انتخبت مرة حزب "الخضر"، لكنني لا أستطيع أن أنتخب ضد مصلحتنا.. إذا فعلت ذلك فسنحصل للمتاحف على نقود أقل.. هل تعلمين أننا تعارفنا منذ 18 سنة؟

- منذ الفصل الدراسي التاسع.

- عند سماع رقم كهذا أشعر بالغثيان.

- أي رقم؟

- أترين؟ كنت أعرف أنك لا تشعرين بذلك. لقد استفدت من الوقت. أمَّا أنا فأشعر بالاختناق، بالرعب الحقيقي. مع الخامسة والثلاثين يكون ثلثا العمر قد فات.

- "هني"! النصف على أكثر تقدير.

تقول بحدة:

- لا. ليس بالنسبة لنا. الأمر مختلف بالنسبة للرجال. لم أعد أعيش في الوهم. أنت متزوجة يا "بابس".....

"هني" تسحب نفسا من سيجارتها.

تُضاء أنوار الممر.

- أمَّا أسوأ شيء فهو أن كل ما كان قد ذهب وانقضى، ذهب الناس.....

يظل "فرانك" واقفًا في إطار الباب، ثم يتكئ عليه مادًا رأسه إلى الأمام وكأنه يريد التنصت. أهمس إليه:

- "هني".

تنقلب ملامح وجهه. لديه عند الخصر كدمة زرقاء تميل إلى اللون الأخضر.

تكمل "هني":

-..... وأعرف أيضًا لماذا - لأنني لا أتحمل الحياة وحدي. يعني، أستطيع أن أكون بمفردي، لكنني أفكر عندئذ أن الإنسان مكانه بين البشر، وأنه لا بد أن يقع في غرام أحد. المتزوجون لم يعودوا يسمحون لي بأن أقترب منهم. إنهم خائفون مني.

- أتعتقدين ذلك؟

فجأة يركع "فرانك" بين قدميَّ.

- أعتقد ماذا؟

- ما تقولينه.

يسحب "فرانك" القميص جانبا ويُقبِّل ثديي.

- طبعًا. ماذا يمكن أن أعتقد؟ إنني أرى ذلك. الأذكياء يهربون من هنا. من يبقَ، يلعب مثل هذه الألعاب. اليوم هو عيد ميلادي يا "بابس"، عيد ميلادي!

أجدني مجبرة على رفع السماعة لأن "فرانك" يلتصق بي. جسده دافئ للغاية.

"هني" تواصل حديثها:

-..... قبل الأمس، يوم الأحد، كنت ما أزال نائمة. وفجأة سمعت ضجيجًا جهنميًّا في المنزل. رنين أجراس، واصطفاق أبواب، وهرج ومرج. أعي نصف وعي بكل هذا. ثم يرن جرس شقتي. عندما وصلت إلى الباب كان الهدوء التام يسود المكان. أقول لنفسي إذا كانوا يريدون شيئًا فسيدقون الجرس ثانية، أليس كذلك؟

"فرانك" يعضني في كتفي.

- إذا أرادوا شيئًا فسيرجعون. أعود إلى السرير، الساعة الخامسة والنصف، ما زالت الدنيا غارقة في الظلام. ثم أسمع صوت النساء مرة أخرى. ما أكاد أرقد على السرير حتى أسمعهن ثانية. أتعرفين ماذا يفعلن؟ إنهن يتواعدن على الإفطار. أقف خلف باب الشقة وأسمع كل حرف. يتواعدن على الإفطار لأنهن لا يستطعن النوم الآن. ولا أنا أيضًا. إذا استيقظت، لا أغفو ثانية، هذه عادة ورثتها عن أمي. لكنني لا أستطيع أن أفتح الباب الآن. الآن، لا. ثم أفكر..... آه، دعينا من هذا الموضوع. ماسورة مياه انكسرت في تلك الليلة. صباح الأمس جلست أمامي في الأتوبيس امرأة نحيفة كالعصا، راحت تلتهم قطعة من الكعك وراء أخرى. كانت تُبعد الورق المحاط بالكعك بأظافرها ثم تحشر القطعة في فمها، ثم تتفتت. كان الكيس الذي يحوي الكعك ينزلق دائمًا فوق ركبتها. راحت تلتهم وتلتهم، وبين القطعة والأخرى كان الكيس ينزلق فوق ركبتها.

- لا أحد يجبرك على النظر إليها.

فرانك ينهض ويذهب إلى الحمام.

- الخبل أصابهم جميعًا. لم أعد أعرف ما الذي يبقيني هنا؟ الوضع الآن كما في السابق. الكل يرحل. "سارة" تريد أن تذهب إلى والدها بعد أن بلغت السادسة عشرة. لم أعد أراها، تقريبًا لم أعد أراها. يمكنها أن تذهب إليه، ساعتها لن أحمل همها. إنه الآن في وضع رائع، لديه الابنة، والسيد بابا يستطيع أن يفتخر بابنته. ولكن عندما كنت أجري كل ليلة إلى طبيب الإسعاف بسبب حالات الربو، آنذاك كان بابا يختفي كأنه فص ملح وذاب. أما النقود فلم يدفع إلا ما ينبغي عليه. كان يدفع صاغرًا وصامتًا. والآن يتصل النذل تليفونيًا. ظلت "سارة" تبكي لمدة أسبوع، وفجأة قررت الذهاب إليه، وأخذت تدخن بشراهة. كنت أعتقد أن أمري لم يعد يهمك أنت أيضًا.

- لأنني متزوجة؟

- لقد خاطرت بكل شيء وقررتُ أن أتصل بك. كنتِ غريبة جدًّا آخر مرة. ومن ساعتها لم أسمع منك شيئًا. إذا لم أبادر أنا بالاتصال بالناس لا يتصل بي أحد. هذا هو الأمر ببساطة.

- لم تكن أموري على ما يرام، صدقيني.

- بسبب حيوان الغرير؟

- نعم، بسببه.

عندئذ تصمت "هني". لأول مرة ينمو صمت بدا وكأنه كابوس. أستطيع أن أسمع أنفاس "هني". أسألها:

- هل لديكم غرير الآن؟

نبرة صوتي عادية تمامًا.

تجيب "هني":

- لا. يؤسفني أننا لم ننطلق معًا في ذلك اليوم. ولكن "ليديا"، المُحنِطة، أتعرفين، إذا كان عليها أن تقود مجموعة داخل المتحف، إذا فعلت ذلك وحدها، فقولي على كل شيء آخر السلام. إنها الفوضى مجسدة. حالة تصلح لك.

- أهلًا وسهلًا.

فرانك يعود من الحمام ويترك ضوء الممر.

- أود أن أراكِ ثانية، يا "بابس"، هكذا من غير مناسبة، نقضي أمسية جميلة مع بعضنا نحن الثلاثة، أو أنت وأنا، من غير مناسبة، ثم ندردش ونثرثر حول كل شيء. أتجدين الفكرة سخيفة؟

- لا، أبدًا.

- أن يرى المرء شخصًا من الأيام الخوالي. أتفهمين هذا الشعور؟

- نعم.

أقول لها ذلك، وأعدها أن أتصل بها وأنني لن أؤجل الأمر طويلًا.

ثم تقول "هني" في نهاية المكالمة:

- "بابس"، أحبك فعلًا، دون أسباب. هل تصدقينني؟

عندما وضعت السماعة كان سلك التليفون اللولبي قد التف حول بعضه البعض، وتداخل في عدد من المواضع وكأنه سوستة. أرفع الجهاز بيدي وأضع السماعة على الأرض. السلك يتمدد. أرفع الجهاز إلى أعلى إلى أن تبدأ السماعة في الدوران فوق السجادة. يستغرق الأمر على الأقل دقيقة إلى أن يتأرجح السلك يمينًا ويسارًا وقد انحلت كل عقده. أعيد الجهاز إلى الطاولة وأضع السماعة فوقه. يتساءل "فرانك":

- هل حدث شيء؟

- كلا.

أقول وأخلع قميصه وأرميه في اتجاه مسند الكرسي.

- كانت سكرانة إلى حدٍ ما.

أقول له ذلك، ثم أشعر بقصبة قدمي تصطدم بالسرير.

- إنها تعتقد أنك مشهور، وأنك تسهر في كل أمسية في حفلة من الحفلات الكبرى، وأنا ألعب دور السيدة الأولى.

يحرك "فرانك" رأسه ويضعه على كتفي، ثم يضع ساقه اليمنى المثنية فوق ركبتيَّ. شيئًا فشيئًا أتعرف على الخطوط الخارجية للدولاب وعلّاقات الملابس والشمّاعات وإطارات الصور، والمصباحين، والمرآة المعلقة عليها سلسلتي، وعلى الكرسي.

أشعر بأنفاس "فرانك" على عنقي، دافئة ومنتظمة. نكـون منهكـين تمامًـا في المسـاء دومًـا. أعرف أنني لن أستطيع الاستغراق في النوم. أعرف هذا الشعور جيدًا. لا يتبقى حتى السادسـة والنصف إلا ست ساعات.

أفضل شيء أفعله أن أنهض الآن وأنجز بعض الأشياء. لا بد أن أكتب لأمي وأسألها عمَّا تنـوي أن تفعله في عيد الميلاد. نخطط أن نسافر إلى جزيـرة "تنريفـي" في إسـبانيا، ونبقـى هنـاك حتـى الأسبوع الثاني من يناير. في السابق لم تكن هناك أي مشكلة مع أمي. ولكن منذ زيارتنا الأخيرة - ربطتُ حذائي في المدخل وإذ بي أرى كرة هائلة من الغبار والشعر عالقة برباط الحذاء. اعتقدت أنها ستسقط من تلقاء نفسها، إلا أنها دخلت تحـت العقـدة. وهكـذا فككـت الربـاط وحملـت الوساخة إلى سلة القمامة، ثم غسلت يدي. راقبتني أمي طـوال الوقـت ولم تجـد شـيئًا يسـتحق التعليق. على الأقل لم تقل شيئًا. في فبراير ستتم الثامنة والستين. حتى الآن كنت أتعجب من أنها تتسوق بطريقة شبه آلية، تشتري سجقًا مغلفًا أو جبنة مـن رفـوف السـوبر ماركـت، ونـادرًا مـا تبتاع شيئًا طازجًا، ولا تشرب إلا نيسكافيه، وتقول إنها تحب طعمه أكثر مـن القهـوة الطبيعيـة، نيسكافيه جولد. الفناجين البيضاء الزرقاء الجميلة موضوعة منـذ سـنوات دون اسـتخدام خلـف مقلاة التحمير الكبيرة. عندما نكون عندها نشرب من أكواب تشيكية كانت تباع المسـطردة بهـا، وكانت ذا حافة ذهبية يومًا ما. تأخذ الأطباق مـن ماكينـة التنظيـف مبـاشرة، ثـم تعيـدها بعـد الاستخدام. إلى ذلك اليوم لم أكن حتى قد لاحظت أن أمي أصبحت عجوزًا ينبغي عـليَّ أن أهـتم بأمرها قريبًا.

رجفة تعتري ساق "فرانك". أنفاسه الحارة تصيب دائمًا المكان نفسه في عنقي. أثني قدمي بعض الشيء، وأشعر بأظافر قدميَّ على سطح غطاء السرير.

لم أهنئ "هني" بعيد ميلادها. لا أعرف ماذا أتمنى لها. أنادي:

- "فرانك".

ما زال يؤلمني الموضع في كتفي حيث عضني. عبر إحدى الشرائح المثنية في شيش النافذة يتسرب ضوء. أستطيع التعرف على المواضع البارزة في ورق الحائط. أتخيل دورات سماعة التليفون المتأرجحة حتى أتعب وأنعس. أنفاسه حارة لا تطاق. أقول بصوت خافت:

- "فرانك".

ساعده يضغط على أضلاعي، وأصابعه تلمس عمودي الفقري.

- "فرانك".

أهمس:

- لقد قتلتُ شخصًا.

أستدير ناحيته، وأرقد على جانبي. نبضات قلبي تهدهدنا، السرير كله يتأرجح.

أحيانًا يكفي نوم قليل في الصباح حتى ينسى المرء ليلة كهذه. عندئذ تنصهر الساعات التي قضاها المرء راقدًا مستيقظًا وتتجمع في لحظة، ثم تتساقط كحلم، وكأن شيئًا لم يكن.

لا بد أن أنهض وأقوم بشيء نافع ومفيد. لكنني لا أعرف أين أبدأ. أنشغل بحساب عمري وفق "سنوات القطط". سنوات القطط هي حاصل ضرب الرقم في سبعة. أعمار السلحفاة تكون ناتج القسمة على سبعة. ولكن ليس هناك "سنوات السلحفاة".

(9)

موزِّع الشغل



لماذا لا يستطيع "رافائيل" صاحب شركة التاكسي أن يقطع من جلده ويوفِّر فرصة عمل لشخص في شركته؟ ولماذا لا يصلح "أورلاندو" للعمل سائقًا؟ ارتباكات مقصودة وغير مقصودة. الجو أدفأ من اللازم في مثل هذا الوقت من العام.

يجلس "رافائيل" في غرفة المكتب. سبابتاه تتجولان فـوق أزرار الكمبيـوتر. نظراتـه تتنقـل بانتظام بين الشاشة وكتاب ما. على حافة المكتب علبة شوكولاتة "تيفوليه" فارغـة. بـين الحـين والآخر يمسح كفيه في أعلى فخذيه.

يسمع "رافائيل" وقع خطوات على السُلَّم. تطلع نحو الباب، ثم اعترتـه رعشـة عنـدما رن الجرس.

- "رافائيل؟"

مقبض الباب يتحرك. رن الجرس مرة أخرى.

- "رافائيل"؟ ماذا حدث؟ إنه أنا، أنا!

مقدمة حذاء تصطدم بالباب المعدني الذي انفتح بعد صرير قصير.

- لماذا تصرخ في المنزل كله؟

أغلق "رافائيل" الزر الأعلى في بنطلونه وهو ينهض، ثم قال:

- قبل أن تجلس، أغلق الباب جيدًا.

وضع "أورلاندو" حقيبته، وضغط بركبته على الباب، ثم شد على المقبض، وهو يقول:

- مغلق.

سار "رافائيل" في اتجاهه.

- هه؟ كيف حالك؟ هل ازددت طولًا؟

رفع "رافائيل" يديه عاليًا أمام "أورلاندو".

- لن أسلِّم عليك، وإلا نقلت لك العدوى. هل تريد تأسيس فرقة أزياء شعبية؟

يقول "أورلاندو" وهو يفك أزرار الجاكت "البافاري":

- يسمونه "جانكر".

لفَّ الشال حول رقبته وأضاف:

- أستطيع أن أبدأ.

- متى خرجت؟ حذاؤك جديد.

- اليوم.

- وجئت على الفور إلى هنا. بحاجاتك ومحتاجاتك؟

أومأ "أورلاندو" برأسه.

- لم يعطونك إجازة مرضية؟

- أستطيع السواقة، دون مشاكل، فعلًا.

يسير "رافائيل" إلى مقعده وينهار فوقه، ثم يقول:

- ازداد وزنك يا "أورلاندو".

- كانوا يعلفوننا جيدًا.

- منذ أن توقفت عن التدخين...

ربَّت "رافائيل" على فخذه وأضاف:

-..... دهون الشتاء. دائمًا ألاحظه هنا أولًا.

- أعطني سيارة من فضلك.

رفع "رفائيل" يديه مرة أخرى ثم أنزلهما على مسند المقعد.

- كنتُ سائقًا جيدًا.

- أعلم يا "أورلاندو".

انزلق "رافائيل" على مقعده إلى الأمام، وقلَّب في مفكرته.

- كنتُ بالفعل سائقًا جيدًا! أنتَ نفسك قلت هذا.

- لخمسة أسابيع يا "أورلاندو"، خمسة أسابيع.

قلَّب "رافائيل" صفحة وراء الأخرى، ثم أضاف:

- أربعة أسابيع وخمسة أيام إذا أردنا الدقة.

- ستة أيام في الأسبوع، سبعة أيام، 12 ساعة في اليوم، وأحيانًا 13 ساعة.

- وهل تعلم كم ساعة أجلس أنا هنا؟ هل فكرت مرة في هذا؟ أنا ليس لدي وقت لابتلاع قرص أسبرين. المفروض أن ألازم الفراش، عندي حمى. هل تريد أن تتأكد من هذا؟

يضع رافائيل راحة يده على جبهته.

- أنا سائق تاكسي.

- الجميع سائقو تاكسي يا "أورلاندو". كل واحد يظن أن بإمكانه أن يعمل سائق تاكسي. كل كلب يعتقد أنه سائق تاكسي! لا تصعب عليَّ الأمر من فضلك!

- سأفعل كل ما تريده مني.

- كانت محاولة يا "أورلاندو". من فضلك، أنا حاولت، لكننا فشلنا. والفشل كان ذريعًا جدًّا.

- كان الرجل سكرانًا.

ينطق "رافائيل" بكلمة، تقريبًا بلا صوت، وكأنها مجرد زفير مفاجئ.

- طيب، ما الجديد؟

يغلق المفكرة ثم ينهض قائلًا:

- اليوم آخر مباراة على أرضنا.

- كان سكران وهو الآن في السجن يا "رافائيل"!

- أي الفريقين تشجَّع؟ طيب، اجلس. دعني أقدم لك فنجان شاي؟ تشرب معي؟

ذهب "رافائيل" إلى الثلاجة الموضوع عليها ماكينة صغيرة لإعداد القهوة وفناجين وخبز محمص وبرطمانان من المربى.

- في العام الماضي لم ينقذنا إلا الجو السيئ، أنقذنا نحن وتجارة الوقود. وإذا لم يتغير الوضع سريعًا، فسوف..... "سي لا في"، هكذا الحياة. في السابق كنا نأمل أن يتأخر الشتاء في قدومه وأن يمضي سريعًا حين يأتي. ومع ذلك كنتُ دائمًا أتطوع لقيادة كاسحة الجليد عند هطول الثلج لأول مرة، هذا إذا لم يكن عندي وردية. عندما كان الثلج يهبط كثيفًا كنت أقود كاسحة الجليد، غالبًا، أثناء الليل. عندئذٍ تخلو الشوارع من أي آثار وتقود الكاسحة وحدك في الطريق، ولا شيء أمامك سوى الثلج البكر، شيء رائع!

- إنه الآن في السجن يا "رافائيل". وما حدث لن يتكرر!

- "ما حدث لن يتكرر". يمكنك أن ترحل إلى "برلين"، إلى "هامبورج"، أو إذا أحببت إلى "لايبتسج". لكن لا يمكنك البقاء هنا! ألا تفهم هذا؟ "ما حدث لن يتكرر". إذا تكرر ذلك فلن تتلقى السكين ربما في ظهرك...

ألقى "رافائيل" فلتر القهوة المستعمل في سلة المهملات، وغسل الإبريق الزجاجي وملأ الماكينة بالماء.

- أوكي "أورلاندو". حتى ولو كنت أبالغ، فأنا لم يعد عندي سيارة أعطيها لك.

- أنت قلت...

- أنا قلت إنني سأساعدك. هذا ما قلته. إلا أنني لم أقل إنني سأقطع لك وظيفة من جلدي.

يمسح يديه في البنطلون ويضيف:

- دع أظافرك في حالها. أنت لم تعد حتى تلحظ ذلك. أنصحك بالذهاب إلى "هوليتشك". ذلك الرجل الذي يعمل في مجلس الولاية. لقد كتبوا في الصحيفة أنه يريد مساعدتك. لماذا لا تذهب إليه غدًا، وتشكره على زيارته وعلى الزهور، ثم تسأله عن تصوره لمساعدة أصحاب البشرة ذات اللون المختلف.

ضغط "رافائيل" على زر تشغيل ماكينة القهوة.

- ها أنت تحملق في وجهي. هل تستطيع أن تقول لي ما فائدة التأمين الصحي إذا كان على رب العمل أن يدفع للعامل أجر ستة أسابيع من لحم الحي؟ أنا أدفع الآن خمسة أضعاف ما كنت أدفعه لشركة تأمين السيارات، والبنزين لا يرخص. وفوق كل هذا تأتي البلدية وتلغي أماكن الوقوف عند البركة، وبالنسبة لشرطيات المرور فإن كل السيارات تتساوى. وفي النهاية... يا إلهي.

هدأ "رافائيل" فجأة، وأضاف:

- وأخيرًا لا تنسَ أنك مهندس ميكانيكا، معك دبلوم من "هافانا"، ودبلوم آخر من جامعة "دريسدن" التقنية، هذا غير دورات إعادة التأهيل التي قمت بها. بالإضافة إلى هذا فإن معلوماتك عن الكمبيوتر أفضل عشر مرات من معلومات كل القرود الذين ركَّبوا لي هذا الشيء. لكنك لست سائق تاكسي، يا دكتور! ألا تحصل على راتب كامل من الحكومة؟

- لا.

شمخ "أورلاندو" بأنفه عاليا، وأدار وجهه، بينما أمسك "رافائيل" بكتفه، وقال:

- ومع ذلك. انظر لي أنا. لستُ سائق تاكسي يا دكتور، لستُ سائقًا، أتفهم؟ كما أنني لا أستطيع أن أضرب الأرض فتنبت بطيخًا، أو أن أجعل السماء تمطر ذهبًا! الجميع بحاجة إلى مساعدة. والكل واقع في مشاكل، الكل!

ضغط "رافائيل" بسبابته الممدودة على سوالفه.

- هذا هو الوضع! ثم طاخ...

أثنى "رافائيل" إبهامه وكأنه يضغط على زناد، وأضاف:

- طاخ! أنا لا أستطيع إنقاذ العالم كله. ما أستطيع إنقاذه هم أربع وظائف ونصف وظيفة. إذًا لا بد من التركيز يا "أورلاندو"! لم أعد أريد اضطرابًا وارتباكًا في عملي، ألا تتفهم ذلك؟ ودع أظافرك في حالها، ارحمها!

سار "رافائيل" عائدًا إلى الثلاجة وفتح بابها.

- هل تعلم متى قمتُ أنا و"بترا"... متى لمستُها آخر مرة؟ في عيد القيامة! أمَّا "دافيد" فأراه، أحيانًا، في نهاية الأسبوع. وفي نهاية الشهر تتوالى المصائب. أقساط السيارات، إيجار المكتب، التليفون، الرواتب، أقساط التأمين... يكفي ما ذكرته. كم الساعة الآن؟

- التاسعة.

- الشوط الثاني. هل سألت نفسك مرة لماذا أشجِّع فريق "دورتموند"؟

- من أجل "زَمَر"؟

- لا.

- من أجل "أندي"... أو "مولر"؟

- أتريد أن تعرف؟ إذا فاز فريق "بروسيا دورتموند" بالبطولة، إذا حصلوا على اللقب هذا العام، فسأجتاز محنتي أنا أيضًا. أعرف هذا. أمَّا إذا لم يفعلوا فسأشهر إفلاسي. سألقي بالمنديل وأعلن نهاية الجولة. عندئذ يمكنك أن تحصل على كل سياراتي! هل ما أقوله يستدعي الابتسام؟ في وقت ما لا بد أن تأتي النهاية، هكذا أو هكذا. "بترا" تدفع كل شيء؛ الشقة، والطعام، وأشياء "دافيد"، هدايا عيد الميلاد. أنا الذي كنت أريد أن أكون أول من يُخرج عائلته من هذه المدينة!

خبط "رافائيل" بكفه على ماكينة القهوة التي استخدمها لغلي الماء.

- لا بد من إزالة الجير المترسب. أي نوع من أنواع الشاي تفضِّل؟ أخضر، نعناع، شاي "إيرل جراي"، الكرز البري، أم شاي إنجليزي؟ لدي شاي عيد الميلاد أيضًا.

- البعض يفيض بهم الكيل دائمًا، ولذلك يهاجرون - أنت قلت هذا ذات مرة يا "رافائيل".

لمَّع "رافائيل" الأكواب الزجاجية، ثم وضع في كل منها كيسًا من الشاي، ثـم ألقـى بأطبـاق صغيرة من الفلين فوق المكتب.

- خلاص، يمكن أن تعمَـل عنـدي مـن عيـد المـيلاد إلى رأس السـنة. اجلـس أخـيرًا، ودعنـا نتحدث.

التقط قوالب سكر من العلبة الكارتون.

رد "أورلاندو":

- لا.

- ألا تريد أن تجلس؟

- ليس كمساعد يا "رافائيل".

- لم يعد لديَّ ليمون.

وضع علبة حليب بين الكوبين، ثم جلس وتناول سماعتي التليفون في وقت واحد.

- دائمًا أقول لنفسي: هناك من يخـرِّب شركتـي. هـل تسـتطيع أن تقـول لي لمـاذا لا يتصـل أحد؟ في هذه المدينة يعيش 48 ألف جحش! لنقـل 47 أو 45 - كنـا في يـوم مـن الأيـام فـوق الخمسين ألف يا "أورلاندو"، خمسين ألف جحـش! لمـاذا لا يريـد أي جحـش مـنهم أن يركـب تاكسيًا؟ لماذا لا يتوقف تليفوني عن الرنين؟ يمكنك أن تأخذ وظيفتي. سأعطيك وظيفتـي بكـل سرور وفرح. عاطل عن العمل، لكن بلا ديون. أنت حر! يمكنك أن تفعل ما تريد.

ترتطم سماعتا التليفون بالجهاز.

قال "أورلاندو":

- هذا جو سفر خارج المدينة. ليس جو شغل على تاكسي.

أخذ سيجارة ورشقها بين شفتيه ووضع العلبة على المكتب.

- إذا كانت جيوب الناس فارغة، فلن تمطر السماء فوق رؤوسنا إلا الخراء! هذه هي الحقيقة. متى تفهم ذلك؟! لا تدخن هنا يا "أورلاندو".

فتح "رافائيل" علبة الحليب.

- لماذا لا ترحل من هنا؟ ماذا يبقيك في هذه المدينة البائسة، هه؟

لعق "رافائيل" الحليب من إبهامه.

- صباح اليوم قابلتُ زميلًا من أيام المدرسة. ذهبتُ إليه لتحيته، لكنه أخذ يحملق تجاهي ولم ينطق حرفًا.

مدَّ "رافائيل" رأسه إلى الأمام وكوَّر يديه كالمنظار فوق عينيه.

- هكذا. لم أسأله إذا كان لديه عمل. حتى لو كان لديه فبالتأكيد سيعتقد أنه يكسب أقل من اللازم. كل الناس يعتقدون أنني رجل أعمال كبير، ربما تعتقد ذلك أنت أيضًا. إذًا لا يتبقى لي إلا أن أسأله عن عائلته وعن الأطفال، إلى آخره. وانتهت المقابلة!

دفن "رافائيل" وجهه في كفيه وكأنه قال كل شيء، ثم مسح جبهته.

- ألا تعرف! هكذا صرخ في وجهي. ثم يقول إنني لا بد على علم بالأمر، حتى قبل أن يعرف هو! لم أفهم شيئًا ممَّا قال، ولم أفهم لماذا كان منفعلًا هكذا. ذقن طفله متدلٍ كديكٍ رومي، يقول. ثم صرخ في وجهي وسط الشارع قائلًا: "ليس هذا طبيعيًّا". ليس هذا فحسب، بل قال إنني عرفت أن زوجته ستنجب بنتًا قبل أن يعرف هو. بالطبع أنا لا أتذكَّر ذلك، ولا حتى الآن! أنا لا أعرف حتى زوجته على الإطلاق! ومن أين؟ ومن قال لي؟ لكنه ظل يصرخ فحسب. إن هذا ليس طبيعيًّا. حدث ذلك قبل ست سنوات يا "أورلاندو"، تخيَّل هذا، ست سنوات! بالتأكيد خلط بيني وبين شخصٍ آخر. ولكن، حتى لو كنت أنا الشخص الذي يقصده... أتفهم ما أقصد؟

- لا!

قالها "أورلاندو" بصوتٍ خافتٍ. ارتفع صوت ماكينة القهوة. وتصاعد البخار منها. كان الماء يملأ ربع الإبريق الزجاجي.

- إذا ظل شخص يحمل بداخله، لطوال ست سنوات، هذا الغضب معه يا "أورلاندو"... أتعرف ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن هناك من سيفرِّغ غضبه يومًا في سياراتي، يعني أن عليَّ أن أتوقع خدوشًا في الطلاء أو تمزيقًا في الإطارات! أفضل شيء ألا أغادر مكاني هنا. يكفيني التليفون. عدا ذلك لا أجني إلا المشكلات والصعوبات.

- أستطيع البدء على الفور، فعلًا. لم تعد الإصابة تؤلمني. أتريد أن ترى؟

خلع "أورلاندو" الجاكت البافاري والبلوفر، ثم فك أزرار القميص حتى الحزام، وأخرج ذراعه الأيسر. اتكأ "أورلاندو" على المكتب معطيًا ظهره إلى "رافائيل"، ثم خلع الفانلة من كتفه اليسرى.

- من غير لاصق طبي؟

نهض "رافائيل"، وانحنى فوق المكتب.

- لا بد أن يكون معرضًا للهواء. كي يلتئم الجرح أفضل، هكذا نصحوني.

- هكذا يتخيل المرء الجرح تمامًا.

مد "رافائيل" ذراعه وتحسس بأنامله الندبة.

- والخيوط؟ هل يؤلمك ما أفعل؟

هز "أورلاندو" رأسه، وهو يقول:

- أشعر بدغدغة.

ربَّت "رافائيل" على كتفه، ونزلت يده على ذراع "أورلاندو"، ثم رفع له حمَّالة الفانلة. عندما لمسه مرة ثانية، ابتعد "أورلاندو" عن حافة المكتب.

- أنت تشعر بالألم إذًا.

قالها "رافائيل" ثم جلس مرة أخرى.

بعد أن أغلق الباب خلف "أورلاندو"، قام "رافائيل" بنزع الأسلاك عن الجرس حتى لا يرن. سار إلى النافذة وفتح الجزء العلوي بعض الشيء. أخذ يراقب "أورلاندو" وهو يضع الحقيبة على مقعد التاكسي الخلفي، ثم وهو يركب من الناحية الأخرى. عندئذ انطلق السائق.

تطلع "رافائيل" إلى الناحية الأخرى حيث يقع مكتبه القديم. النافذتان المطلتان على محطة الأتوبيس مُعتمتان.

- موزِّع الشغل.

قال "رافائيل":

- موزِّع، موزِّع.

أخذ يكرر:

- موزِّع، موزِّع.

ازدادت الكلمات سرعة إلى أن تفتتت وفقدت معناها وبدا وقعها على أذنيه غريبًا. تمامًا كما كان يحدث لأغلب مَن يسألونه عن مهنته السابقة، فيقول لهم "رافائيل": "موزِّع". "موزِّع الشغل على التاكسيات في "ألتنبورج" و"برنا" و"جايتهاين" و"شمولن"، موزِّع، موزِّع، موزِّع، موزِّع.... " كلما طال حديثه، نشأت حروف أكثر غير متوقعة. يستمتع "رافائيل" بهذا الخلط الذي يسببه بنفسه. لا ينجح دائمًا في مسعاه. في الغالب تبقى الكلمة واضحة مفهومة، لا فارق، إلى أي نتيجة يصل.

يقف بجوار التليفون على الفور ويمد يده إلى السماعة. توقَّف لحظة ثم رفع السماعة وقال بهدوء:

- تاكسي "جونتر"، مساء الخير.

- أنا على الخط.

تساءل "رافائيل":

- بهذه السرعة؟

- ماذا تعني؟

- هل حملَ لك سائق التاكسي الحقيبة إلى الشقة؟

- أنا في صحة جيدة يا "رافائيل".

- بطيب، كما تحب.

- هل يتصل بك سكان "ألتنبورج" الـ 47 ألف؟

- من؟

- هل رن التليفون؟ هل طلب أحد تاكسي؟

- نعم. احتفال بعيد الميلاد، عدة مرات.

- و"دورتموند"؟

- ماذا؟

- هل فاز؟

- فعلًا؟

- أنا أسأل.....

- آمل ذلك، هذا أملي.

- لقد استمعت إلى النشرة الجوية. درجة الحرارة ستبقى فوق الصفر. أمَّا فيما يخص الأسبوع المقبل فهم أيضًا لا يعرفون كيف سيكون الجو.

- يقولون ذلك دائمًا. هذا هو أكثر ما يغيظني.

- عندك حق.

- من الممكن أن ينقلب الجو تمامًا الأسبوع القادم.

- طبعًا.

- "أورلاندو"؟

- نعم؟

- اعذرني..... أنا عندي حمى. لم أرغب في..... هل ستلقي نظرة على الكمبيوتر غدًا؟

- سأفعل.

- لم يعد أي شيء يعمل في ذلك الشيء.

- سأفحصه، طبعًا.

- سأكون شاكرا لك، شاكرًا جدًّا.

- ستبقى حتى الحادية عشرة؟

- نعم، حتى الحادية عشرة.

- عندك ما يكفيك من الشكولاتة؟

- شكولاتة؟

- لا بد أن ندعوك "رافائيلو" وليس "رافائيل"، "رافائيلو فريرو" مثل ماركة الشوكولاتة.

- أطلقوا عليَّ "رافائيل" نسبة إلى الرسَّام. لم يعد يعرف أحد هذا.

- "رافائيل"؟

- بالضبط.

- وما علاقتك به؟

- لا شيء. سأحكي لك ذلك فيما بعد.

- أنت ترسم؟

- سأحكي لك فيما بعد، ليس الآن.

- كنت أريد أن أقترح عليك شيئا يا "رافائيل".. هل أنت معي؟

- نعم.

- أستطيع أن أعمل إلى حتى أجمع كل المبلغ. لقد خطر هذا على بالي عندما وصلت إلى هنا. قل لي كم تكلَّف الأمر، الإعانة المَرضية وتكاليف التصليح و...

- ماذا؟

- أستطيع أن أعمل إلى أن أجمع كل المبلغ، الإعانة المَرضية وتكاليف تصليح السيارة.....

- لا تقل كلامًا فارغًا يا "أورلاندو".

- سأحضر غدًا. وأنت تعرف أين تجدني.

- هه؟

- طيب، إذًا يا "رافائيل".

- هه؟

- هل ما زالت على الخط؟

- ماذا؟

- الشخص الذي تم الاتصال به هو الذي عليه الآن أن يتكلم.

- يعني أنا.

- تستطيع لو أردت أن تعد إلى ثلاثة.

- لا بد أن أنهي المكالمة الآن.

- عليك الدور.

- نعم.

قالها "رافائيل"، ثم وضع السماعة.

- موزِّع.

قال بصوت عال ناظرًا تجاه السلكين فوق إطار الباب. يبدوان مثل قرون الاستشعار. شعر بقميصه يلتصق بإبطيه وظهره. شمَّر "رافائيل" كُميه، ثم اتجه إلى النافذة وفتحها على مصراعيها. انحنى مستندًا على النافذة وقال:

- موزِّع. موزِّع، موزِّع.

واصل التحدث بسرعة وبصوت عال.

اعتقد "رافائيل" أن أنفاسه مثل سحابة دخان. للحظة اعتقد أنه يرى المحطة المغطاة بالثلج. لكنه لا يشعر بالبرد. ولا حتى قشعريرة أو رجفة. ما زال الطقس بالفعل أدفأ أكثر من اللازم.

(10)

ابتسامات



"مارتين مويرر" يحكي عن لقائه بأبيه الحقيقي بعد أربعة وعشرين عامًا. اعتراف مفاجئ. المؤمنون يمرضون أقل ويعمِّرون أطول. سفر "أعمال الرسل" ومناشف الصحون.

يصعب عليَّ أن أحكي وقائع لقائي مع أبي كما عشتها آنذاك، أي أن أتحدث عن الانطباع الذي أثاره شخصه وحكايته في نفسي. ليس لأن ذاكرتي ضعيفة - فلم يمر على ذلك سوى أقل من عام - وإنما لأنني أعرف اليوم معلومات أكثر. بل ربما يمكنني القول إنني اليوم إنسان آخر.

في صباح يوم من أيام مارس عام 1969 دخلت أمي الغرفة عليَّ وعلى "بيتر" قائلةً: "أبوكم هرب". شدت الستائر وفتحت النافذة، ثم خرجت ثانية. كنت في السابعة من عمري، و"بيتر" في الخامسة.

- لا يهم.. إذا سألك أحدهم في المدرسة عمَّا حدث، فاحك له. ليس لديك ما تخفيه على الإطلاق.

هكذا قالت لي أمي، قبل أن تأخذ أخي إلى الحضانة. لم نتكلم عن هذا الموضوع بعد ذلك ولو بكلمة واحدة.

بعد عيد ميلاد ابني "تينو" في 13 فبراير 1988، أرسلتُ لأبي صورة لنا نحن الثلاثة. بعدها أرسل لي بطاقة تهنئة ومعها مائة مارك ألماني غربي. وفي أكتوبر عام 1991 قُتلت زوجتي "أندريا" في حادث. كتبت له هذا الخبر أيضًا، فأرسل لي بطاقة تعزية ومعها مائة مارك أخرى. فيما بعد تلقيت بطاقة بريدية عليها تحيات من مدينة "مورناو".

قبل عيد ميلاد أبي الخمسين بقليل، كان "تينو"، ابننا، قد انتقل للعيش مع "داني"، أخت زوجتي. كانت، ببساطة، تتفاهم مع الصبي بطريقة أيسر. لكن، بعد عدة أسابيع، اتصل بنا جارنا السابق "توماس شتويبر" وسألني إذا كان من الممكن أن أشتري له من مدينة قريبة من "ميونيخ" سيارة جديدة طراز "بي إم دبليو" بخمسة أبواب. عرض عليَّ أن يعطيني 250 ماركًا مقابل مجهودي، إضافة إلى تكفله بمصاريف الطعام والشراب والسفر. لا بد من أنه سمع بأنني عاطل عن العمل. وافقت على الفور.

ربما لا أعرف السبب الذي دفعني إلى الاتصال بأبي قبل أن أسافر. ربما بدافع الفضول أو لأنني كنت آمل في أن أحصل منه على بعض النقود، فقد كان رئيسًا للأطباء في أحد المستشفيات في الماضي.

كان صوته مهتزًّا في التليفون. قال لي: "يا ابني". أعطاني اسم وعنوان المقهى الذي يجلس فيه يوميًّا من الساعة الرابعة بعد الظهر وحتى المساء. في المساء التالي اتصل أبي. قال: "إنك تعرف حالتي الجسدية الآن؟"، حتى لا أُفاجأ حين أرى كيف تغير شكله. لم يرَ أحدُنا الآخر طوال 24 عامًا.

لم أنتظر كثيرًا في معرض السيارات في "جروبنتسيل". سألت نفسي: "متى كانت آخر مرة جلست فيها خلف عجلة القيادة؟". قدتُ السيارة حوالي ساعة

حتى وصلتُ إلى الحديقة الإنجليزية في "ميونيخ"، وهناك وجدت مكانًا أوقفتُ فيه السيارة دون الرجوع إلى الخلف. سرتُ المسافة المتبقية على الأقدام.

فوق الرصيف العريض تناثرت الموائد المستديرة أمام المقهى مباشرة، وحول كل مائدة كرسيان. بمجرد أن يبدأ الناس في دفع الحساب كان المارة يقفون وينتظرون ثم يتدافعون - قبل أن يرفع النادل الكؤوس والفناجين - في اتجاه الأماكن الشاغرة. جلست بالقرب من امرأة كانت قد رفعت نظارتها وثبتت بها شعرها، ثم راحت تتشمس. جاءت القهوة مع الفاتورة وقطعة بسكويت.

درت ببصري يمينًا ويسارًا وكأنني مشجع في إحدى مباريات التنس. راقبت كل شيء، حتى سيارات التاكسي التي كانت تسير ببطء. أخذت أغمس البسكويت في القهوة الساخنة، ثم صببت الحليب المركز في الفنجان حتى امتلأ لآخره، وأشعلت سيجارة. عندما أفكر في أبي تحضر دائمًا أمام عيني صورة الزفاف التي كنا مرة خبأناها في حجرتنا عندما كنَّا أطفالًا. تخيَّلت كيف سأرمي السيجارة في اللحظات القادمة ثم أشق طريقي بين الكراسي. في تلك اللحظة رأيت رجلًا نحيفًا يسير تجاهي مباشرة. مع كل خطوة يخطوها، كان معطفه يلتف حول ركبتيه. توقَّف قبل أن يصل إليَّ بقليل. اقترب من مائدة السيدة التي كانت تتشمس، ثم مد يده اليمنى بهدوء والتقط بأصابعه الطويلة القذرة عدة قوالب سكر من السكرية. فتحت المرأة عينيها بعد أن أحست فجأة بظل. بعدها مباشرة رأينا معطفه من الخلف يرفرف على ساقيه، ثم اختفى الرجل كأنه فص ملح وذاب.

في الرابعة وقفت على حافة رصيف أمام المدخل. اعتقدت أنني رأيت وجهه عدة مرات.

لم ألبث إلا أن تعرفت عليه في الحال. أقبل ناحيتي يجرجر قدميه ببطء بالغ دون عصا. وقفت أمامه. قلت له:

- أهلًا بابا.

لم أقل "بابا" منذ زمنٍ طويلٍ للغاية.

- مساء الخير يا ابني.

ابتعد برأسه قليلًا، ثم أضاف:

- لم أعد أرى إلا بعيني اليسرى.

شبك أبي ذارعه في ذراعي ودخلنا المقهى خطوة خطوة. كان أقصر مني.

- أبوك أصبح حطامًا. ظاهريًّا على الأقل. ألا ترى ذلك؟

- لا. لماذا تقول ذلك؟

العاملات بالمقهى كن يرتدين ملابس بنية فاتحة، وعليها مرايل بيضاء مشغولة بالكروشيه. رجعت إحداهن بظهرها واستندت إلى البوفيه الزجاجي الذي امتلأ بأنواع التورتات والجاتوهات والكيك، وذلك حتى نستطيع أن نعبر أنا وأبي معًا، وقالت:

- مساء الخير دكتور "راينهارد".

ظل أبي واقفًا ثم استدار برأسه وصافحها باليد اليسرى قائلًا وهو يشير إلي:

- ابني.

رفعت حاجبيها لأعلى.

- فرصة سعيدة أستاذ "راينهارد"! شرفتنا بزيارتك. أهلًا وسهلًا.

صافحتها أنا أيضًا. شعرت بذراع أبي من جديد. نظر إلينا العديد من الزبائن وابتسموا. والخادمات اللاتي أقبلن علينا أو مررن بنا كن يلقين التحية بصوت عال.

- أما زلت تُدعى "مويرر"؟

- نعم.

متزوجون كثيرون.

أقبلت علينا نادلة شابة كانت تكتب شيئًا في دفترها.

- مساء الخير.

حيتنا ثم أخذت لافتة "محجوز" ووضعتها في جيب المريلة. طلبنا فنجانين من القهوة.

- لا بد أن تأتي في الصيف عندما تُفتح "حدائق البيرة". لا بد أن تأتي حينها.

ثم ضحك كما في الصورة، الفارق الوحيد أن وجنتيه لم تبرزا. الآن بدأ يراني جيدًا.

- زمان اعتقدتُ أنك ستصبح بدينًا عندما تكبر. كنت تأكل أكل ثلاثة، وإذا تبقى طعام من أحد كنت تلتهمه. غير معقول 14 قطعة من الكبيبة، هذا غير الفواكه. كنا دائمًا نتساءل ممن ورثت هذا؟ معظم الشرهين يزدادون سمنة ويموتون مبكرًا.

رفع يده اليمنى بيده اليسرى ووضعها على المائدة. قال لي:

- حالتي كما ترى يا ابني.

بحثت في وجهه عن آثار الشلل، لكنني لم أجدُ شيئًا. كان وسيمًا، شعره لا يزال غزيرًا. عجوزٌ جذَّاب في منتصف العقد السابع. أخذ يتحسس بأنامله ما إذا كانت ربطة العنق مضبوطة.

حكي لي كيف استيقظ صباح ذلك اليوم ليذهب إلى التواليت، وعندما عاد إلى الحجرة رأى كرسيًّا مقلوبًا. عدل الكرسي، فسقطت المزهرية من على المائدة.

- هكذا بدأ الأمر. كنت أخبط الأشياء وأقلبها دون أن ألاحظ. ثم جاء البرق. شعرتُ بشيء يشبه البرق. لا، بل صعقني البرقُ فعلًا، تغلغل في جسدي. لم يكن انسدادًا في الشرايين كما ظن الجميع، فأنا لم أشعر بأي ألم. فقط ضربني البرق، ثم وجدت نفسي مشلولًا.

التفت أبي إلى النادلة التي أحضرت لنا فنجانين، ثم ابتسمت قبل أن تنصرف.

- بدأتُ من البداية، مرة أخرى من البداية. لكن كم من الوقت احتجت حتى أبدأ! كنت أظن أن ما أصابني سيختفي من تلقاء نفسه، وكأن الخَدَر أصاب قدمي فحسب.

راقبته وهو يقرِّب الفنجان من فمه. رشف بسرعة. ثم أعاد الفنجان من غير أن تهتز يده.

- عندك سكر؟

مددت يدي إلى السكرية.

- آخ، يا ابني أسألك إذا كان عندك سكر. أنا عندي السكر.

ارتشف رشفة أخرى، ثم أرسل النظر إلى المكان المجاور ليده المثنية.

- بدأت من الصفر، مرة أخرى من البداية. آنذاك عندما جئت إلى هنا - بدأت أيضًا من البداية.

- أنا أيضًا أبدأ دائمًا من البداية. لكنني لا أتحمل طويلًا.

- كل شيء له هدف ومعنى يا "مارتين"، كل شيء.

قال ذلك ثم أمسك بيده اليمنى وزحزحها بعض الشيء بعيدًا عن الفنجان، ثم أضاف:

- حتى ولو لم ندرك ذلك المعنى أبدًا، أو لو لم ندركه على الفور.

وعلى الرغم من أنني لم أقل شيئًا، فقد واصل حديثه:

- أعرفُ فيما تفكر. ومع ذلك، هذه هي خبرة كل سنوات عمري.

أخرج منديلًا مطبقًا ومسح به فمه. خيَّم علينا الصمت، فأخذت أفكر بماذا أجيبه وأنا أرتشف قهوتي؟ كنت مقتنعًا بأنه يفكِّر في كل جملة قبل أن ينطق بها، وأنه كان قد استعد لمقابلتي وكأنه يستعد لإلقاء محاضرة. ربما كان صمته جزءًا من استراتيجيته البلاغية.

حكيت له عن الرجل الذي سرق قوالب السكر من السكرية.

- ثم، فص ملح وذاب.

- وبعدين؟

تساءل أبي. ران الصمت من جديد.

- وما الجديد لديك؟

أجبته:

- لا شيء.

- صديقة؟

- أهذا ما تقصد بسؤالك؟ لا.

- كم فاتَ على حادث زوجتك، سنة؟

- سنة ونصف.

- والسائق؟ هل.....

- اختفى. على الأقل لم يعثروا له على أثر. ربما كانت السيارة أقرب مـن الـلازم، أو أي شيء آخر أفزعها. على العموم لقد وقعت وقعة غبية من فوق الدراجة..... بعد مدينة "زربيتس".

قلت له إنني أشعر بأنني مـذنب في مـوت "أنـدريا"، لأننـي فقـدت رخصـة القيـادة، ثـم ادعيت أننا لسنا بحاجة إلى سيارة على الإطلاق.

- لهذا تدربت "أندريا" على ركوب الدراجة. كانت منعدمة الثقة في نفسها.

بهذه الطريقة تكلمت كثيراً عن موتها. إلا أنني فجأة قلت:

- تمنيتُ أن تموت "أندريا"، ثم حدث ذلك.

حملقتُ في فنجاني ذاهلًا، كيف أقول شيئًا كهذا، وأمام مَن؟ أمام الذي هجرنا معتقدًا أنه يمتلك دوما الورقة الرابحة.

- ربما لم تكن تحبها حبًا حقيقيًا، أو كافيًا. هذا شيء لا يعرفه المرء قبل وقوعه.

وضع أبي فنجانه على المائدة، ثم دفع إليَّ بطبق الفنجان وعليه قطعة البسكويت.

- هل تريدها؟

وضعتها في فمي، وابتلعتها دون أن أشعر، ثم سألته إذا كان يضايقه أن أدخن. أشار بالنفي.

ثم سأل بعد لحظة:

- وماذا عن عملك؟

- ومَن يحتاج مؤرخًا في الفن؟ ودون دكتوراه؟

- كنت تسألني وأنا أقول لك.

بدأت أتحدث عن فن رسم اللوحات البوهيمية، وعن الجامعة وعن المظاهرات.

- لم ينهِ أحد ما بدأه. فعلنا كل شيء يمكن تصوره، إلا العمل على رسالة الدكتوراه. ثم، مرة واحدة، بروفيسور جديد، مساعدون جدد، تغيَّر كل شيء.

لم يحوِّل أبي نظره عني. سألني:

- هل ألقوا بك في الشارع؟

- نعم.

أخذتُ أقارن مرة ثانية بين عينيه اليسرى واليمنى، إلا أنني لم أجد أي فرق.

- هل كنت في الحزب؟

- لماذا تسأل هذا السؤال؟

- متأسف. ولكن "مويرر" ذلك – "مويرر الأحمر"! هكذا كانوا يطلقون عليه جميعا.

ضيَّق أبي عينيه، قبل أن يضيف:

- كان أصعب شيء أن أسامحه. لقد كرهت ذلك الرجل. لكنني سامحته.

- سامحته في ماذا؟

- آه، يا ابني. عندما يقع أولادك في يدي رجل مثل هـذا.. لم أكـن أريـد أن يتـدهور بكـم الحال هناك. كم مرة حاولت إقناع أمكم أن نرحل جميعًا. لكن دماغها حجر، حجـر، صـخر لا يلين.

- نحن أيضًا لم نكن نريد الرحيل.

- أنتم كنتم أطفالًا يا "مارتين". إنك ترى النتيجة الآن بعد انهيار السور.

- أنا حظي سيئ فقط، هذا هو كل شيء. لا ينقصني الآن غير أن أبدأ في إدمان الخمر، ثم أهرب من الشقة.

كنت أرغـب في مواصـلة الحـديث، لكننـي لم أسـتطع. فكـرت في "أنـدريا". آلمنـي حلقـي الجاف. شعرتُ بالدموع تترقرق في عينَـي، وكنـت عـلى وشـك أن أغـرق في موجـة دافئـة مـن الشفقة على الذات. غير أن أبي لم ينتبه لي، وأخذ يحكي عن أمي التي أبلغت الشرطة ذات مرة عن اختفائه. تأخَّر يومها لأنه عاد ماشيًا:

- استغرقت هي في النوم، وأنتم ظللتم قابعين أمام الشباك. لم ترغبوا أبـدا في الخـروج إلى الهواء الطلق. في البداية قامت بإبلاغ حارس الغابة. كانت تعتقد أنني ممد في مكـان مـا بعـد أن هاجمني خنزير بري.

ضاقت عيناه من الضحك. قال وهو ينظر في الساعة:

- فكرتُ كثيرًا في تلك الحادثة.

- يا ابني.

بدأ كلامه ثانية ثم استقام في جلسته.

- لقد طلَّقت "ريناتا" هنا، ثم تزوجت "نورا"..

مر بأصابعه على فودَيْه.

- "نورا" وأنا ظللنا متزوجين لعشرين عامًا. عندما أفتح عيني في الصباح كنت أجدها راقدة بجانبي. ما زلت أشعر بيدها عندما أستغرق في النوم. ما زلت أشعر بها، حتى بعد سنتين من إصابتي بالشلل... بالطبع كنت أفكر بأن "نورا" هي أقرب إنسان إلى قلبي في هذا العالم، من غير "نورا"... ثم – أريد أن أحكي لك ما حدث - ولكنني تحديت قدري. عندما ابتُليت بالشلل، اختفت من حياتي كل الأوهام التي لم أكن قد أدركت أنها كذلك؛ أوهام سعادتي المحدودة وأوهام أفقي الضيق.

زحزح يده مرة أخرى، ثم قال:

- كان يدق على بابنا "ملاك مُخلص" بانتظام– كما كنت أسميهم آنذاك. لم أكن أحب التحدث مع أولئك الناس. ولكن ذات مرة سمحت "نورا" له بالدخول. نادرًا ما كان يزورنا أحدٌ آنذاك. لم أكن أقدر على المشي، ولم يكن لدي أدنى أمل بأنني سأستطيع ذلك ثانية. جلس ذلك "الملاك"، واستمعنا إليه ساخرين مما يقوله. جلس هادئًا صابرًا دون أن يدافع عن نفسه. فجأة بدأ يصلي. أتذكره بوضوح وهو جالسٌ أمامي، ضامًّا ركبتيه، وفاردًا كفيه عليهما، خافضًا رأسه، مقطبًا حاجبيه وكأنه يتألم.

مسح أبي مرة أخرى بالمنديل على فمه. قلت لنفسي: "لا ينبغي عليَّ أن أتحدث".

سألني واضعًا منديله في جيبه:

- ألا تريد أن تأكل شيئًا؟

- جلست أنا و"نورا" بجانب "الملاك" المصلي وانتظرنا حتى ينتهي. ودَّعنا وكأن شيئًا لم يكن. إلا أنه عاد بعد يومين – ومعه زهور هذه المرة. كان يزورنا

ثلاث مرات، أربع مرات في الأسبوع. كنت أقول لنفسي: لو لم يكن غريب الأطوار على هذا النحو.....

قالها أبي بفظاظة، ثم أضاف:

- آخ، يمكنني أيضًا أن أختصر الموضوع. عندما بدأ يتودد إلى "نورا"، بدأت عيناي تتفتح، ورأيت مع مَن كنت أعيش. هل تعرف ما سبب بقائها معي طوال ذلك الوقت؟ أولًا: دفتر توفيري، ثانيًا: بوليصة التأمين، ثالثًا: معاشي القادم – فلوس، فلوس، فلوس. عندما أخبرتني "نورا" بأنها ستسافر في اليوم التالي مع ذلك الواعظ إلى البرتغال قلت لنفسي: "لستَ بحاجة الآن إلى أن تُخفي نقودك عن أحد". "نورا"، حياتي! كل ما كنا محتاجين إليه كان عندنا، وبوفرة.

صمت أبي. بدا لي أنه يود أن يستعيد زمام نفسه. لكنه واصل الحديث بصوت ثابت.

- آنذاك قلت لنفسي: "إنها النهاية إذًا". إلا أنني كنت أغرق أكثر وأكثر في الحضيض. ثم شعرت فجأة بنوع من الارتياح. كنت أقول لنفسي: "هكذا هو إذًا". هذا ما يختبئ خلف الورع الكاذب". كم هو بسيط هذا العالم! كنت أستمتع بتعذيب ذاتي. لكن...

ضيَّق أبي عينيه، وكأنه يضحك مقدمًا لنكتة سيقولها:

- أتعرف يا ابني، حياتي لم تبدأ إلا آنذاك. وحدي؟ بالطبع لا! لم أشعر بقرب يسوع المسيح في حياتي أبدًا مثلما شعرتُ في تلك اللحظة! مَن نحن حتى نغضب من الناس الذين يأتون لنا بالبشارة؟ مَن نحن؟

أصابتني كلماته كالبرق في يوم صحو. إنني حتى لم يتم تعميدي. كل ما كنت أؤمن به هو أن المؤمنين يعمِّرون أطول ويمرضون أقل. هذا ما قرأته قبلها بأيام في مجلة "علم النفس اليوم" الموجودة في مكتبة الحي. فجأة اختلفت لهجة أبي ونبرات صوته.

- كل يوم كان الأخوة والأخوات يأتون إلي يساعدونني ويساندونني، ومعهم أقرأ كلمة الرب، ومعهم أصلي.

هكذا راح يبشرني دون أن يرفع بصره عني.

- أنت ترى. أستطيع إعالة نفسي. إنني أسير مرفوع الهامة في طريقي للتقاعد.

حاول أن يصل إلى يدي.

- عندما تشعر بالوحدة واليأس يكون يسوع المسيح أقرب إليك من حبل الوريد. عليك فقط أن تقول نعم يا "مارتين"، فقط نعم.

- لكنني لا أشعر بالوحدة.

- بالطبع لا.

لمست أنامله أصابعي.

- لستَ وحدك يا "مارتين".

أمسك بذارعه اليمنى متكئًا إلى الوراء. لم أعد أتذكر ما كنا نتحدث عنه. على أي حال، لم يمر الكثير من الوقت قبل أن أخبره بأنني لا بد وأن أنطلق حتى لا أقود الطريق كله في الظلام.

أخرج أبي ورقة بعشرة ماركات من جيب الجاكيت ووضعها على المائدة، ثم أدخل يده مرة أخرى في جيبه وأعطاني شيئًا لينًا ملفوفًا بورق هدايا أخضر اللون.

- ألقِ نظرة عليها، إن أردت.

حاولتُ أن أنزع الشريط اللاصق بعناية حتى لا يتمزق ورق اللف.

- لقد صممتُ النقشة بنفسي.

قال لي عندما أمسكتُ بفوطة مطبخ، لونهما أزرق فاتح وفي وسطهما نجمة ثمانية بيضاء. كانت هناك لافتة مثبتة بأعلى المنشفة في مكان التعليق: د. "هانز راينهارت"، منزل ج، غرفة 209.

قال أبي:

- يحتاج المرء دومًا إلى شيء كهذا. المرء بحاجة دائمًا إلى أشياء عملية.

شكرته. دفع هو الحساب.

ساعدته على ارتداء المعطف. سألني إذا كان الشال الذي يرتديه في وضعه الصحيح. أشده قليلًا إلى الوسط. يعطيني ذراعه وننطلق. عندما كنت أرفع بصري كنت أرى عيونًا عديدة مسددة ناحيتي. بل إن النساء نبهن بعضهن إلينا، وكن يتبادلن الابتسام. حاولت أن أسير منتصب القامة. النادلة التي حيتنا في الدخول فتحت لنا الباب الداخلي. امرأتان كانتا تهمان بالدخول أمسكتا لنا بالباب المتأرجح وانتظرتا حتى نخرج. هما أيضًا ابتسمتا.

كان التاكسي ينتظر في الخارج أمام الرصيف. بإيماءة مني نزل السائق. قال أبي:

- مع السلامة يا "مارتين".

أحسستُ بذقنه على خدي الأيمن.

مستندًا بيده اليسرى إلى الباب المقابل لباب السائق رجع أبي إلى الوراء، ثم انهار على مقعده. رفع السائق قدميه. مددت ذراعي لألوح لأبي إذا التفت إلى الوراء. عندما أدار رأسه كانت السيارة قد تحركت، لكن ليس بالقدر الذي يسمح له برؤيتي.

سرت في الاتجاه الذي أتيت منه، ولم أرفع بصري إلا عندما تأكدت من أنه لا يوجد أحد يبتسم لي. دخلت كابينة تليفون واتصلت برقم "شتويبر"، وقلت له إن كل شيء سار على ما يرام، وإنني ربما أصل بين العاشرة والحادية عشرة مساءً.

صاح "شتويبر":

- رائع، نحن في الانتظار! العائلة كلها تنتظرك!

- إلى اللقاء، إذًا.

ثم صاحت زوجته في السماعة:

- ورحلة طيبة!

فردد "شتويبر":

- رحلة طيبة!

شكرته وضغطت السماعة على أذني متنصتا للأصوات في الخلفية.

- مع السلامة.

قال "شتويبر" ووضع السماعة.

اتصلتُ بـ"داني". كنت أرغب في التحدث مع "تينو". أرغب فقط في أن أقول له: "كيف حالك؟"؛ إلا أنني وضعت السماعة حتى قبل أن يرن أول جرس. يمكنني أن أتصل به غدًا بسعر أرخص من داخل المدينة. ذهبت إلى السيارة وخرجت من الموقف الضيق دون أن أرجع بالسيارة إلى الخلف.

اليوم أعرف أن حكاية أبي أسطورة متقنة مثل حكاية "شاول وبولس". بإمكان المرء أن يقرأ في سفر أعمال الرسل في العهد الجديد كيف يتحول أحد المُضطهِدين للمسيحيين إلى أعظم مبشِّر باسم المسيح، وإلى الرسول الذي نشر البشارة المفرحة في ربوع الأرض.

المنشفتان – كان أبي محقًّا في الأمر - معلقتان الآن بجانب البوتاجاز بحيث إنني عندما أستخدمهما لا أحتاج إلَّا إلى مد ذراعي.

(11)

امرأتان وطفل والوحش "فوكس" والفيل



"إدجار"، و"داني"، و"تينو" ينتقلون للعيش في شقة في عمارة جديدة. رائحة السجق المقلي. مصائب كبيرة وصغيرة. بقع على الفوتيه والكليم.

سمع "داني" تقول:

- "إدي"، يا إلهي، هذا العفريت!

استقام عود "إدي". كان غائصًا في الفوتيه ذي المساند العالية حول الرأس، فلم يظهر منه سوى حاجبيه. بدت المساند على رأسه كالخوذة العملاقة. مسألة توازن فحسب. أخذ زفيرًا بصوت مسموع. مساند الظهر تضغط الآن على كتفيه. من "تينو" تصدر أصوات: "أوخ!"

- "إدي"، لماذا؟ من فضلك ليس اليوم...

تحركت قدما "داني" على السجادة الحمراء القانية. بدا لـ"إدجار" أنها تلمس الفوتيه. تخيَّلها تميل ناحيته عبر مساند ذراع الفوتيه، ثم تمسك بوسطه

بكلتا يديها. تخيَّل أنهما يتبادلان القبل - دون أن يلاحظ "تينو" - ثم يتراقصان ببطء ويتمايلان يمينًا ويسارًا.

قالت "داني" لامسةً الطرف الأمامي للفوتيه:

- "إدي" قوي جدًّا.

ردًّا عليها، قفز "إدجار" في مكانه قفزتين صغيرتين، ثم تتبعها وانحنى في المكان الذي ظن أن المصباح موجودًا به. ودون أن يصطدم بشيء، تمكَّن من الوصول إلى الممر عبر الباب المفتوح. أشار بإصبع قدمه اليمنى إلى باطن قدمه اليسرى، وقال لها:

- اهرشي لي هنا.

همست "داني" وفتحت له باب الشقة:

- شكرًا.

قال لها دون أن يتحرك من مكانه:

- اهرشي لي من فضلك!

- هناك تيَّار هواء يا "إدي"، بسرعة لو سمحت...

انحنى مرة أخرى وخطا خطوة كبيرة فوق الدوَّاسة، المكتوب عليها بحروف سوداء كلمة "Welcome".

من أعلى سمعنا وقع أقدام. امرأة ترتدي فستانًا حتى الركبة. حاول "إدجار" أن يخمِّن عمرها من قدميها. ظلت تحيته معلقة بلا رد. على الدرجة الأخيرة من السُلَّم اجتازته ثم أمسكت له باب العمارة. قال لها:

- شكرًا.

لم يسمع ردًّا هذه المرة أيضًا.

باليمنى أخذ "إدجار" يتحسس جيوب قميصه وبنطلونه باحثًا عن مفاتيح السيارة. أخذ وضع القرفصاء، مُحنيا كتفيه ورأسه إلى أن لامست أرجل الفوتيه الأسفلت. استند على المساند واستقامت قامته سريعًا. إلا أن توزانه اختل ووقع إلى الأمام، هو والفوتيه، مصطدمًا بالضوء الخلفي الأيسر للسيارة الفورد ترانزيت.

اختفت المرأة. أخذ يهز المساند متثائبًا. كان الجو حارًّا رطبًا.

- وأين كان هذا؟

سأل "تينو" عندما دخل "إدجار" غرفة المعيشة.

قالت "داني":

- في "آلبيك"، على بحر البلطيق. هه، "إدي"؟ نحن فخورون بك. هل ما زال هناك مكان؟

أومأ لها "إدجار" أن نعم.

- والمفتاح؟

صاح "تينو":

- وهذا؟

- ماذا تقصد، يا كتكوت؟ الحمار؟

- هذا!

رفع "تينو" ألبوم الصور عاليًا، وقال:

- هذا.

- انتظر يا "إدي"، المفتاح – لا أعرف، يا كتكوتي، فعلًا لا أعرف – ربما في المطبخ؟

أمام الثلاجة كانت الأرض مبتلة. فَرَدَ "إدجار" منشفة على الأرض وأخذ يراقب كيف كوَّن الماء جزرًا، وكيف ظلت المنشفة ملتصقة بالأرض بعد أن أخذت شكل جزيرة "صقلية". جمع أطراف المنشفة، ثم حمل القماش المبلول إلى الحوض. كرر ذلك عدة مرات. ثم فتح باب الثلاجة غير المحكم الإغلاق. من الفريزر تدلت سلسلة المفاتيح السوداء.

في غرفة المعيشة حاول "إدجار" ألا ينظر في اتجاه "تينو".

- هل آخذ شيئًا معي؟

- هذه.

قالت "داني" مشيرة إلى كرتونة بجانبها.

- وعلبتين من أجل "فوكس".

- فكرة رائعة، فعلًا رائعة.

- إنه كلبه هو يا "إدي". عليه أن يقرر ماذا يفعل مع كلبه. "فوكس" يتعود الآن على بيئته الجديدة، ونحن ربحنا الهدوء هنا. الفكرة، في رأيي، جيدة.

انحنت "داني" أمام ظهر الدولاب، وفردت صحيفة قديمة، ثم فصلت صفحتين عن بعضهما البعض، وحشت بإحداهما كأس بيرة، ولفَّت بالأخرى الكأس من الخارج. بأطراف حذائه قرَّب "إدجار" صفحة من الجريدة. "الرغبة تقود إلى كارثة. الاستمناء تحت عجلة القيادة"، قرأ هذا العنوان تحت صورة سيارة نقل مقلوبة. عرض عليها الخبر القصير، ثم ضحك عندما ظن أنها استطاعت قراءته كله.

هتفت "داني":

- يا إلهي! من أين لهم أن يعرفوا ماذا.. أأأ.. أثناء السواقة؟

- موما، ماذا حدث؟

قلَّب "إدجار" الصفحة.

- ماذا يا كتكوتي؟

نظرت "داني" أمامها. بينما قال "إدجار":

- حادثة.

ظهرت عدة بقع حمراء واضحة على عنق "داني". أضاف "إدجار":

- حادثة في حديقة الحيوان. الفيل "ليو" استند إلى الحائط، بينما كان حارسه واقفًا في الطريق.

- صحيح يا موما؟

- لماذا لا تصدِّق "إدي"؟

انتزع "إدي" الورقة التي بها مقالة حديقة الحيوان وصنع منها طيارة. بذراع مرفوعة صوَّبها في اتجاه "تينو". انحدرت الطيارة ووقعت على البساط. في المحاولة الثانية هبطت أمام ألبوم الصور.

- هل ضربوا الفيل بالنار؟

- لا يا كتكوتي، فهو لم يكن يقصد ذلك.

- ثم ماذا حدث؟

قالت "داني" وهي تغلِّف كأس شمبانيا بالورق:

- سيقومون بمعالجة الحارس في المستشفى. عائلته وزملاؤه يزورونه هناك. وعندما يعود إلى العمل سيحييه الفيل "ليو" بباقة ورد في زلومته.

وضع "إدجار" ذقنه على كتفه مصدرًا صوتًا يشبه صوت البوق من فمه، ثم أخذ يحرك ذارعه اليمنى.

صاحت "داني":

- 19 مارس! كان ذلك يوم الجمعة! الجمعة 19. إذًا حدث ذلك يوم الخميس، أليس كذلك؟

راحت تتنقل بنظراتها بين "إدجار" و"تينو".

- هه، يا رجال، الخميس 18 مارس، ماذا حدث في ذلك اليوم؟ هل ما زلتما تتذكران؟ كتكوتي؟ "إدي"؟

صاح "إدي":

- آه.

- ها يا كتكوت، لا تتذكر؟ الحي الجنوبي، الحي الجنوبي، الشقة الجديدة هناك.

- عندما كنا نعد الشجر، كان الفيل يدهس حارسه.

- "إدي"، لا تتحدث هكذا!

- موما؟

- نعم كتكوتي.

"داني" تهز رأسها.

لا تقل يدهس.

تغلق "داني" الكرتونة، و"إدجار" ينظر إلى فتحة ثوبها عند الصدر.

- خلاص، يكفي اليوم.

قالت "داني" ونهضت، ثم تقدمتهم كي تفتح باب الشقة.

فَرمَل "إدجار". تحركت السيارة في اتجاه المحطة الرئيسة لأتوبيسات النقل العام، ثم توقفت أمام أحد الأكشاك. كانت المرأة الشقراء ترتدي جاكت يقي من

الريح ذا لونين: أحمر وأبيض. كانت تهم بطي حامل عليه صحيفة "بيلـد" ومجلـة "فوكـوس". لوحت له. أنزل "إدجار" زجاج النافذة، ثم صاح:

- انتهيت من شغل اليوم؟

- من زمان. هل "ركس" معك؟

- "فوكس"، اسمه "فوكس".

قال "إدجار" مجيبًا، ثم هبط من السيارة، وأضاف:

- صباح اليوم نقلناه في الغرفة الجنوبية الشرقية، حتى يتأقلم. هل ما زال لديك تورتة؟

- لم يكن لدينا اليوم. في مثل هذا الجو لا يأتي إلينا أحد. عندي شيء لـ...

أشارت برأسها ناحية عمود الإضاءة المعلق عليه كيس قماش، وفوقه علبة ملفوفة في ورق ألمونيوم.

- "فوكس"، ببساطة، "فوكس"..

- شيء لـ"فوكس"- "إدي"- "ركس"، أو أيًّا كان الاسم!

- "فوكس"، لأن الكلب من فصيلة "صياد الثعلب". أحدث باب الكشك المصنوع من شيش الحصيرة المعدني صلصلة عند إغلاقه.

عندما ركبت السيارة قال "إدجار":

- مرحبًا، "أوته". اليوم خبَّأ "تينو" سلسلة المفاتيح في الفريزر.

- ظننتُ أنه يسعد عندما تكون غير موجود.

وضعت اللفة ذات الـورق الألومينيـوم بجانـب فرملـة اليـد، ثـم أمسَـكَت بـاليسرى رأس الفتيس. شغَّل "إدجـار" المحـرك، ثـم داس عـلى بـدَّال التعشـيقة، بيـنما غـيرت هـي السرعـة. وانطلقا على هذا النحو.

باليمنى داعب رقبتها، ضغط بإبهامه تحت رقبة البلـوفر. فاحـت منهـا رائحـة البطـاطس المقلية وبارفان "زاباتيني" الذي أهداها إياه الأسبوع الماضي.

- صباح الغد نحتاج إلى السيارة، حتى الظهر. عندئذ يمكنكم أن تأخذوها مرة أخرى.

- حسنًا.

قال "إدجار"، ثم مال ناحيتها هامسًا:

- صغيرتي "أوته".

- و"تينكو"؟

- اسمه "تينو".. من غير ك.

- أنا أدعوه "تينكو".

- رعب، طوال اليوم رعب. مساء أمس داعبت كلبه.. لو كنتِ رأيتِ "تينوط عندئذٍ. الغيرة متجسدة، الكره الخالص. وهي بضميرها المُعَذَب إلى الأبد تقول له إنهـا كانـت تحبـه وهـو في بطن أمه!

- وكيف يناديك؟ عمي؟

- هو لا يتحدث معي.

- وكيف يناديها؟

- موما.

- ماما؟

- موما، ليس ماما. هي بالنسبة له موما.

- طيب، ولماذا تريد موما الآن أن تعيش معك؟ آخر محاولة؟

- يعني.. الآن بعد أن طردوها من عملها – من الأحسن لو دفعنا إيجار شقة واحدة. كما أن الشقة وسط الطبيعة الخضراء.

- الطبيعة الخضراء! لا أفهم أن تنتقل بكامل إرادتك إلى جنوب شرقي المدينة، وتترك هذه الشقة الجميلة! هل يعذبك ضميرك أو تحبها فعلًا، هه؟ تحب شعرها المجعد؟ ضميرك يؤنبك لأنها فُصلت بسببك.

- اتهمها رئيسها "باير" بالتجسس. أي أسرار نتجسس عليها؟ كانت "داني" محررة، لا علاقة لها بقسم الإعلانات.

- المرء لا يكوِّن علاقة مع محرر من صحيفة منافسة. القرار منطقي. المرة القادمة ستطير أنت أيضًا من صحيفتك المتواضعة.

- لا. أنا لا. "باير" كان مهووسًا بها، هذا هو كل شيء. وعندما لاحظ أنها عادت إليَّ.. مَثَّلَ دور عنتر زمانه.

- نعم؟

- عنتر زمانه. عمل فيها أبو علي.

- وماذا عن والد "تينكو"؟

- أنا عارف! أخوه "بِت" يقول إنه لا يفهم في تربية الأطفال، ولا يعرف كيف يتعامل معهم. على الأقل طالما كانوا صغارًا.

- الفوضى الكاملة عندكم.

سحبت يدها من فوق الفتيس، وأخرجت علبة سجائر من الكيس بين ركبتيها.

- لما عيل في هذه السن، يطق له عرق في نافوخه، فقل على كل شيء السلام. ليس أمامك غير أن تنجو بنفسك.

أشعلت سيجارتها ونفخت الدخان على حِجره. خلف غابة المدينة، في الموضع الذي يكومون فيه بقايا الأسفلت، حاد "إدجار" يمينا وتوقَّف. قال وهو يفتح البابين:

- هواء! والآن هناك مفاجأة.

- ماذا؟ هل أحضرت الوحش معك؟

وقفت بجانب "إدجار" الذي سألها:

- هل ترغبين في شيء غريب، أو رومانسي؟ الاختيار لكِ.

- وسجادة الصلاة؟

- الكليم؟

- بساطك السحري.

- ليس طريًّا.

عندما ركبت السيارة، شم "إدجار" رائحة البطاطس والبارفان مرة أخرى. أغلق الباب وراءها، ثم صعد هو من الباب الخلفي، وسحبه من الداخل.

- أتعرفين، أحيانًا أتخيل أنه بنت، أو ولد لطيف. أنا أحب الأطفال. لا أطلب إلا المعاملة العادلة، قليلًا من المساواة. لم نعد نفعل الآن سوى ما يريده، وإلا فلن نفعل أي شيء.

- قل لي، كيف أُدير هذا المقعد؟

كان مسند الظهر يصل إلى كتفيها. نزعت عن شعرها التوكة الحمراء، ثم انحنت إلى الأمام. على العلب الكرتونية وراءها برزت بحروف زرقاء كلمة

"عطش". زحزح "إدجار" الفوتيه يمينًا إلى جوار صندوق بلاستيكي مطوي، ثم خبط على مسند الذراع اليسرى. قال:

- هيا، تعالي!

بالسيجارة بين الشفتين وبعد أن خلعت البنطلون والحذاء جاءت إليه على أربع، ما زالت ترتدي قفازًا في كفها الأيمن.

- دائمًا هناك مشاكل.

قالت وهي تفتح سوستة الجاكت المقاوم للريح ذي اللونين الأحمر والأبيض.

تساءل "إدجار":

- وما هذا؟

- ماذا؟

- هذه المنشفة.

- للوحش. بالأمس.. السجادة..

- إنهم لا يعبؤون بأمرى.

ألقى "إدجار" المنشفة خلف الفوتيه، ثم خلع البنطلون ومعه الكلسون.

سألته "أوته":

- والآن؟

ارتكز "إدجار" على ركبتيه ومد ذراعيه، ممسكا أردافها بكلتا يديه، ثم قال مبتسمًا:

- باردة. باردة منعشة يا صغيرتي "أوته".

أطفأت سيجارتها في سقف السيارة، وأبقت إبهامها لوهلة على العقب. ثم ارتمت على الكنبة.

كانت السماء تمطر رذاذًا عندما وضع "إدجار" الجرادل البلاستيكية الزرقاء الثلاثة أمام باب المنزل. ببطء قاد السيارة الفورد حتى احتكت إطاراتها بحافة الرصيف. فتح الباب الخلفي، ثم قبض على مساند الكرسي ورفعه. في هذا الوضع – حافة الفوتيه الأمامية مسنودة على بطنه، ذراعاه على شكل زاوية قائمة، ومن الإجهاد يكاد يرتجف – سمع الكلب ينبح. على الرصيف ترك الفوتيه يتزحلق حتى ركبتيه.

- خلاص يا "فوكس"، خلاص!

وقف الكلب بقدميه الأماميتين في صندوق فارغ للزهور. في الطابق الأسفل تحركت الستائر. كان يعرف في أي طابق هو من خلال الدكك الموضوع عليها الزهور، والجداول المكتوب عليها مواعيد كنس السلم أو جمع القمامة. في الطابق الثاني، بين شقة "بارون" و"هانيش"، لم يكن هناك ما يعوقه. ولكن في سُلَّم الطابق الأعلى، وعلى مائدة من الخيزران كان هناك أصيصان بهما زنابق ورشاشة للنباتات من النحاس الأصفر مملوءة حتى الحافة. بالأمس أزاح بصندوق الأسطوانات ذراع الرشاشة الطويل. نزل الماء إلى قاع السلم وانساب حتى وصل إلى القبو.

تجاوزه "فوكس" على السُلَّم وأخذ يعوي. فتت "إدجار" قطعة سجق مقلي وطوح بها فوق الكلب ناحية مدخل الشقة. على عتبة غرفة المعيشة ظل "إدجار" واقفًا.

- ابن الكلب.

قال بصوتٍ خافت:

- كلب ابن كلب!

لم يكن هناك سوى الكليم ملفوفًا وموضوعًا بجانب الجدار. الكراتين والصناديق التي تحوي مواعين "إدجار" وشرائح الأفلام والأسطوانات والكتب كانت مرصوصة فوق بعضها البعض على البلكونة. قذفت الرياح بقطرات المطر على ألواح الزجاج.

مستندًا إلى الدرابزين انحنى "إدجار" إلى الأمام. صدر صرير عن صـندوق الزهـور الفـارغ عندما خبطه "إدجار" بقبضته. في الأسفل كان الفوتيه الرمادي يسد مدخل المنزل.

كان الكلب قد تتبعه رافعًا إليه عينيه، فأعطاه "إدجـار" بقايـا السـجق المقـلي، ثـم دخـل بسرعة إلى الحجرة، وأغلق باب البلكونة، وفتحه على الوضع المائل. قضم مـن قطعـة السـجق التالية، ثم لفظها في كفه، وأخذ نفسًا عميقًا منتظرًا أن ينظر إليه الكلب ثـم رمـى بهـا خـارج الغرفة. أخذ الكلب يتشمم أثر السجق المقـلي، كـما تفعـل الكـلاب في عـروض السـيرك، وراح يدور ويلف حول الكراتين والصناديق، لكنه لم يبتعد بالقدر الكافي حتى يجدها، مع أن معظم قطع السجق وقعت على النجيلة، ثلاثة طوابق حتى الأسفل.

أغلق "إدجار" باب الشقة خلفه. في الأسفل فتح ورقة الألومينيوم التي تحوي ما تبقى من السجق، وجمع فيها القطع الأخرى المتناثرة، ثم وضع كل شيء على العشب أمام البلكونات.

- هيا يا "فوكسط، هيا!

نبح الكلـب واختفـى، ثـم ظهـر خلـف حـاجز البلكونـة، وقـدماه الأماميتـان في صـندوق الزهور.

- هيا يا "فوكس"، انزل، هيا انزل!

شدد "إدجار" في النطق على كل حرف مثلما يفعل "تينو". على البلكونات الأخـرى كانـت هناك نباتات وشمسيات وهوائيات. ازداد المطر غزارة. مرقت سيارة نقل صغيرة وهي تزمِّر.

- "فوكس"!

صاح "إدجار" في غضب.

سار إلى الفوتيه الذي اغمق لونه بفعل المطر، وسحبه إلى البيت. لم تعد البقعة على حافة مكان الجلوس تلفت النظر. بهدوء وضعه في غرفة المعيشة.

رأى "إدجار" "فوكس" يمد رأسه بين الصناديق، ثم يبعدها وهو يهز ذيله وكأنه تعرف على شيء. استدار الكلب استدارة كاملة في انفعال.

أمسك "إدجار" بباب البلكونة بيمناه ويسراه، وأغلق عينيه محاولًا التركيز، ثم أغلق باب البلكونة بقوة. ما زال "فوكس" يقف على الصناديق. سمع "إدجار" الجرس يدق، وعلى الفور تكة الباب وهو ينفتح. وقف "فوكس" على قدميه الخلفيتين ومد كفوفه الأمامية على زجاج الباب. تركه "إدجار" يدخل.

- "إدي"، يا حبيبي. أنت نسيت كل شيء.

في كل يد أمسكت "داني" بعلبة عليها تيكيت بنفسجي فاتح اللون، وكأنها ترفع أثقالًا.

- طعام الكلب!

ربت "إدجار" على "فوكس" من الجانبين.

- مبلول. كل شيء مبلول. مبلول!

ظلت نبرات صوته هادئة وكأنه يتحدث إلى الكلب. ذهب إلى البلكونة مُحضرًا صندوقًا لونه أصفر وأزرق.

- كل شيء مبلول!

التف "إدجار" حول "داني"، ووضع الصندوق ثم عاد أدراجه.

صاحت "داني" وهي تتبعه إلى الشرفة:

- متأسفة يا حبيبي! طوال الأسبوع لم تمطر!

- أفكاركم دائمًا رائعة!

- نحن.. عندما يحضرون الأثاث غدًا.. أنا يا "إدي".. وإلا فالفوضى ستكون شاملة..

تنحت "داني" جانبًا حتى يمر، ثم أخذت صندوقًا ومشت وراءه ووضعته فوق الصندوقين الآخرين. عندئذ كان "إدجار" قد خرج.

- هنا.

قال وظل واقفًا. مخالب "فوكس" لم تترك آثارها على ظهر الكتاب فحسب، بل تسببت أيضًا في ثقوب صغيرة قذرة في الصفحات. هزت "داني" رأسها. جلس "إدجار" على الفوتيه المبلول، فقفز "فوكس" إلى حجره.

سألته "داني":

- هل تريد بيتزا؟

جلست "داني" على الكليم المطوي. بحثت في كمها الأيسر عن منديل. اتكأ "إدجار" بحذر إلى الوراء، ثم قال:

- عندما يهدأ المطر، سنحمل بقية الأشياء إلى أعلى.

تمخطت "داني"، وقالت:

- غدًا في مثل هذا الوقت سيكون كل شيء قد انتهى.

قال مداعبًا الكلب:

- بعد غد. "**أثاثي أنا**" سيصل بعد غد!

أغلق "فوكس" عينيه و"إدجار" يداعبه.

- سنساعدك بالطبع يا "إدي". وسنأخذ "فوكس" معنا اليوم، موافق يا "إدي"؟

أدخلت "داني" المنديل في جيب البنطلون وسألته:

- هل تشم؟

- الكلب مبتل.

- لا، تفوح منه رائحة بطاطس مقلية أو شيء مشابه.

- اشتريت له سجقًا مقليًّا.

- يا دي النيلة! ذلك الخنزير، انظر، الكليم! لقد تبول على الكليم.

قفزت "داني" ثم فردت الكليم. رد "إدجار" بهدوء:

- كان وحده افترى أطول من اللازم. لقد نبح في كل أرجاء المنزل.

- يا دي النيلة، يا دي النيلة!

جرت "داني" إلى الحمام، وعادت بجردل بلاستيكي أزرق ممتلئ بالماء.

- أم أنه تقيأ؟

وضع "إدجار" ساعديه ويديه الآن على مساند الفوتيه. سمع صوت إغلاق نافذة قريبة. ومن السُلَّم تناهت إلى سمعهم وقع خطوات صاعدة، ثم توقفت على البسطة.

- إدي؟

رفعت "داني" رأسها.

- "إدي"؟

ووقفت على ركبتيها قائلة:

- يا إلهي، هل تشعر بهذا يا "إدي"؟

رد عليها قائلًا:

- ماكينة تجفيف الملابس. جيراننا فوقنا يجففون ملابسهم.

- تجفيف؟

عصرت "داني" الخرقة، وأخـذت تحـك البقعـة المبلولـة بالخرقـة ثـم بظفـر إبهامهـا. بـاب الجيران ينغلق. راح "فوكس" يضـغط بقدميـه الأمـاميتين عـلى بطـن "إدجـار". ومـن الجـردل تصاعد مرة أخرى صوت خرير الماء. سألته "داني":

- وماذا فعلت هنا طوال هذا الوقت؟

- كان لا بد أن أخرج مع الكلب. فضحني بنباحه في كل أرجاء المنزل.

شعر بقميصه المبلول البارد ملتصقًا بظهره.

- مات الحارس.

نظرت إليه متسائلة:

- ماذا؟ رجل الفيل؟

رجع "إدجار" برأسه إلى الوراء عندما حاول "فوكس" أن يلعق رقبته.

- حدث هذا بسرعة شديدة، ربما في الليلة نفسها. "ليو" داس على جزء من جسـمه. يقـال إنهم رؤوا البقايا في الرمل، بعد ذلك، بعد أن نقلوه.

- هذا فظيع.

قالت "داني" ثم انحنت إلى الأمام مرة أخرى وتمعنت في الكليم.

- أعتقد أنه قيء.

رجـع "إدجـار" برأسـه إلى الـوراء مغلقًـا عينيـه و"فـوكس" يلحـس وجهـه. توقفـت آلـة التجفيف، وفي الخارج ران صمت لم يعكره مرور سيارة واحدة. لهـذا لم يعـد يسـمع إلا حكـة إبهامها وقطرات المطر.

(12)

القتلة



"بيتر مويرر" و"إدجار كورنر" يقابلان في متجر "جنة الأثاث" منافسهما "كريستيان باير"

السكرتيرة "ماريانا شوبرت" تقدم المشروبات للمنتظرين.

في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة.

شخص يدق على الباب. في اللحظة نفسها يدخل شابان المتجر. كل منهما يرتدي جاكتة وكرافتة وحذاءً بنيًّا فاتحًا. حركاتهما رياضية رشيقة. الأيدي خالية. يظلان واقفين متجاورين وسط المدخل. فوقهما تدور أجنحة مروحة.

- أي خدمة؟

تسأل السكرتيرة. شعرها قصير رمادي، وفي يدها دبلة زواج عريضة.

- خدمة؟

يشبك "إدجار" يديه خلف ظهره هازًّا جذعه إلى الأمام.

- أي خدمة تريد يا "بيتر"؟

- لا أعرف. في الحقيقة لا أعرف ماذا أريد. ربما كأسًا من بيرة القمح؟

- مع شريحة ليمون؟

- مع شريحة ليمون.

يعبث "بيتر" بدبوس الكرافتة ثم يرسل بصره إلى النظارة ذات السلسلة الفضية الرقيقة التي تتدلى على صدر السكرتيرة.

- أعتقد..

يقول "إدجار" وهو ينظر يسارًا:

- إننا نريد نفس ما يريده السيد الجالس هناك.

"باير" – الذي كان يمسك بفنجان كبير في يديه – لا يحرك ساكنًا.

- كان من المفترض أن نأتي قبل السادسة، وهي الآن السادسة إلا الربع.

قال "بيتر" وهو يومئ إلى الساعة المعلقة خلف السكرتيرة:

- أهو موجود؟

- الساعة الآن ونصف.

أجابت دون أن تستدير مشيرة إلى صف الكراسي أمام النوافذ التي يمكن للمرء عبرها أن يرى خيمة البيع. بكلتا يديها تضع النظارة على أرنبة أنفها، وتمر بعينيها سريعًا فوق الورقة الموضوعة على يمينها، ثم تبعدها قليلًا وتشرع في الكتابة.

- هل من الممكن أن تقولي لي ما إذا كان موجودًا، أم أن هذا طلب فوق طاقتك؟

- مرت نصف ساعة يا "بيتر"، معها حق، هيا.

- أريد إجابة. لدينا موعد، وجئنا في الموعد، قبل الموعد. إذًا من حقـي يـا "إدي" أن أسـأل إذا كان موجودًا؟

- هل قال متى سيأتي؟

- إذا كان لديكم موعدًا.

ترفع السكرتيرة بصرها من على الورقة دون أن تتوقف عن الكتابـة، ثـم تمـر بظهـر يـدها على الأجندة المفتوحة.

- لا أرى موعدًا هنا.

يسأل "بيتر":

- إذًا فهو ليس موجودًا؟

ثم يشير "إدي" إلى "باير" ويتساءل:

- هل لديكم قهوة هنا؟ أو أنه أحضر قهوته معه؟

- اسأليه متى يتعين عليه تسـليم الصـحيفة للطبـع. اسـأليه. الوقـت سرقهـم مـرة أخـرى. وكالمعتاد سيكون شغلهم مثل سلق البيض. الوقت دائمًا ضيق عند السيد "باير" يوم الجمعة.

نهضت السكرتيرة. الفناجين والملاعق تصطك ببعضـها الـبعض. مـا زال "بـاير" جالسًـا بـلا حـراك وكأنه يراقب من خلال النافذة المفتوحة الناس المتزاحمين في الممرات بين الفوتيات والموائد والمقاعـد بأشكالها المختلفة. عند خزينة الهدايا تكوَّن طابورًا. ترتدي البائعات معـاطف حمـراء، وعـلى الصـدر

مشـبك أبـيض مكتـوب عليـه: السـيدة..، ثـم الاسـم العـائلي، و"تقـوم بخـدمتكم". أمَّـا مشـبك المتدربات فليس عليه إلا الاسم الأول، مثلا "آنا" أو "يوليا" أو "سوزانا".

- قهوة بسكر وحليب؟

- اثنان قهوة بالحليب.

يقول "إدي" ثم يجلس أمام باير عند حافة النافذة.

- هيا، تعال يا "بيتر".

- أنا جوعان يا "إدي". التدخين ممنوع هنا.

يشير "بيتر" إلى اللافتة على الباب.

- على الأقل أود أن آكل شيئًا. أم أن قسم الحماية من الحريق سيغض الطرف إذا دخنت؟

وقفت السكرتيرة في تلك اللحظة أمامهما قائلة:

- لا، لن يغض الطرف.

بحذر يتناول "بيتر" و"إدجار" الفنجانين الممتلئين من الصينية.

- أمَّا المروحة فلا تسبب لقسم الحريق أي إزعاج؟

يتساءل "بيتر".

- في مثل هذا المطبخ الصغير؟ على كل حال، شكرًا وفي صحتك!

يقول "إدي":

- في صحة قسم الأمن الصناعي.

تسند السكرتيرة الصينية على المكتب. يضع "بيتر" فنجانه على إحدى ركبتيه ويمسكه بيـد، ثم يشير إلى المروحة باليد الأخرى قائلًا:

- الكل يحب الهواء المنعش. والمنافسة تنعش التجارة. مضبوط يا سيد "باير"؟

- يا إلهي! الجو حار للغاية.

يضع "إدي" فنجانه بين قدميه على السجادة الرمادية.

- لا يستطيع إنسان أن ينتظر كل هذا الوقت. هـذا يـدمر التجـارة. أم أن هـذا لا ينطبـق عليك، يا سيد "باير"؟

- كان من نصيبه كالمعتاد أكبر فنجان.

- في العجلة الندامة. وفي التأني السلامة. مشكلتنا يا "بيتر" أن لدينا زبائن كثيرين، أكثر مما يجب. هذه هي المشكلة.

- هذا دون حساب فترات التخفيض على الأسعار.

- أتعرف ماذا قال السيد "باير" عنك؟

- هل يتحدثون عني؟

- قال إن "بيتر" عنده مقشة في مؤخرته.

- مقشة؟

- لأنك تقش كل الإعلانات. أينما ذهبت لا تترك إعلانًا واحدًا لغيرك. أنت قشاش.

- مقشة في المؤخرة؟

- أنت تكنس كل شيء، هكذا قال. ولكن بعد أن قال مقشة.

- عموما يا "إدي"، الحقيقة دائمًا مفزعة، أليس كذلك؟

- صحيح. وبصراحة عنده حق يـا "بيـتر". أتتـذكر كيـف كنسـت كـل شيء عنـد "هـولتس شميت"؟ في البداية ترك مستر "باير" يعزمه على العشاء – ولكنه وقَّع العقد معك أنت.

- الحال يتدهور عند شركة "باير".

- لا تفشِ الأسرار **كلها** يا "بيتر".

- هل أتحدث أكثر مما يجب؟

- إنه في نهاية الأمر منافس لنا.

- والمنافس يُنعش التجارة، يا "إدي"، مثلنا.

- لكنه يأخذ الأمور على محمل شخصي.

- هذا ما لفت نظري أيضًا...

- "بيتر"!

- كنت أريد أن أقول إن لون "ماجناتا" ليس ورديًا ولا أحمر دمويًّا ولا برتقاليًّا. "ماجناتا" هو "ماجناتا". هكذا قال لنا السيد "كرافتشيك". السيد "كرافتشيك" من متجر "كرافتشيك للوازم البناء". وعندما يقول السيد "كرافتشيك" "ماجناتا"، فإنه يعني "ماجناتا". إنه لا يعني اللون الوردي أو الأحمر الدموي أو البرتقالي. أمَّا إذا اختلط اللون الأصفر، فإن السيد "كرافتشيك" يكون حزينًا، في غاية الحزن.

- أنت تعني إذًا يا "بيتر" – وحتى نهدئ النفوس - أن الموضوع ليس موضوع أسعار؟

- أريد أن أقول إنه إما أن الأغلفة البلاستيكية عند "آل باير" لم تلصق جيدًا، أو أنها عند النقل قد تزحزحت عن مكانها، أو أن المطبعة مهملة في عملها. على المرء إذًا ألا يندهش. فليبرم ما شاء من عقود.. لن يفلح.. هذا ما أردت قوله.

- مجموعة من النصائح الجيدة..

- ما أكثر ما يخطر على بالي من نصائح الجيدة!

- كفى يا "بيتر"! أراهن أنك لن تسمع حتى كلمة شكر، كلمة شكر واحدة. أم أني مخطئ يا سيد "باير"؟ هه، ما رأيك؟

- لسنا من المتذمرين دائمي الشكوى. كل ما نقوله نقد بنَّاء.

- مثلما كتبت أنت يا سيد "باير". على الإنسان أن يعرض الحقيقة على الناس مثل ثوب جميل، لا أن يقذف بها مثل خرقة. لهذا يشعر دائمًا بالتعاطف عندما يفصل أحدًا من عمله. على الأقل هذا ما تقوله "داني". إنه يستطيع أن يشارك الآخرين مشاركة وجدانية عميقة. لهذا قصصت عمودك يوم الأحد. لقد أعجبنا جميعًا، أليس كذلك يا "بيتر"؟

- هل تعرفين يا مدام..

يقول "إدي":

- مدام "شوبرت"، "ماريانا شوبرت".

- هل تعرفين يا مدام "شوبرت" أن السيد "باير" يكتب بنفسه؟

- مساء الخير، أنا أتكلم معكِ!

- دعها في حالها يا "بيتر".

- كلهم هنا يكشفون أمرنا.

- هل تريد أن تقول إن عينيه تكشفان كل شيء؟

- ليس إلى هذه الدرجة.

يرتشف "بيتر" من فنجانه، ثم يضيف:

- أشعر بالجوع. وإذا توقفت عن الكلام سأشعر بالجوع أكثر.

- لا بد أن نفعل شيئًا تجاه هذا الإحساس. أنت تستحق ذلك.

- لو كانت الدنيا تسير بالعدل..

- سأحضر لك شيئًا.. لأن اليوم هو الجمعة، ولأنك مرغم على العيش بمقشة في مؤخرتك. ولأنه ليس هناك شخص واحد يشكرك على ما فعلته.

- أنت طيب يا "إدي"، وكريم معي.

- إلى أن أعود، احكِ لهم بعض النكات.. حتى يتلطف الجو قليلًا.

يغلق "إدجار" أزرار الجاكت وهو ينهض. يلوح "بيتر" في اتجاهه، ثم يتناول جرعة ثانية ويضع الفنجان بجانب الآخر على الأرض.

- أعتقد..

يقول ناظرًا إلى السكرتيرة:

- أعتقد أن علينا اختصار كل ذلك.

يسحب مظروفًا من الجيب الداخلي ويستخدمه كمروحة ساندًا ذراعيه على ركبتيه.

- سأعطيك الآن هذا.

تحرك السكرتيرة قدمها اليسرى خلف رجِل الكرسي الدوار. بجانبها علبة فارغة من مشروب القهوة وبها شفاطة، والغلاف البلاستيكي لقطعة سجق.

- فليستغرق ما يشاء من وقت حتى يقرأ هذا.

يضيف "بيتر":

- فليأخذ وقتًا طويلًا، ويقرؤه بهدوء وراحة بال. لا داع للاستعجال. وأنت، يا سعادة المدير، سيكون عندك وقت أكثر.

يتكئ "باير" إلى الخلف. لبرهة تتلاقى نظراتهما.

- الكنس نهائي هذه المرة.

يقول "بيتر" رافعًا حاجبية لأعلى، ثم ينهض ويذهب إلى المكتب حاملًا المظروف على كلتا راحتيه.

- يبدو مثل الشيك. مئات الآلاف. مبلغ يمكن ادخاره، وربما يكون المبلغ أكبر، تفضلي.

- ضعه إذًا على المكتب.

توقفت السكرتيرة عن الكتابة. ظهرها مستقيم كالسهم. يسلمها "بيتر" المظروف ثم يستدير.

- والآن، حول أي شيء نتحدث يا مستر "باير"؟

من الخارج يرتطم شيء بالباب.

- خضراوات على الطريقة الصينية أم سجق بالكاري؟

- ولصديقنا "كريستيان" لم تحضر شيئًا؟

- هه؟ هل رفعتما الكلفة بينكما؟

يتناول "بيتر" طبق السجق ويشرع في الأكل قائلًا:

- قبل قليل تعطَّفَ عليَّ بنظرة.

- غير معقول!

تضع السكرتيرة المظروف في ملف وتذهب إلى حجرة المدير العام. تترك الباب مواربًا.

- عندما يرى الواحد كيف تأكل يا "بيتر"! كيف تمسح الطبق مسحًا!.. حتى لو لم أكن جائعًا..

- العين تأكل مع الفم.

- بالضبط.

- قلت له إنـه يضـيع وقتـه هنـا، وإننـا سـنريحه مـن العمـل، ولهـذا يمكنـه أن يسـترخي ويستجم ويستمتع بعطلة نهاية الأسبوع.

- بينما نكنس نحن المنطقة يا "بيتر".

- حتى لا يقول أحد إننا لم نحذره.

- بالضبط. نحن نلعب بأوراق مكشوفة. لا أسرار لدينا.

- طبعًا لدينا أسرار!

يمسح "بيتر" بإبهامه تحت أنفه.

- 30 سنة، شعر مجعد، هكذا وقفت أمامه.. هل يمكنك أن..

ويشير بإصبعه الصغير المنفرج تجاه جيبه. يسحب "إدي" منديلًا ورقيًّا مكرمشًا.

- دائمًا عندما يكون الطعام لذيذًا.

يقول "بيتر" ويتمخط. ثم يمر ببقايا الخبز على صلصة الكاري، ويضع الطبق الـورقي عـلى فنجانه، ثم يتمخط مرة أخرى.

- من الممكن يا مستر "باير" أن تقول لـ"ماريانا" إننا سنريك الآن عرض أكتافنا.

- أو بالأحرى قفانا يا "بيتر"، نعم قفانا.

ينهضان.

- على كل حال سنُخلي لكما الجو.

يشير "بيتر" بإصبعه وكأنه ينادي خادمًا.

- ما أحلى أن يسكر الإنسان حتى يصبح طينة! لا تعودا قبل الفجر! اشتريا راديو وارقصـا، كنوع من التمرينات الرياضية في فترة الاستراحة من العمل.

- "كريستيان" لا ينعم علينا حتى بنظرة واحدة!

- في أي شيء يفكر "كريستيان" الآن؟ من مظهره أقول:

- شكرًا جزيلًا على القهوة يا مدام "شوبرت".

يصيح "إدي" ويومئ برأسه إلى "بيتر".

- شكرًا جزيلًا يا مدام "شوبرت"، وأتمنى لكِ نهاية أسبوع سعيدة!

- أتمنى لكِ ذلك أنا أيضًا.

يقول "إدي" ثم يخبط بإصبعين على فوده كتحية.

الباب الجرَّار ينغلق في حجرة المدير العام. "باير" يروح ويجيء، ثم يتوقف أمام الشيش الحصيرة. يصيح:

- غير معقول.. السادسة وعشر دقائق.

تدخل السكرتيرة ثم تضع ورقة بيضاء في الآلة الكاتبة، وتضغط على أحد الأزرار.

- لن تكون الأول الذي ينساه.

- الدعاية جيدة، أليس كذلك؟

يراقب "باير" كيف تسحب السكرتيرة الورقة إلى أسفل. تضع رشاشة نباتات صغيرة في حوض غسيل المواعين. عندما فتحت الصنبور أصاب تيار الماء الفتحة بالضبط. تذهب إلى أصص نبات "الفيلودندرون" المتسلق، وترفعها.

يقول "باير":

- يقولون إن الأفضل أن ترشي الماء بين الأحجار في الأصيص.

توقف أزيز الآلة الكاتبة. واختفت الورقة.

- اعتقدت أنها ليست حقيقية.

يقول "باير" مشيراً إلى الأصص:

- إنهم يقلدون اللبلاب بطريقة بارعة.. إذا لم يرَ أحد الإبر السوداء في الأصيص، لن يخطر على باله أنها من البلاستيك.

تعاود السكرتيرة ملء الرشاشة.

- هل تعرفين أحدًا اسمه "كورنر"؟

يسألها "باير" عائدًا إلى كرسيه. تتطاير خصلات شعره فوق جبهته بفعل تيار الهواء من مروحة السقف.

- هل تعرفين ماذا كان "كورنر" يعمل، ماذا كان يعمل حتى نوفمبر 1989، "إدجار كورنر"؟

- أنا لا أحفظ أسماء.

- لم تقرئي جريدة أبدًا، في السابق؟ مَن يوظف شخصا.. الجميع يعلم من هو! ذكي، ويُشترى! عندما عرفته كان لا يرتدي إلا القميص الأزرق، زي فرق الشبيبة الاشتراكية.

- سأقفل المكتب الآن.

قالت وهي تضع الرشاشة الممتلئة بجانب الأصص، ثم تسحب ورقة نبات انحشرت بين رقائق شيش الحصيرة، قبل أن تغلق الشيش.

- هل نطبع الإعلان القديم؟

- كله إلا هذا!

يحاول "باير" أن يضحك.

- لم يكن من المفروض أن تكون هنا، خصوصًا يوم الثلاثاء. ألا يقرأ أحد عنـدكم البروفـات قبل الطبع؟

تجلس السكرتيرة إلى مكتبها، وتفتح ملفًـا مخصصًـا لـلأوراق التـي سـيوقع عليهـا المـدير، وتضع فيه الورقة التي سحبتها من الآلة.

- اعتقد الناس أننا نخدعهم كي نجذبهم إلينا.

- ألم تقولي له إننا لن نحسب ثمن الإعلان؟

- أنت رجل طيب.. لن تحسبوا ثمن الإعلان. إذا استلمنا إنذارًا بالدفع، فسوف أرسله لكـم فورًا.

- هل عنده تليفون في السيارة؟

- عنده. اتصل به إذا كنت تعرف الرقم. أنا لا أعرفه.

تغطي الآلة الكاتبة وتشد أطراف الغطاء.

- ولكن لا بد أن نطبع شيئًا.

ينحني "باير" تجاه الفنجانين الموضوع فوقهما الطبقان الورقيان.

- كنت أريد أن أعرض عليه 5% خصمًا، على كل شيء.

- إذا لم يجئ اليوم، فلن يجيئ قبل يوم الخميس. اكتب له رسالة.

تضع السكرتيرة حامل الأختام في الدرج وتقفله.

- أُفضِّل التحدث معه شخصيًّا.. تتصلين بي عندما يعود؟

يظل "باير" واقفًا أمام المكتب وفي يديه الفناجين. تقول:

- لا بد أن أذهب الآن.

ثم تنحني لالتقاط الأطباق الورقية التي وقعت.

- آسف، الهواء.

يقول مشيراً إلى المروحة.

- ألا تستطيعين أن تتصلي بي، أقصد عمومًا، الأسبوع القادم عندما يعود.

- لن أكون هنا.. بقية هذا العام. لا أعرف متى سأعود.

- لا أفهم. هل قام بـ...

- ستُجرى لي عملية جراحية.

ترمي الأطباق الورقية في سلة المهملات.

- تسمحين لي؟

بحذر يضع "باير" الفنجانين في الحوض.

تفتح الصنبور وتمسح الحواف وأذن الفنجان بالوجه الخشن من إسفنجة غسيل المواعين.

- سأكتب له أننا لم نعرف ماذا نفعل، لهذا كررنا الإعلان، كررناه بعد إدخال التصحيحات عليه. هنا صينية أخرى.

ينحني "باير".

- هناك.

بإيماءة تشير له إلى المائدة أمامه.

- أعطني فنجانك.

"باير: يُنحِّي جانبًا الشريط اللاصق ودبابيس المكتب وقلم الفلوماستر البرتقالي اللون وممحاة خضراء على شكل سيارة فولكس فاجن، مُخليًا بذلك مكانًا لوضع الصينية. عندئذ يحمل فنجانه إلى الحوض.

- هل أجفف الفنجانين؟

- يمكنك أن توقف المروحة - الزر خلفك.

- نعم.

أكمل "باير":

- سأكتب له. أعتقد أن هذا ما سنفعله.

يضغط على زر المروحة ثم يجلس ويسحب حقيبة أوراقه من تحت الكرسي ويضعها على ركبتيه، ثم يأخذ منها قلمًا ودفترًا. يشرع في الكتابة وهو منحنٍ قليلًا إلى الأمام.

أثناء قيامها بالتجفيف ووضع الفناجين على الصينية راحت السكرتيرة تراقبه. أصابع يده اليسرى ترقد متلاصقة على حافة الحقيبة بينما كان الإبهام يضغط على الورقة حتى لا تتحرك. بسرعة كان يكتب سطرًا يليه سطرًا. وفجأة تتوقف يده اليمنى عن الكتابة، ويتجه بصره إلى السقف.

رغم أن "ماريانا شوبرت" كانت تراقبه جيدًا، لم تعرف ما إذا كان قد انتبه إلى اللفات الأخيرة لمروحة السقف. أدهشها كيف بدا "باير" شابًّا فجأة، وكأنه طالب صغير السن ما زالت الحياة بأكملها أمامه.



(13)

تستطيعين الآن



"ماريانا شوبرت" تحكي عن "هَني". صعوبات عند النوم، اتهامات ونداءات جذابة. يتحسن مزاج "ماريانا شوبرت" لإدراكها أمرًا مهمًّا.

- اعتقدتُ في البداية أن الصفارة مصدرها رجل يحاول أن يمسك قطة – تقريبًا هكذا...

ترفع "هَني" رأسها وتصفِّر، ثم تحاول مرة أخرى بعنق ممدود وصدر بارز.

- نعم، هكذا تقريبًا. يعني إشارة تحذيرية. في البداية يعتقد المرء أنها عادية.

ترتشف من كأس النبيذ. أساورها الفضية تنحدر من معصمها إلى ذراعها.

- كنت أرقد مستيقظة، أسمع الصفارة وأتأمل الوحمة على ظهر "دتليف" وأتخيلها على شكل نجوم السماء. حول الفندق – في الحقيقة لم يكن فندقًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، يمكن أن نسميه نُزلًا للعمال، لكنهم يطلقون عليه فندقًا – أربعة أسرة في كل حجرة. في الخارج أزيز المراوح والثلاجات، ثم هدير

السيارت، وضجيج الناس الذين كانوا يتشاجرون أو يضحكون، كلهم ليسوا ألمانًا – أعمدة النور في الشارع أمام شباكنا تمامًا. أمَّا أسوأ شيء، وكما قلت، فهو هذا الصوت الذي يصدر من الطابق الأسفل بلا انقطاع: "بو- بوبوبوبوبو بوم بوم".

"هَني" تضرب الهواء بحافة كفها على الإيقاع: "بوبوبوبو – بوبو بوم بوم". تضع الكأس ثم تشعل سيجارة.

- على كتف "دتليف" الأيسر رأيت نجوم "الدب الأكبر"، وبجانبها، على العمود الفقري، مجموعة "كاسيوبيا". نجوم "العربة الصغيرة" كانت معلقة بعجلتها الأمامية أمام فلقة المؤخرة. لا بد من الغش قليلًا حتى أرى النجوم كما أتخيلها. فإما أن تكون يد العربة أقصر من اللازم، أي نجم "الأوريون"، أو أطول من اللازم.

إذا دخل "دتليف" الحمام أولًا ورقدت على السرير في انتظاره، فعندما أرجع أنا من الحمام أجده قد استغرق في النوم. كان الجو حارًا جدًّا، وبجانبه لم أكن أستطيع أن أتحرك.

تسحب "هَني" نفسًا من سيجارتها، ثم تنفخ الدخان تحت المصباح.

- كنت أفكِّر في أن أرقد على السرير المجاور وأضع المنشفة على الوسادة والملاءة. لن تنتقل إليَّ العدوى، هكذا قلت لنفسي – كلهم ألمان، كلهم منا، طبعًا كانوا يحصلون على أجر لا يزيد عن الأجر الذي يدفعونه للأتراك... لا يستطيع الحارس أن يتحدث مع الآخرين مجرد التحدث... ثم فجأة سمعت صوتًا: تشوك تشوك شوك شوك شوك!

تمد "هَني" رقبتها مرة أخرى:

- تشوك شوك شوك...

ثم تصمت قبل أن تبدأ مرة أخرى. كانت قد شربت كثيرًا وتـتصرف وكأننـا وحـدنا، وكـأن كل الشقة لنا، كل البيت. الشمعات الثلاث احترقت عن آخرها.

- ولكن الصوت كان بالطبع مختلفًا.

قالت "هَني" ثم وضعت كفها على فتحة الفستان.

- كان صوتًا أخنف، ومنغمًا في الوقت نفسه، لغـة باطنيـة، شيء لا أسـتطيع تقليـده. أيـن هي؟

تتلفت حولها والسيجارة في وضع عمودي فوق طبق الفنجان الموضوع عليه الساندويتش المقضوم. أذهب إلى الحوض وأجفف منفضة السجائر.

- شكرًا. تقول عندما قدمتها إليها.

- فوجئت، فوجئت تمامًا عندما عرفت أن الصوت كان صوتًا نسائيًا، صـوتًا رائعًـا. نسـيت أن أذكر لك ذلك، يا "ماريانتي"، صوت من طبقة "الألـت"، هـادئ، يصـدر دون أي جهـد. ثـم سـاد الضجيج مرة أخرى، بوبوبوبو – بوبو بوم بوم.

- الحمام خالٍ.

أقول لها عندما مر "ديتر" بباب المطبخ. لكن "هَني" لا تسمعني. ينطفئ نور الممر.

- كنت إذًا راقدة على سرير غير سريري. الملاءة تحتي باردة منعشة. كل مـا سـمعته كـان ذلك الصوت: بوبوبوبو – بوبو بوم بوم.

- بعد إذنك لحظة.

أقول لها وأنهض.

- آه، طبعًا.

تقول "هَني" مبتسمة، وتنفخ الدخان ناحيتي.

- "ديتر"..

أنادي وأنا أغلق باب حجرة النوم خلفي.

يشير إلى المنبه.

- هل تعرفين كم الساعة الآن؟ بعد الواحدة، انظري، بعد الواحدة!

احمرَّ وجهه تمامًا عندما صرخ قائلًا:

- المرأة المجنونة لا تتوقف عن الرغي، صدَّعتنا! أفسدت علينا يوم الأحد كله، ويوم الأحد هذا بالذات! أنت لم تجهزي شنطك حتى الآن.

قلت وأنا أجلس على السرير:

- أعرف. ربما تحتاج إلى من يسمعها.

- لكنها لا تريد أن تعرف كيف حالك أنت؟ أم أن سكرتيرة في محل أثاث ليست من مقامها؟

- لقد سألَت عمَّن أكون.

- عمَّن تكونين! وماذا قلتِ لها؟

- لا تتحدث عاليًا هكذا...

- المجنونة! لأنها مديرة تعتقد أنها يمكن أن تفعل ما يخطر على بالها؟ في أي شيء تفكر؟ وهل تستطيع أن تفكر من أساسه؟

- لم تعد "هَني" مديرة. لقد تركت المتحف.

- فصلوها؟

- لم تعد في المتحف.

- هل كانت في "الشتازي"؟ هل كانت هي أيضًا؟

- أنت قلت: يمكنها أن تبقى هنا.

- اعتقدت أنها ستمشى عندما أقول ذلك، إنها ستلاحظ أننا نريد أن ننام! هل اعترفت أنها كانت تعمل مع "الشتازي"؟

- وبعدين معاك! هذه أول مرة تقابلها.

- آه، لهذا. بكل لباقة تناديني بـ"زيوس"، تلك المجنونة! كان عليَّ أن أطردها من البيت وأريح دماغي! وأمنعها من أن تناديك بـ"ماريانتي".

- أنت كنت لطيفًا جدًّا معها.

- لأنها صديقتك.

يتمدد "ديتر" على ظهره شابكًا يديه تحت رأسه.

- كنتَ تحملق فيها.

- "ماريانا"! من فضلك.

- حقًّا! هذا ما حدث.

- كلام فارغ. من يضع أحمر شفاه هكذا على المائدة أمام الجميع...

- ليس هذا هو الموضوع.

تصدر عن "ديتر" آهة تعجب. أقول له:

- إنها لا تعرف إلى أين سأسافر غدًا.

- طبعا تعرف. لهذا حكت تلك النكتة السخيفة عن الورم في الصدر. بعدها قلت لها أن تحتفظ بنكاتها لنفسها. إنها تعرف!

- هل قلت لها ذلك عندما خرجت؟

- نعم.

نصمت. ثم أسأله عما قاله لـ"هَني"؟

- إنك ستذهبين غدًا إلى المستشفى في برلين، من أجل عملية جراحية. وإن علماءنا يجرون "أبحاثًا" حول ورمك. أبحاث يمولها صندوق التأمين الصحي.

ينظر إليَّ متسائلًا:

- هل أخطأت في ذلك؟

- ثم اقترحتَ عليها أن تبيت هنا. أن تشبع نومًا، هكذا قلت.

- نعم. ظننت أنها ستنصرف عندئذ.

أنهض فيحاول الإمساك بي.

- ماذا حدث؟

يصرخ فيَّ ضاربًا بيده على الغطاء. لا ألتفت. أطفئ النور، وأعود إلى المطبخ.

كانت "هَني" قد ملأت كأسها من جديد. سألتني:

- تعبانة؟

آخذ منشفة أطباق نظيفة من الدولاب.

- كان الصوت مؤلمًا، كالشاكوش في الأذن: بوبوبوبو – بوبو بوم بوم.

أصابع "هَني" المنفرجة تتزحلق على ساق الكأس.

- أغلقتُ النافذة، وهو ما لا أفعله أبدًا لأنني أصاب بالصداع، في الصباح على أكثر تقدير. أحسست بالصوت منبعثًا من تحت وسادتي، بوبوبوبو – بوبو بوم بوم. فترات السكون كانت أقصر من تلك التي يحتاجها شريط تسجيل لكي يعود إلى البداية، وأطول من اللازم بالنسبة إلى سي دي. أسوأ ما في الأمر أنني كنت أعد الضربات في فترات السكون. ثم توقفت الضربات، مرتين ونصف مرة.

وفي اللحظة التي آملت فيها أن تكون قد انتهت، عاد الدق: بوبو بوم بوم. دق بدائي، دون أي مهارة. لماذا لا تقعدين، يا"ماريانتي"؟

أبقى بجانب الحوض، وأجفف الكؤوس الغالية والشوك والملاعق. راحت "هَنـي" تـدهس عقـب السيجارة في المنفضة. اهتزت أساورها السميكة واحتكت بالمائدة.

واصلت "هَني" كلامها:

- أصابتني الهستيريا. وجدت الأمر فظيعًا أن يسمح شخص لنفسه بأن يدق عـلى أذني. إنهـم يقولون طبلة الأذن، حتى يطبلوا عليها. لماذا لم يغضب أحد أو يثور؟ هززت "دتليـف" وأيقظتـه. إنه يسمع دائمًا كل شيء، المنبه، التليفون، إنه هو الذي يوقظني عندما يكون ثائرًا، وعندما يعـاني من الأرق، فـأقوم بتهدئتـه. لم يعـد يـخشى شـيئًا مثـل الأرق. "إنـه لا يُحتمـل"، يقـول دائمًـا. "لا يُحتمل". قال لي إنه لا يسمع شيئًا. رفع رأسـه قلـيلًا وتسـاءل: مـاذا هنـاك؟ لم يقـل سـوى: مـاذا هناك؟ ثم استدار. قلت له: التطبيل، ألا تسمع شيئًا؟ قال: الدق خفيف تمامًا. قلت له: شـواكيش تضرب تحت الوسادة. شواكيش تضرب في أذني. إنها مؤلمة، مؤلمة جدًّا. كنت أريد أن يفعل شيئًا! يا إلهي! لا بد أن يفعل أحد شيئًا، قلت له. أي فندق هـذا. أي فنـدق هـذا؟ وأي حـراس هـؤلاء الذين لا يفعلون شيئًا؟

أخذت "هني" رشفة من من الكأس، ثم أشعلت لنفسها سيجارة أخرى.

- قال "دتليف" لي أن هناك إمكانيتين.

راحت "هَني" تحرك عود الثقاب يمينًا ويسارًا، ثم أضافت:

- إمكانيتان. إمَّا أن تتجاهلي الصوت وتركزي انتباهك في شيء آخـر، أو - هكـذا قـال لي دون حتى أن يفتح عينيه – أن تدعيه يتغلغل في أعماقك فتنسيه تلقائيًّا. فقلت له: أو أن تـنهض الآن وتضع حدًا له. إن الدق عالٍ جدًّا لدرجة أنني أشهر به في قدمي. رد قائلًا: انسي. فيما بعد ادعـي أنه قال حبيتي، وليس انسي. قال: انسي. سيضحكون علينا. لم يمثل الأمر بالنسبة إليه أي مشـكلة.

حاول أن يشدني إلى السرير. اعتقدت أنني سأجن. تخيلت الأمر كأنه يحدث بسرعة الصوت. كأنه ضوء النجوم. لم يعد لها وجود، لكننا نراها فجأة عند ظهورها، ويجيء مكتشف ويطلق على هذا النجم اسم زوجته أو عشيقته. مع أن النجم لم يعد له وجود، إنه انتهى، اختفى، لم يبق منه غير الضوء. هل تعرفين شيئًا مثل هذا؟

تحملق فيَّ، ثم تقول:

- لقد فقدت خيط الحديث. عن أي شيء كنا نتكلم؟

أقول لها وأنا أفرد المنشفة على جسم الدفاية المعدني:

- النجوم، والخبط تحت رأسك، و"دتليف".

- أحيانًا كنت أتخيل أنني استغرقت في النوم. وقفت بجانب الشباك ورحت أبكي. ثم سددت أذنيَّ. لكن الخبط ظل ببساطة موجودًا. وعندما كان يتوقف كنتُ أستحضره، كنتُ – يمكنك القول - أدفنه في أعماقي. "ماريانتي"، كنت أعتقد أنني سأجن.

تهز "هَني" رأسها. أضع الكؤوس الغالية على الصينية وأسألها هل يمكن أن تفتح لي الباب؟ تنهض على الفور. أحمل الصينية إلى غرفة المعيشة حيث فردت الكنبة وحولتها سريرًا لها. انتظرتني في المطبخ.

- لم أستطع أن أنزل لهم، وأنا المرأة الوحيدة هناك. بدا الأمر وكأنني أنا الوحيدة المتضايقة.

أخذتُ أمسح المائدة فرفعتُ المنفضة.

- حتى الأمس كنت أفكر أن كل شيء بيني وبين "دتليف" يسير على ما يرام لو تتوقف تلك الـ"بوبوبوبو – بوبو بوم بوم". لم أكن أطلب منه سوى الحقيقة، ثم نرى بعد ذلك. كنت أعتقد أننا سنقضي وقتًا طيبًا في نهاية

الأسبوع، وأنه سيأخذني في جولة بمدينة فرانكفورت. على الأقل مرة نقضي وقتًا جميلًا معًا – كانت كلها مجرد أمنيات طبعًا.

تمسح آخر قطرات زجاجة النبيذ من على حافة كأسها.

- كما أن المكان مزدحم بالمومسات ومتعاطي المخدرات. شيء لا يصدق. يمكنك أن تري بعينك كيف يفعلونها، أعني المدمنين.

تحاول أن تدير السدادة الفلين حتى تدخل في عنق الزجاجة. لا تتوقف عن المحاولة.

- ثم حدث ما حدث يا "ماريانتي".

قالت ذلك ثم وضعت السدادة جانبًا وأمسكت بيدي.

- بكيتُ يا "ماريانتي"، وفجأة ألحت عليَّ نغمة، فاستغرقت في التصفير المتقن. وكأنني تذكرت فجأة نغمة موغلة في القدم.

قالت الجملة الأخيرة بنبرة ذات أهمية.

- أخذت أصفر، بهدوء وخفوت، وشعرت في اللحظة نفسها كيف أصبح كل شيء هادئًا، وكيف ذهب عني التعب المؤلم، وبدأت أشعر بالنشوة. فجأة توحدت مع ذاتي كما لم يحدث لي من قبل. كنت أمتلك تلك النغمة التي لا يمكن لأحد أن يكتبها، إذ لا بد أن يسمعها المرء. كأنني صمدت والآن أُكافأ على صمودي، هل تفهمينني؟ ربما من أجل هذا تحديدًا جئت إلى فرانكفورت، من أجل أن أتعلم تلك النغمة التي صفرتها.

سحبت يدي. بقيت "هَني" جالسة بقدمين متباعدتين.

- عندما أيقظني "دتليف" صباح اليوم كنت تعبانة كأنني أخذت علقة ساخنة. لكنني ابتسمت. ذهب إلى الحمام ووقفت أنا عند الشباك. أخذتُ أتهيأ، فأغلقت عيني – ولكن لا شيء. كأنهم سرقوها مني أثناء النوم، كأنهم انتزعوا النغمة من حلقي، كأن أحدهم محاها محوًا. نظرت إلى الشباك، لكنني لم أرَ إلا

السلك الموضوع أمامه لمنع دخول الذباب. كنت في الحضيض يا "ماريانتي". لمسني "دتليف" عند الكتف وقبَّل رقبتي. انفجرتُ في الصراخ والبكاء. في تلك اللحظة شعرت أن كل شيء ذهب هباءً، أن "دتليف" انتهى بالنسبة لي، هل تستطيعين تخيل ذلك؟

تطلعت "هَني" إليَّ. أخذت تدير كأسها الفارغة. كانت تنتظر مني شيئًا، لكنني لا أستطيع أن أفعل مثلها، أن أهرب ثم أحكي مثل هذه الحكايات للآخرين. لم نرَ بعضنا لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام. تعرفنا في جماعة الرياضة النسائية. كانت هي أصغرنا. لكننا لم نتبادل الزيارات أبدًا. فيما بعد تناولنا الطعام معًا، واحتسينا كأسًا.

أنهض من على المائدة لأنني أريد أن أشرب الماء. "هَني" تخلع السوار الفضي، وتفك ساعة يدها.

- يا "ماريانتي".

تقول وتقترب مني فاتحة ذراعيها. تريد أن تعانقني. أتناول يديها وأضغط عليهما فوق كتفي. حتى هذا لا أريده. أنا لا أريد أي لمسات من أي أحد.

أسألها إذا كانت تشعر بالشوق إلى "دتليف". تهز رأسها نفيًا. أترك يديها. ما زالت تتشبث بكتفيَّ. أحاول أن أتجنب نَفَسَها. تقول"

- أنت متوترة.

أصابعها تدلك كتفي قليلًا. من قريب بدت لي شفتها العليا باهتة. وعمومًا بدا لي وجهها وكأنه فقد جماله. قلت لها:

- تستطيعين الآن.

ثم أضفت عندما نظرت إليَّ مقطبة الجبين:

- الحمَّام خالٍ.

أغلق باب المطبخ وأفتح النافذة. أفرغ المنفضة وأغسلها، وإلا لـن تُجـدي أي تهويـة. آثـار أحمر الشفاه موجـودة حتـى عـلى السـندوتش حيـث قضـمت قضـمة. أرميـه مـع السـدادة الفلينية، وأغسل الكأس والزجاجة، ثم أبدأ بتهيئة المائدة للإفطار. أضع السـوار والسـاعة بـين الفناجين.

من الحمام تتناهى إلى سمعي صفارتها الغريبة. لست متأكدة ما إذا كانت الصفارة عالية بالفعل، أم أنني أتوهم ذلك. أجفف المنفضة. أضعها بجوار الساعة ثم أغسل يدي وأدع المـاء ينساب عليهما لحظةً. أضع زجاجة النبيذ الفارغة في السلة فوق الورق القديم، وأسحب منهـا برنامج التلفزيون من الأسبوع الماضي. على المائدة أقرأ برجي: "العذراء 8/22 – 9/21. شـخص بحاجة إليك. إذا استطعت أن تشعري بمعانـاة إنسـان وتشـاركينه وجـدانيًا، فسـوف تهتـدين بالتأكيد إلى طريقة فعالة لتقديم العون إليـه. ثـم أقـرأ بـرج "ديـتر": "العقـرب مـن 10/23 – 11/21. أنت مهموم بشأن اتخاذ قرار. انتظر ما سوف يحدث، واشغل وقتك بأشياء جميلة!"

أحمر الشفاه يقي من السرطان. سرطان الشفاه يصيب النساء أقل من الرجال. السبب: النساء اللاتي يضعن أحمر شفاه يحمين أنفسهن خلال النهار من الأشعة فوق البنفسجية. المواد الملونة في مساحيق التجميل تعمل كواقٍ من الأشعة.

لا أستطيع تمرير سوار "هني" السميك من يدي. فقط السواران الرقيقان أستطيع لبسهما. التاريخ في ساعتها ليس مضبوطًا.

أملأ آلة القهوة بما يكفي ستة فناجين، لكنني أترك الغطاء مفتوحًا حتى أتـذكر في الصـباح ولا أملؤها مرة أخرى فيفيض الماء. علبة الورق المرشح فارغة. أضغط عليها لتصـبح مسـطحة، ثم أضعها بين الصحف القديمة. لم يعد لدينا سـوى علبـة بمقـاس أكـبر مـن مقـاس الماكينـة – مقاس 4 بدلًا من 3. أَلِفتُ رؤية العلبة خلف مقادير الخبيز والبودنج. أفتحُ العلبة.

قصصت طرفًا ضئيلًا من المرشح فتناسب على الفور مع الجزء العلوي من آلة القهوة. فعلت الشيء نفسه مع الباقي. لا أعرف لماذا لم أفعل هذا منذ وقت طويل؟! أحضر العلبة الفارغة ثانية وأضغط عليها وأملأها بالقصاصات، ثم أدسها مرة أخرى بين الصحف. أتناول المنبه ذا الأرقام الكبيرة وأقربه من عيني لأرى حركة عقرب الدقائق. نهضت عندما شعرت بالبرد وسرت إلى الشباك. أيضًا لا قمر. أغلق المصراعين ببطء. يخطر على بالي ثانية أنني كنت أريد أن أشرب شيئًا. عندما تناولت كوبًا من دولاب المطبخ، قلت لنفسي إننا كلنا سنموت عاجلًا أم آجلًا.

أشرب الماء، وأحك الشمع الذي تساقط من الشمعدان، ثم أقطع الذبالة من فوق الحامل، وأضع شمعة جديدة. فجأة راح عني التعب، بل شعرت برغبة في أن أشغل الراديو وأستمع إلى موسيقى، موسيقى جميلة فحسب. لكن من الأفضل ألا أفعل. لا أريد أن أخاطر بشيء. أريد أن أحتفظ بحالتي النفسية هذه، على الأقل لبضعة دقائق.



(14)

مرآة



"باربارا" و"فرانك هوليتشك" يتبادلان الحديث. ما حدث في الحمام. ليس هناك ردة فعل من السياسي، وبعد ذلك ينتابه التعجب. فقدان الحذاء أثناء الفرار.

يلمس "فرانك" بجبهته باب الحمام، ويتساءل:

- كل شيء تمام؟

نبرات صوته عميقة. يضع يده على مقبض الباب.

- ممكن أدخل؟

على الرغم من اللبان في فمه فإن أنفاسه تُذكِّره بوجبة العشاء: قطع لحم في صلصلة بالقشدة، وقبلها شوربة بصل، والحلو تيراميسو. لم يشرب غير البيرة. في حوالي الثانية عشرة غادروا مطعم "راتس-كيلر". إنها الآن الواحدة.

- "باربارا"؟ أصابعه تنقر على إطار الباب.

- كل شيء على ما يُرام؟

يتراجع عندما أدارت المفتاح. ينتظر ثم يفتح الباب بنفسه.

- ممكن..؟

تقف في قميص النوم أمام المرآة ممسكة بقطعة قطن تمر بها على حاجبها الأيسر. الجيبة على غطاء التواليت، البلوزة والجوارب ملقاة أمامها على البلاط. تضغط بالقطنة على زجاجة، ثم تقلبها لوهلة مديرة رأسها إلى الناحية الأخرى. عندما رفعت ذراعها رأى شعر إبطها اللزج.

قال لها وهو يلثم شعرها:

- "بابس"، هل ما زلت تشعرين بالألم؟

تغير تعبير وجهها على المرآة.

- ماذا يحدث إذا ادعيت أنك ضربتني، أعطيتني علقة ساخنة؟ ماذا يحدث عندئذ؟

ملامح وجهه تنبسط ويبتسم.

- أكون قد ضعت وانتهى أمري.

- لا أعتقد.

قالت ثم انحنت إلى الأمام مرة أخرى.

- ستدَّعي العكس، وسيشهد الجميع أننا زوجان منسجمان. وسأكون أنا الشريرة مرة أخرى، المرأة الهستيرية الطماعة التي لا تشبع من الفلوس. هذا ما سيحدث.

تضع قطعة القطن الصغيرة خلف الصنبور قائلة:

- حتى الحصانة لن يرفعوها عنك.

- ومع ذلك.

يقول وهو يقبلها:

- سيظل شيء ما عالقًا بسمعتي.

- وإذا كنت حاملًا؟

تتطلع إليه في المرآة.

يزيح شعرها ذيل الحصان إلى الجانب ويلثمها خلف العنق. أنامله تلمس عظام كتفها.

- أنا آسف جدًّا.

يقول وهو مغمض العينين.

- ليس هناك داعٍ لأن تشعر بالأسف.

- على الرغم من ذلك..

يقول واضعًا يديه على بطنها.

- كان عليَّ أن أتدخل قبل ذلك، قبل ذلك بكثير. ولكن من كان يستطيع أن يعرف!

- "فرانك"!

يُدخل يده تحت قميص نومها. وبسرعة يرفعها إلى أعلى ويراقب في المرآة أصابعه على نهديها. تحاول "باربارا" أن تمسح ظلال جفونها. تقول:

- لم يكن أحد يستطيع أن يعرف.

تعلقت وبرات قطنية بجفونها. وتضيف:

- كيف كان لأحد أن يعرف!

يقبِّل كتفيها.

تدير ذراعها الأيسر وتتأمل مرفقها المخدوش.

- هل تعتقد أنت أيضًا أنني سهلة يا "فرانك"؟ هل من السهل ضربي؟

- كلام فارغ.

- أنا أسأل فقط. من السهل ضرب النساء القصيرات، أليس كذلك؟ قل لي. هل من السهل ضربي؟

يتركها "فرانك"، فتمسح "باربارا" يدها على قميص نومها.

- كيف كان لأحد أن يعرف!

تكرر وهي تجمع القطن على حافة الحوض، ثم تضغط على دواسة صفيحة القمامة الصغيرة. تقع كتلة قطنية بجانب الصفيحة. ينحني "فرانك" لالتقاطها. يلفظ اللبانة في كفه، ثم يلصقها في القطن المبلول، ويلقي به في الصفيحة.

يقول وهو ينهض:

- أربعة عشر أو خمسة عشر تلميذًا. رسبوا ثلاث مرات، مساكين، إذا نظرنا لكل على حدا.

- عندما بدؤوا لم يتحرك أحد منكم يا "فرانك". لا أحد.

تفتح الصنبور وتضع الذراع المثني تحته. يقول لها:

- من المفروض ألا يفعل المرء هذا. الجرح ينظف نفسه بنفسه.

- خمسة رجال. لا أحد من الخمسة كلف نفسه وفعل شيئًا. أتعرف ماذا يدهشني؟

- طيب. هكذا ترين أنت الأمور. لكن، أنا أعتقد أن تصرفنا كان صحيحًا.

- أتعرف ماذا يدهشني؟ أنكم لم تكلفوا نادلة المطعم أن...

- كانوا يريدون أن يستفزونا. فقط الاستفزاز.

- آه، والحمد لله يا "فرانك" أننا لم نستجب لهم، رائع! وصديقك "أورلاندو"... هل كانوا يريدون أيضًا استفزازه فقط؟ هل لذلك غرزوا السكين في ظهره؟

- آه، لا تبالغي!

- طوال نصف ساعة وهم يهتفون بشعاراتهم، وأنتم جالسون هناك...

- ولهذا ظللت تشربين حتى أصبحت لا ترين أمامك.

- وأنتم ظللتم جالسين هناك بأزيائكم البافارية الشعبية تلوكون اللبان. وعندما قالت "هَني" إنها لا تريد أن تبقى، قلتم: طيب، وأردتم دفع الحساب.

- بعد عشر دقائق كانت الشرطة وصلت وطردتهم. ربما بعد ربع ساعة...

بيده يفرد منشفتها المعلقة على الحامل.

- وفي الخارج كانوا في انتظارنا.

- أتعتقدين أنهم كانوا سيسمعون كلامي؟ طبعًا لم يكن هذا ليحدث إذا حاولت طردهم بنفسي؟ هل هذا هو منطقك؟ هل عليَّ أن أتدرب على المصارعة؟

تغسل وجهها، فيواصل قائلًا:

- ليس كل حمار يدعي الأهمية يصبح نازيًّا! هل تريدين أن تضعيهم كلهم في السجن؟

- ماذا تقول؟

- لا تتصرفي هكذا.

- "فرانك"!

يداها تحيط بحافة الحوض. من الذقن والأنف تتساقط قطرات المياه.

- ما زلتُ أحترمك...

- وماذا كان عليَّ أن أفعل؟ هل يمكن أن تقولي لي؟

- أتعرف ماذا أطلقوا على امرأتك؟ لقد تظاهرت بالصمم عندما قالوا كيف يريدون أن يتعاملوا معي، أن يتعاملوا مع امرأتك؟

- كفى يا "بابس"...

- لم أحتفظ في ذاكرتي سوى بالروائع.

- لا تصرخي هكذا! لقد سمعت أنا أيضًا.

- طيب. إذا كنت أنت أيضًا قد سمعت... لقد اعتقدت أنك لم تسمع. تخيلت ذلك. أخطأت مرة أخرى. من فضلك سامحني على ظلمي لك.

يتراجع "فرانك" قليلًا إلى الوراء:

- هل كان عليَّ أن آخذ علقة؟ ربما كنت قد تغلبت على اثنين منهم، ربما ثلاثة. ولكنهم كانوا عشرة أو أكثر. كانوا سيضربونني ثم...

- ثم؟

تساءلتْ ووجهها المبلول فوق الحوض، في حين راحت أصابعها تتحسس المنشفة.

- واصل كلامك يا "فرانك". يضربونك ثم، ثم ماذا؟

- هل تريدين هذا؟ أن يضربوني؟

يتكئ إلى الجدار شابكًا ذراعيه. الكيلوت الذي ترتديه تزحلق إلى أسفل قليلًا.

- بدلًا من ذلك جرينا كالأرانب يا "فرانك". كالأرانب. وعندما طرت في الهواء كنت أنت واقفًا في انتظاري. لم أشكرك بعد على ذلك. أنا ظالمة فعلًا. انتظرتني على بعد خطوات، ورحت تنصحني.

تعلَّق المنشفة على الحامل مرة أخرى.

- ألم تأخذ علقة أبدًا في حياتك يا "فرانك"؟ كنت ستخرج معافى بعد أسبوع من المستشفى، على أكثر تقدير. كنت سأزورك كل يوم، وكنت سأطبخ لك أيضًا. أتعرف ماذا تكون؟

قال هابطًا ببصره على ساقيها:

- أنتِ جننتِ. لو خرجت الآن، سأعوض ما فاتني.

- بالضبط.

قالت ذلك وهي تحل ذيل الحصان، ثم راحت تمشط شعرها ورأسها مائل إلى الجانب.

- كنتُ أريد أن أطلب منك ذلك. على الأقل حذائي، هل يمكنك أن تحضره؟ الحذاء ليس إلا بضعة أبازيم. ولكن ثمنه كان 200 مارك.

- "بابس"!

- نعم؟ تفضل، أصغي إليك يا "فرانك".

- أتعتقدين أنني مستريح لما حدث؟

- لا. لا أعتقد ذلك. كيف يخطر على بالك شيء كهذا؟

- كيف في رأيك!

يتتبع ببصره في المرآة كيف تزيل الشعر من الفرشاة، ثم يقول واضعًا يديه في جيوبه:

- يمكنك أن تظني فيَّ ما تريدين. كان علينا أن نأخذ تاكسي. ولكن عدا ذلك؟

- ديمقراطيتكم الجميلة لن يضرها أشخاص مثلهم. مثلهم لا.

- ديمقراطيتكم! هذا الكلام المستهلك يا "بابس"! هذا الكلام أقرؤه كل يوم على الفطار. كلام يصيب بالغثيان!

- لماذا تصرخ؟ سمعي ليس ثقيلًا.

تفتح علبة ظلال الجفون البيضاوية المسطحة.

- بالطبع لا. لستِ ثقيلة السمع، ولكنك سكرانة. نجحت في ذلك كالمعتاد نجاحًا عظيمًا.

يفتح أزرار قميصه.

- لم تجبني بعد يا "فرانك".

تنهمك في وضع الماسكارا.

- لم أجب على ماذا؟

- على سؤالي.

بالإصبع الصغير تضع الميك أب على زاوية العين. يعلق قميصه على مقبض الدفاية ثم يفتح حزامه.

- هل تحضر لي حذائي أو لا؟ أنا أسأل فقط.

تغلق العلبة.

يترك بنطلونه يسقط.

- هل تسمحي لي بالمرور؟

تقول وهي ترسم حواف الشفتين:

- "فرانك"، هذا معناه... هذا لا يمكن أن يعني إلا... إلا أنك لست على استعداد أن تحضر لي الحذاء. هل هذا صحيح؟

يلقي "فرانك" بالجوارب في سلة الغسيل، ثم يضع البنطلون فوقها ويجلس على حافة البانيو. يفتح الصنبور ويدع الماء البارد ينساب على قدميه. تسحب "باربارا" الكيلوت إلى أعلى وتخرج من الحمام، ثم تغلق باب غرفة النوم خلفها.

يفرد "فرانك" منشفة صغيرة أمام الحوض. يضغط على أنبوبة معجون الأسنان الحمراء "إلماكس"، ويضع منها على كلا الفرشتين. يملأ كوبًا بالماء الدافئ ويضع فرشتها عليه، ثم يشرع في تنظيف أسنانه. "بيوتي كوزميتك" يقرأ على العلبة المعلقة بجانب الحوض. "رقائق من القطن الخالص، ناعم ورقيق. يحافظ على نضارة بشرتك. من عدة طبقات، لا يترك نتفًا".

تقرع "باربارا" الباب ثم تفتحه مباشرة.

- هل تناولني هذا؟

قالت مشيرة إلى غطاء التواليت. يدع الفرشاة في فمه ويعطيها الأشياء فرادى.

- لقد تلف هذا أيضًا.

تُلقي بالجورب تحت الحوض، ثم تسحب البلوزة فوقه.

- ماذا حدث؟

يقول وفمه ملئ بمعجون الأسنان. تلبس الجيبة.

- ماذا تفعلين؟

تغلق "باربارا" السوستة. ينحني "فرانك" تجاه الصنبور ويغسل فمه. يميل جانبًا حتى تتأمل وجهها في المرآة.

يقول وهو يقف مستقيمًا جانبها:

- ماذا حدث الآن؟

- أنا أتحمل الكثير. ولكنني لا أتقوقع على نفسي.. اسألني لماذا لدي زوج.

في الردهة الأمامية تُدخل الحذاء في قدميها وهي تستند إلى المائدة الصغيرة، ثم تبحث في شنطة يدها.

- من الأفضل أن ترتدي جاكتة صوفية.

- أين مفتاحي؟

- في الباب.

- لم يخطر على بالك حتى أن تذهب يا "فرانك"؟

- لا، لم يخطر.

يتبعها حتى الباب. تفتحه بالمفتاح. يجذبها من كتفيها قبل أن تضغط على المقبض. يشدها من كتفها ويحيط بطنها بذراعيه. الآن يقف "فرانك" أمام الباب. يقول:

- "بابس"، ليس معي.

- طبعًا، فلن يصدقني أحد. أليس كذلك؟ هل سيصدقني أحد؟ رجل كله طاقة مثلك! يتخذ دومًا إجراءات عنيفة. احترامي الشديد، احترامي وتبجيلي!

عدلت من هندامها، ثم قالت:

- دعني يا "فرانك". دعني أذهب. أم تريد أن تقف الليل كله هنا، هه؟

تخطو إلى الأمام.

- هيا! لا تفكر كثيراً. فقط سأحضر حذائي، ثم.. سنَـ. نام. أمامك غدًا يوم شاق.

- لماذا تفعلين ذلك؟

- هذا ما شرحته لك طوال الوقت.

ثم أضافت وهي تغير من وضع وقفتها لتضع ثقلها على الساق الأخرى:

- إلى متى سنظل نلعب هنا، هه؟

الجرس يرن؛ يرن مرتين قصيرتين، ومرة طويلة، ثم بعد فترة صمت – يتبادلان فيها النظر – يرن الجرس رنة قصيرة مرة أخرى. يعطيها إشارة أن تتراجع، ويهمس:

- "بابس، بابس".

يزيحها من طريقه ويسير إلى الحمام. يطفئ النور ويذهب إلى النافذة. دون صوت يفتحها ويتكئ عليها. ينطفئ المصباح فوق باب المنزل. بعد لحظة ينادي:

- من؟

في الدقيقة ذاتها يسمع باب الشقة. في الضوء الآتي من مدخل الشقة يلحظ شكلا في المرآة، منتصبًا، يرتدي فانلة داخلية، واليد على مقبض النافذة. يراقب الوجه منتظرًا أن يتغير شيء. يشعر بتيار هواء عند القدمين.

- "فرانكي".

نادت عليه مغلقةً باب الشقة.

- تعال! لقد أعادوا الحذاء. وجدته هنا، هنا على العتبة. هيا، نَنـ.. نام!" دون أن تخلع حذاءها سارت إلى غرفة النوم.

يلاحظ أنه ما زال واقفًا منتصب القامة ويده اليسرى على مقبض النافذة. ثم يرى كيف تنغلق النافذة ببطء.



(15)

خبطة كبيرة وضربة معلم



"ديتر شوبرت"، و"بيتر برترام" يتحدثان عن امرأتين. صيد سمك الشبوط: رياضة جديدة. صعوبات مع شيء اسمه النجاح وكيفية توثيقه. وخزات في منطقة القلب. ضباب وشمس الصباح.

- خبطة كبيرة!

صاح "برترام" وهو يضم سمكة الشبوط الضخمة إلى صدره. صعد التل الصغير على الشاطئ باحثًا في كل خطوة عن شيء يستند إليه، ولم يقف إلا عندما فاجأه ضوء فلاش الكاميرا الخاطف.

- عملاقة!

صاح رافعًا السمكة، وبسرعة أحكم قبضته عليها.

صاح "شوبرت":

- يا ربنا! لقد غمزت الصنارة الصنارة!

رفرفت الزعانف الخلفية يمينًا ويسارًا.

- حاسب عليها، يا صياد الشبوط العظيم!

الضوء الخاطف مرة أخرى. تنغرز أصابع "برترام" في لحم الشبوط. يسير "شوبرت" في اتجاهه، إلا أنه بعد عدة خطوات يشير عبر كتفه إلى الخلف. ويصيح:

- الميزان...

ثم يعود أدراجه.

أمام الخيمة جلس "برترام" القرفصاء على العشب. باليسرى كان يمسك بسمكة الشبوط تحت زعانفها الأمامية، وباليمنى في المنطقة التي تصل البطن الأبيض بالذيل. راحت الزعانف السفلية تضرب أطراف حذاء "برترام" المتسخ.

- حاسب!

قالها "شوبرت" وقرفص. ابتسم "برترام"، ثم قال بانتصار مكورًا قبضته:

- هذه المرة يا "ديتر"! 50، أراهن!

لمست ذقنه زعانف الظهر. فقال "شوبرت":

- اثبت! عظيييم! عظيم جدًّا!

زحف "برتام" على ركبتيه إلى الأمام ممسكًا بالسمكة على صدره، ثم وضعها بحذر على الميزان الذي كان في الأساس ميزان أشخاص. صاح:

- 51 وأربعة!

- اسكت يا بني آدم، 51 وخمسة!

صاح "شوبرت":

- يا ربنا!

أمسك "برترام" السمكة المتمايلة من فمها.

- الميزان ببساطة صغير جدًّا، صغير جدًّا على هذا الحوت! 51 وستة، 51 وستة من عشرة!

قال "شوبرت" وهو ينحني أكثر حتى ملأت السمكة وعقرب الميزان الإطار في عدسة آلة التصوير، ثم التقط صورة بالفلاش:

- مدهش.

قال "برترام" وهو يفرد متر القياس:

- السمكة استطعمت الدود. أطعم من الشكولاتة. 94، جاهز؟

قال "شوبرت":

- ثانية واحدة.

انتظرا حتى تم شحن الفلاش. من زجاجة "فانتا" كبيرة صب ماء على السمكة.

ثبت "برترام" المقياس المتري على زعنفة الظهر ثم فرده على البطن: "48". قال "شوبرت":

- تلمع كجناح حشرة.

أعاد الجهاز إلى الخيمة ورجع حاملًا معه أنبوبة.

همس متحسسًا بطن السمكة:

- ضربة معلم. بطنها كبير، ولا قشور تقريبًا. غريبة أن السمكة ما زالت بها الروح.

بحذر تحسس فم السمكة ثم وضع مرهم التئام الجروح على الموضع الذي شبك فيه الشص. دندن شوبرت":

- ابعد عنه، روح للدبة النانوه.

ثم أضاف ماسحًا يديه في العشب:

- لا بد أن نلتقط صورة أخرى، إنها تستحق ذلك.

أفرغ "برترام" زجاجة "الفانتا" على الخياشيم.

- تسمح لي؟

رفع الشبوط وهبط المنحدر. عند القناة رجع خطوات إلى الوراء، ثم خاض في الماء وأطلق سراح الشبوط.

صاح "شوبرت" من أعلى مقلدًا نافخي الآلات النحاسية من فرقة "يلو سامارين":

- هوبه، خبطة كبيرة! هل ما زلت تراها؟

واضعًا يديه في وسطه، أرسل "برترام" النظر إلى الضباب وسطح الماء البني الأملس. ثم فحص الصنارتين الأخريين. مشى "شوبرت" على المنحدر موازيًا له، ثم قام بتمرينات ثني الركبة، وصنع بذراعيه دوائر في الهواء، ثم شرع في الجري ببطء حتى وصل إلى عمود الكهرباء التالي فرجع.

قال لاهثًا وشفته السفلى تلمع:

- هه، أيها الصياد العظيم، كيف يشعر المرء في مثل حالتك؟

سار "برترام" إلى الخيمة وشرب من زمزمية ماء، ثم مدها إلى "شوبرت" الذي هز رأسه نافيًا، وراح يثني جذعه على شكل دوائر.

قال "برترام" وهو يخلع ثيابه:

- الدور عليك المرة القادمة. عندئذ تستطيع أن توفر لعب العيال هذا. يظهر أن كل صواميل دماغك مفكوكة يا "ديتر"! حذاء رياضي جديد وبدلة رياضية!

بشبشب الحمام والكلسون تهادى "برترام" إلى حبل الغسيل المشدود بين الخيمة وعمود الكهرباء، ثم ألقى فوقه بالقميص والجوارب والبنطلون الكاكي. وضع الحذاء المبلول عند المدخل، ثم أخذ يبحث عن الشنطة التي يحملها على الظهر.

راح "شوبرت" يهز ساقيه وذراعيه.

- ويقولون: لمدة ثلاثة أيام ينبغي على المرء أن يغري الشبوط بالطعم. كلام فارغ. في اليوم الثاني يأكل الطعم بكل سذاجة.

يرتدي "برترام" بلوفر فوق ملابسه محاولًا التوازن على قدم واحدة وفي يديه جوارب نظيفة.

يسأله "شوبرت" ثم يبدأ تمرينات التنفس:

- هه، أيها الصياد العظيم! كم الساعة الآن؟

خطا "برترام" بقدم حافية على العشب، ومسح الأصابع في القدم الأخرى ثم أرتدى جوربًا. دخل الخيمة وصاح من الداخل:

- كان عليك أن تسافر إلى صاحبتك "مانكا"، وليس إلى هنا!

قال "شوبرت" مزيحًا الغطاء عن مدخل الخيمة:

- ماذا جرى؟ أنا في أحسن حال. هل تشعر بالجوع يا "بيتر"؟

قال "برترام":

- كنت أظن أنك اشتريت علبة كاملة. كنت تريد أن تشتري علبة أفلام.

زحف "شوبرت" تجاه الحصيرة التي ينام عليها، وقال:

- وهو ما فعلت.

- حوالي ساعة كاملة. حوالي ساعة كاملة وأنا أصارع السمكة دون صورة واحدة، لأن سعادتك كنت نائمًا.

رتب "شوبرت" كيس النوم الذي ينام داخله، وقال:

- كان عليك أن تقول شيئًا. فأنا لست مراسلًا رياضيًّا.

- أنت لا تهتم إلا بالـ.. لكن هذا لم يعد يهمك. لم يعد يهمك ولا حتى بهذا القدر.

بين الإبهام والسبابة لم تزد المسافة عن سنتيمتر واحد.

قال "شوبرت":

- غير صحيح.

- ولا كلمة. أنت لم يعد في دماغك سوى هذه المرأة، والحصول على شهادة تثبت أنك كنت مُلاحقًا سياسيًّا. هذه هي الحقيقة.

- إذا لم تكن لدي رغبة، ما كنت سأجيئ إلى هنا. ولكن شكلك وأنت تحملق...

قهقه "شوبرت"، ثم شد سوستة كيس النوم لأعلى مضيفًا:

- عندما انطلقت صفارة الصنارة بعد أن شبكت السمكة. لقد صرخت: إنذاااااار. صرخت بصوت عالٍ جدًّا!

قال "برترام":

- كما كان يحدث على الحدود مع ألمانيا الغربية.

- هل كانت الصفارة تنطلق هناك أيضًا؟

سحب "برترام" نفسًا من أنفه، وشبك ذراعيه تحت رأسه:

- هناك كان عندنا حيوانات على كل لون: أرانب وثعالب وأيائل ووعول وخنازير برية وجربوع – على كل لون.

- وأنا كان نصيبي هذا.

قالها "شوبرت" ناقرًا بطرف إصبعه على عينه الزجاجية.

- ما يدهشني أن الحيوانات لم تفهم. لقد كانت ترى ما يحدث لغيرها، وكيف كانوا يتمزقون. مع أن حدس الحيوانات قوي. إنها تشعر حتى بالزلازل قبل أن تقع.

- هل استغنوا عنك لذلك؟

- ماذا؟

- رتبتك كانت كبيرة، أليس كذلك؟

- في كل مرة يستدعونني، كنت أحصل على نجمة أخرى. ولكن ماذا يعني ذلك؟ الآخـرون كانوا في الفرقة القتالية.

- لماذا؟

- كنت أعتقد أننا جئنا هنا لنصطاد يا زيوس.

ضحك "شوبرت" ونقر مرة أخرى على العين الزجاجية.

- آخر واحد قال لي يا زيوس ندم عليها فيما بعد.

ضرب بيده سقف الخيمة. تساقطت قطرات من الماء، وأضاف:

- ندمًا عظيمًا.

أمسك "برترام" بيد "شوبرت" قائلًا:

- أنت تتصرف كالأطفال.

أجابه "شوبرت":

- نعم، عجوز وطفل.

- عاطفي.

- وكل ما تريد. على كل حال ليس لك ذكر في ملفاتي. عليك أن تشعر بالفرح أكثر، على الأقل عند الصيد.

ترك "برترام" يد "شوبرت"، ثم تابع كلامه:

- تلك المومس التي تمص دمك. هي تسعدك، أليس كذلك؟

- هي...

- مومـ. عاهرة صغيرة، أصغر من بنتك "كوني".

خبط "شوبرت" مرة أخرى على السقف.

- زيوس!

قالها واستدار إليه، ثم راح يشد كيس النوم حتى غطى ظهره، وواصل قائلًا:

- ألا تستغرب "ماريانا" أنك تسافر كثيرًا إلى برلين؟

- لم يكن هناك شيء.

قال "شوبرت" بعد وصول موجة إلى الشاطئ. ثم أخذ يدندن بعض النغمات لفريق "يلو سابمارين". من الشاطئ الآخر تناهت إلى سمعهم أبواق سيارات.

- هيا يا "بيتر".

أضاف:

- إننا نعرف بعضنا تمامًا.

وبيده أعاد شعره إلى الوراء. أكمل:

- ربما لم يكن كل هذا سيئًا بالنسبة لنا.

قهقه "برترام" عاليًا، وقال:

- بالتأكيد برج من عقلك طار!

فقال "شوبرت":

- أنت تتكلم كأنك رجل عجوز. بدلًا من أن تبحث لك عن واحدة، فإنك تتمخض وتلد تخاريف لا يريد أحد أن ينشرها.

- إيه؟ فجأة أصبح ما أكتبه تخاريف قذرة؟

- أريد أن أقول إنه من الأفضل أن تبحث لك عن امرأة.

- أصبح فجأة تخاريف قذرة؟

- يا بني آدم.. اهدأ!

- أنا أسألك إذا كان ما أكتبه قد تحول فجأة إلى تخاريف قذرة. أتذكر أشياء أخرى تمامًا، حماسًا حقيقيًّا، أم أنني مخطئ؟

- لا بد أن تعترف بأن هذا...

- إيه؟

- ليس طبيعيًّا تمامًا.

- ليس طبيعيًّا؟

ارتكز "برترام" في رقدته على مرفقيه.

- ولماذا كنت تريد أن تشتري التخاريف القذرة التي أكتبها؟ لماذا صورتها؟ لماذا قلت إنه انتصب عند القراءة؟ لم يعد يؤثر فيك ما أكتب؟

قال "شوبرت":

- كلام فارغ!

- ربما يكون "زيوس" هو الذي لم يعد طبيعيًّا تمامًا؟ لماذا تدفع لعاهرتك إذا كانت لا تطلب أبدًا؟

رد "شوبرت":

- إنها تستحق.

- هل تريد أن أقول لك لماذا تستحق؟ لماذا تدفع لها؟

- أريد علاقة واضحة. هذا هو كل شيء. هي هناك، وأنا هنا، ثم نتقابل. هي تحصل على نقودها، ثم ننفصل.

قال "برترام":

- كم أتمنى لو أن لدي خيالك. أولًا: تريد الصغيرة كسب بعض المال. ثانيًا: أنت تطلب منها أشياء، أشياء يسيل لها اللعاب. أقول هذا من واقع معرفتي بك، أم أنا مخطئ يا زيوس؟

الرياح تعصف بسقف الخيمة. "برترام" يرفع رأسه ثانية.

يقول "شوبرت":

- سيان ما تفكر فيه يا "بيتر".

- أي شيء آخر يمكن أن أظنه في شخص يقرأ تخاريف قذرة؟

قال ساخطًا:

- يا سلام عليك يا "بيتر"!

في اللحظة التالية وقفا معًا.

- هيا!

صرخ "برترام". انطلقت الصفارة من الصنارة. بعدها بقليل تتبع "شوبرت" السمكة سـائرًا مع التيار تجاه مفاعل الطاقة.

هتف "برترام" مصفقًا:

- اترك لها الخيط، إنها تبتعد! هه، هه، هيييه!

سمع خشخشة الخيط وهو ينساب من البكـرة. فـيما عـدا الأزيـز المنبعـث مـن خطـوط الكهرباء وهدير عدة سيارات على الضفة الأخرى كان الهدوء يعم المكان. عندما اسـتدار كـان "شوبرت" يجري باتجاهه.

صاح "برترام":

- سأجري إلى محطة الطاقة يا "ديتر"، أريد أن أرى الدوامة الكبيرة التي ستسببها مقاومـة السمكة للصنارة، دوامة كبيرة! حاجة تملأ العين!

في اللحظة ذاتها تحركت البوصة وكأن الحياة عادت إليها. مد "شـوبرت" كلتـا ذراعيـه إلى الأمام، فانساب الخيط إلى نهايته.

- بنت الناصحة!

أحضر "برتـرام" الشـبكة الصـغيرة ذات اليـد الخشـبية. قـرفص "شـوبرت" عـلى الشـاطئ بذراعين ممدودين، بينما وصلت أطراف البوصة إلى الماء. راح يجذب الخيط مديرًا البكرة.

- غير معقول! هل السمكة بهذه الخفة؟ أم أنها تخلصت من الشص؟

نهض "شوبرت" من وضع القرفصاء، وترك الخيط يسحبه عكس التيار. لم يعد الطقس بـاردًا. شيئًا فشيئًا تراءت الضـفة الأخـرى وحـواجز الطريـق وكشـافات السـيارات. فجـأة صـار الخـيط مشدودًا. طرف الصنارة منغمس في المـاء. ضـم "شـوبرت" شـفتيه، ونفـرت العـروق مـن جبهتـه وسوالفه، ومن تحت ذقنه أيضًا.

صاح "برترام":

- عظيم! هذا هو الكلام، لا بد من الصراع!

تنفس "شوبرت" بصعوبة، وتقوس عوده من الإجهاد.

- هذا هو أجمل شيء، أن تشعر بها، شد حيلك يا "ديتر"! ماذا ستطلق عليها؟

- بيج بن.

قال "شوبرت" وهو يصر بأسنانه محاولًا أن يبتعد في خطوات صغيرة عن الشاطئ. أخذ الشبوط يتأرجح يمينًا ويسارًا، ولكن "شوبرت" نجح في احتواء مقاومته العنيفة.

هتف "برترام" دون أن يرفع عينيه عن الماء:

- لدينا بيج بن بالفعل، سمها ضربة معلم. ضربة معلم تسمية حلوة، أليس كذلك؟ هي إذًا ضربة معلم.

ظهر الشبوط على السطح، فصاح "شوبرت":

- هيه! يا سلام عليك يا "ديتر"!

صرخ "برترام" متحمسًا:

- على وشك الهبوط، اجهز!

بدا الأمر وكأن السمكة تخلت عن مقاومتها. موجات صغيرة تدافعت إلى الشاطئ.

سحب "شوبرت" سمكة الشبوط. حاول بساعده أن يزيح خصلة من شعره عن جبينه اللزج، إلا أن أنفه اصطدم بالسمكة. قال:

- يع!

ثم لمع ضوء الفلاش.

تساءل "برترام":

- ماذا بك؟ لماذا قلبت وجهك هكذا؟

لم يجب "شوبرت". الشبوط يرتطم بالميزان. قال "شوبرت" ثم انحرف جانبًا حتى يفسح لـ"برترام".

- 51 وخمسة من عشرة، وستة من عشرة.

راح يراقبه وهو ينحني على الميزان لقراءة المؤشر، ثم وهو يرفع السمكة قليلًا لينظر أسفلها قبل أن يعيدها.

قال "برترام":

- 51 وخمسة من عشرة. غير معقول. 51 وستة من عشرة.

وقفا جنبًا إلى جنب ناظرين إلى الشبوط. تقدم "برترام" خطوة إلى الأمام:

- الرجل ليس مبتدئًا. غير معقول. ضربة معلم!

قال "شوبرت":

- أشعر بالغثيان. الرائحة عفنة.

رد "برترام":

- كلام فارغ. هيا تغلب على قرفك.

يفرد المقياس المتري على السمكة. 94..

- 48. ألا تستطيع على الأقل التقاط صورة؟ ماذا حدث لك؟

تناول "برترام" مرهم الجروح.

- نسينا الماء.

يشير إلى الخياشيم. ثم مر بأصابعه داخل فم الشبوط.

راح "شوبرت" يدلك قلبه، ممسكًا آلة التصوير بيده اليسرى.

- لن يصدقك أحد يا "ديتر"، فعلًا. كل مَن يرى الصورة سيعتقد أنك استعرت السمكة من أحد، استعرتها مني.

- أو العكس.

- كيف؟

- الكاميرا لا تُظهر تاريخ التقاط كل صورة.

انقلب وجه "شوبرت" وحوله بعيدًا، ثم قال متألمًا:

- آه على حظي النحس.

- تقصد...

انهار "شوبرت" جالسًا.

- ماذا، ماذا حدث يا "ديتر"؟ هل تشعر بالغثيان؟

تمدد "شوبرت" على العشب.

- لا بد أن أتمدد.

قال ثم رقد على ظهره.

- الوخز مؤلم.

- ماذا؟

سحب "برترام" الشبوط إلى الجانب.

- ماذا حدث؟

- سينقضي الأمر بعد لحظات.

قال "شوبرت". عض على شفته السفلى، ثم راحت يده تدلك جسده تحت القميص.

- ابعدها من هنا، من فضلك يا "بيتر". رائحتها عفنة.

نزل "برترام" المنحدر وفي يده السمكة. تعثر عدة مرات، ولكنه كان يعود ويستمر في المشي.

عندما وصل الماء حتى ركبتيه ترك الشبوط يسقط. هبط أمامه حتى وصل إلى القاع. خبطه "برترام" بأصابع قدميه. وانحنى، لكنه لم يلبث أن نهض. صرخ "برترام":

- "ديتر"!

لم ير سوى الخيمة وحبل الغسيل المشدود وعليه جواربه المبلولة.

- زيوس!

عكس التيار سطعت أشعة الشمس بعد أن اخترقت الضباب. الآن يستطيع المرء أن يفرق بين ألوان السيارات على الضفة الأخرى.

- يا متسلق الجبال، أنت!

صاح "برترام".

- يا متسلق الجبال!

وفجأة انحنى دافعًا الشبوط أمامه كأنه قارب صغير. شعر بالماء يعتصر خصره، وبالطمي والأحجار تحت أقدامه. صرخ عاليًا.

انجرفت السمكة مع التيار. سار "برترام" راجعًا في اتجاه الشاطئ وذراعاه مفرودان. عندما كان يقطع الأمتار الأخيرة قبل الشاطئ استدار مرة أخرى. اعتقد أنه لمح ثانية بطن الشبوط الأبيض في الانعكاسات الضوئية لشمس الصباح.

جفف "برترام" يديه في البلوفر، وجرجر قدميه بين الحصى والزلط حتى وصل إلى الصنارة. صدرت خشخشة خفيفة عن شبشبه، ثم صعد التل.

ركع طويلًا بجانب "شوبرت" على العشب. ثم نجح أخيرًا أن يريح رأس صديقه على حجره، وأن يغلق عينيه وفمه. ما زالت آثار أسنانه العلوية واضحة على شفته السفلى. قال "برترام":

- ماذا بك يا زيوس!

وبإحدى يديه راح يتحسس جبينه وخده، وباليد الأخرى العين الزجاجية.



(16)

علب



"جيني"، المتدربة على التمريض، تتقابل مع المريضة "ماريانا شوبرت" بالقرب من مستشفى "فيرشو" في برلين. يتبادلان الحديث حول رجل ميت. "مايك"، الجرسون الشاب، يقوم بخدمتهما. سيجارة "جيني" تحترق في المنفضة. قيم زائلة وأخرى خالدة.

- لماذا تحكين لي هذا؟

- اعتقدت أنك تريدين أن تعرفي...

- لا أصدقك.

قالت "جيني":

- هذا شأنك أنت.

كانتا تجلسان متجاورين على البار. الجرسون الشاب كان قد انتهى من صنع القهوة ومن إعداد كأس جين تونيك لـ"جيني". بعد ذلك جمع الكراسي

من الموائد. ثم عبر ستارة واختفى في الداخل، ولم يعد يظهر إلا بين الحين والآخر حتـى يفـرغ الطفَّاية. شعره كثيف وأشقر يميل إلى الاحمرار. بدا شاحبًا ومـنكسرًا، أو ربمـا منهكًـا فحسـب. ضوء النهار يتسلل ضعيفًا من النافذة بسبب السقالات المعلقة أمـام المنـزل التـي يتـدلى مـن أمامها غطاء طويل من المشمع. كانت الساعة حوالي التاسعة صباحًا.

قالت "جيني":

- من المفروض أنك تعلمين.

- ماذا؟

- أن ما أقوله صحيح.

- لا.

- قال إن بينك...

- اسمعي...

قالت "جيني" وهي تطفئ السيجارة التي دخنت نصفها:

- لم يكن بيننا شيء. ولهذا حكيت لك ذلك، حتى لا تفكري في الأمر، وتعتقدي أنك الســ...

- لم أعد... أريد كل ذلك. لم أتحدث عنه أبدًا. ولا مع بني آدم واحـد. لأنـه لا يهـم أحـدًا. تحشرين أنفك فيما لا يعنيك.

تناولت "جيني" رشفة، وقالت:

- متأسفة.

بقيت في الكأس قطع ثلج.

- اعتقدت...

- ما تقولينه ليس سوى تخاريف ومحاولة فاشلة بعمل حكاية...

- لماذا اتصلت بي إذاً؟ كان بإمكانك أن تلقي الرسالة في الصندوق وينتهي الأمر.

أغلقت المرأة عينيها للحظة سريعة، ثم تخطت عيناها الكتفين وحدقت في الفراغ.

- أعطتني الشرطة أشياءه، هذا واحد.

ورفعت إبهامها الأيمن.

- اثنان: لقد وجدت الرسالة في حقيبة سفره، لم يكن عليها طابع. لا أعرف واحدة اسمها "جيني ريتر" في برلين. العنوان كان غريبًا عليَّ. تناولت دليل التليفون واتصلت بك.

- أردت أن تعرفي من هي "جيني ريتر".

ألقت المرأة نظرة على أظافر يديها قائلة:

- لا. لم أرد أن تستلمي رسالة من مُتوفى.

- ولكن فيما بعد...

- لا يتحدث المرء في التليفون عن هذه الأشياء. كان عليك أن تعلمي هذا كممرضة. أردت أن أخبرك بما حدث لزوجي.

- ألم تتعرفي على صوتي؟

- حتى ولو! من يخطر على باله شيء كهذا؟ كما أنني لم أكن أعرف اسمك بالكامل.

- ألم تشعري بالفضول والرغبة في معرفة ما بداخله؟

سحبت "جيني" الظرف الرمادي من جيب الجاكيت ووضعته بين فنجاني القهوة، ثم أضافت:

- لو كنت مكانك، لشعرت بالفضول. أنا أريد دائمًا أن أعرف الحقيقة.

تشعل لنفسها سيجارة وتنفخ في عود الثقاب لتطفئه.

ردت المرأة وهي تراقب الجرسون الذي ظهر فجأة:

لم أعد أريد ذلك.

قالت "جيني" ورفعت كأسها الفارغ:

- أريد كأسًا آخرً.

- وحضرتك؟ قهوة؟

- لا، شكرًا. ربما سأشرب الماء، من غير شيء، ماء من الحنفية، ممكن؟

قال الجرسون ووجهه يشرق للحظة:

- طبعًا.

صمتًا حتى وضع الجين تونيك لـ"جيني"، ثم ذهب إلى الخلف بكوب فارغ.

سألت المرأة بصوت منخفض:

- ماذا تعرفين عني؟

- اسمك الأول.. "ماريانا".

- هل أعجبك ذلك، رجل بعين زجاجية؟ أتخيل أنك.. لو أردت.

- لم يكن "ديتر" ليلفت نظري – وبعدين؟

- ولا شيء. لم يكن ليلفت نظرك...

- كان سيكسر ساقه عندما اصطدم بثلاثة كراسٍ في طريقة إلى الشباك، بدلًا من أن يزيح الكرسي من طريقه. لكنه سرعان ما نهض.. بسبب المعطف.. كوَّره

على حجره، وعندما جاءت قائمة الطعام لم يعرف أين يضعه. كان دائمًا قلقًا- يأتي بكم هائل من حركات لا لزوم لها، أتفهمين؟ هذا غير حديثه بصوت خافت حتى إن النادلة كان لا بد أن تسأله ماذا يعني. كان يجلس بحذر، محملقًا في طبقه حتى لا تتقابل نظراتنا. وعندما انتهينا دفع على الفور ثم انصرف.

قال الجرسون:

- تفضلي. ليست مثلجة، فقط باردة.

كان يتحدث بلكنة أهل "سوابيا"*.

أجابته المرأة:

- شكرًا.

- شيء آخر؟

- شكرًا جزيلًا.

راحت تبحث في شنطة يدها. تردد الجرسون وظل واقفًا، ثم غيَّر الطفَّاية وانصرف.

أمسكت "جيني" بكوعها.

- تقابلنا الأربعاء التالي مرة أخرى. ظننت أنه يتردد كثيرًا على هذا المكان، وهو ظن أنني أجلس دائمًا هناك. عزمني على الغداء. حدث كل شيء بالصدفة.

أدارت "جيني" معصمها الأيسر حتى اصطدمت ساعتها بكأس الجين.

- إذا أمسكتُ بسيجارة، كان يُسرع بإشعال ولاعته. فإذا انطفأت السيجارة، كان يسرع بإخراج سيجارة ليشعلها لي مرة ثانية. كان يساعدني على ارتداء

---

* سوابيا منطقة تقع في ولاية بادن- فورتيمبرج بجنوب ألمانيا (الغربية سابقًا).

الجاكيت، ويُبقي الباب مفتوحًا لي.. عندما لاحظت مقصده قلت له إنني نشأت في برلين الشرقية، في "فريدريشسهاين".

- أي مقصد؟

- كان يعتقد أننا هنا جميعًا من الغرب لأننا نجلس في غرب برلين، لهذا ذكرت ذلك. إمَّا أنه لم يعرف أين يقع حي "فريدريشسهاين"، أو...

- لم يكن يحب برلين. لم نزر برلين أبدًا. ولا حتى قصر "سانسوسي". كان يفضل "دريسدن"، والأبنية ذات طراز الباروك الإيطالي. وهناك كانت الجبال أيضًا، جبال الألب. بالتأكيد أخبركِ بأنه يتسلق الجبال.

قرَّبت الكوب إليها وأخذت قرص أسبرين من العلبة وتركته يسقط في الماء.

- لم أجد للموضوع أهمية.

قالت "جيني" وهي تهرش في كلا ساعديها في الوقت نفسه.

- شربنا كأسًا معًا، وفجأة عرض عليَّ ثلاثمائة مارك. لم يرد مني أكثر من أن يرقد ويستيقظ بجانبي.

كلا المرأتين ترمقان قرص الأسبرين الذي كان يتحرك في قاع الكوب وكأنه سمكة صغيرة.

- كان يعرف أنني سأصبح ممرضة.

- كنا نطلق عليهن فيما مضى "ملائكة الفينول". كل العاملين في المستشفيات كانت تفوح منهم رائحة الفينول.

- قلت له: سأصبح ممرضة. إلا أنه ابتسم، وكأنه لا يصدق.

- يبدو بالفعل أنه لم يصدق. ألم تشعري بالإهانة؟ لماذا لم ترفضي؟

- نعم، كان عليَّ أن أفعل.

راحت تتأمل الستارة، ثم نظرت إلى الرف الموضوع عليه زجاجات "الشنابس" وإلى الجدار ذي المرايا، ثم رجعت بعينيها إلى الكوب حيث كان القرص يفور ويكاد يستقر في وضع رأسي.

- هل أعجبك؟

- عندما لاحظ أنني أفكر في الأمر عرض عليَّ خمسمائة. لم أشعر بالخوف.

- ولكن في المرة الأخيرة...

- لم يكن للأمر علاقة بالخوف.

تحسست يد "جيني" كأس الجين تونيك.

- لا تريدين التحدث عن ذلك؟

- لقد فعلت. لكنك لا تصدقينني.

- كل ما قلتيه إنه كان عنيفًا.

بللت "جيني" شفتيها من الكأس.

- شاذًّا، وليس عنيفًا.

- نعم؟

- شاذ.

- ماذا فعـ... ماذا حدث؟

قالت "جيني" مشيرة بذقنها تجاه القرص:

- كالمسحوق الفوار. الشيء الوحيد الذي كنت أريده بعد ذلك - كنت أريد أن أرى وجهه. عندما يذهب لزيارتك، أو عندما نتقابل في المحطة، أو عندما أفتح

باب حجرتك ويكون هو جالسًا على فراشـك، وعنـدما أسـألك مـا إذا كنـت تـأكلين في العشـاء سجقًا أم جبنة. أردت أن أرى وجهه.

- أردتِ ابتزازه؟

- تخيلت ما كان يدور في رأسه.

- وبعدين؟

- الرعب.

- كنت تتمنين...

- أن يصيبه الرعب، نعم.

أومأت المرأة، ثم هزت رأسها.

- ملاك الفينول كـ... هه...

- لست هكذا. وأنت تعلمين ذلك أيضًا.

- كنتِ تأخذين نقودًا.

- حدث هذا بالصدفة. كان يريد ذلك. لماذا لا تصدقينني؟

- حسب كلامك اجتمعتما خمس مرات. يعني قبضت خمس مرات.

- لا. آخر مرة لا.

- لقد أخذت نقودًا منه.

- لا علاقة لهذا بذاك. ليس من الضروري أن تهينيني.

عام القرص على السطح. تفتتت بعض القطع والتصقت بالحافة. من الكوب تنـاثر الـرذاذ على الظرف.

- نعم، والآن قد هرب منك. فطس أثناء صيد السمك. عندما وجدوه، كان فات الأوان.

- أعرف. أخبرونا في القسم. كان يحكي كثيرًا عن صيد السمك. كان لا يتوقف عن الحكي. كان يستطيع الحكي.

- كان مدرسًا.

- كان يريد أن يشرح لي الشرق كله.

- كان يشعر بالمرارة.

- أعرف، بسبب العين، لأنهم لم يركبوا له العين بطريقة مضبوطة.

- ماذا؟

- طبعًا. كان يكره ألمانيا الشرقية لأنهم لم يستطيعوا هناك أن يركبوا العين بطريقة مضبوطة، على الأقل عينه هو.

- بسبب العين؟

- وأيضًا بسبب اسم الشهرة.

- كان ذلك بعد الحرب. عثروا على ذخيرة... لهذا لم...

- أعرف حكاياته، كلها، من المدرسة المسائية حتى مجموعة الرسم والدراسة، ثم كيف طردوه.

- من غير سبب، من غير سبب على الإطلاق!

- وأنه كان مرغمًا على العمل في مناجم الفحم، كي يثبت حسن سيره وسلوكه. ولماذا لا يريدونه كمعلم، أو على الأقل في الوقت الحالي، وكيف يضطهدون ابنتك، وأن "كوني" هي الأولى التي أدركت ما ستؤول إليه الأمور، وحكاية العلب، وكل هذه الأشياء.

- ماذا، وما حكاية العلب هذه؟

ظلت المرأة ممسكة بالكوب وفيه القرص الذائب.

- هكذا أطلق على الأمر، بسبب مجموعة العلب الصفيح... عندما كان "ديتر" يبيت هنا، في شقة ابن أخيك، شارع "ليزلوته هيرمان"، كان يعرض مجموعة العلب التي يملكها. أخي كان كذلك بالضبط. كان يستبدل كل شيء من أجل العلب، حتى الفلوس.

- علب بيرة فارغة؟

- نعم، بالطبع. ألم تتحدثا أبدًا عن ذلك؟ كان يعبث بمحتويات الزبالة في "ميشندورف". لذلك لا يستطيع الآن أن يقلع عن هذه العادة. ليس هناك علبة من غير حكاية. الآن أصبح كل شيء خردة لا قيمة له. الآن يمكن الحصول عليها من كل كشك. هذا ما قاله بلسانه. لكنه – كما يبدو - لم يكن مقتنعًا أبدًا بذلك.

- تتحدثين عن زوجي؟

- ربما ينطبق هذا الكلام عليه أيضًا.

- تحدثتما عن هذه المواضيع؟

- طوال الليل. ذات مرة قال: انظري، أليس هذا رائعًا؟! كان الفجر قد طلع. لم ننم دقيقة واحدة. تناول يدي وراح يقبلها بحذر، قبلة هنا، وقبلة هناك، حتى أطراف الأصابع. فجأة وجدت نفسي أتثاءب. شعرت بفمي يتسع ويتسع، ولم أقدر على فعل شيء لإيقافه. أثناء ذلك راح ينظر داخل فمي. طوال الوقت. لم أستطع أن أضع يدي أمام فمي، فقد كان يمسك بها. اعتذرت، لكنه قال: يمكنك أن تكرري ذلك كلما شئت. ثم واصل تقبيل يدي. كان كل شيء فيَّ يعجبه.

- لماذا تحكين لي ذلك؟

- حتى تصدقيني. حتى تتأكدي من أنني لم أكن أحسب حساب كل شيء. ربما كان عليَّ أن أخمن العواقب، عندما يظل شخص يحكي ويحكي، ولا شيء غير هذا، لا يمكن أن تكون النهاية جيدة.

- أحيانًا كانت أبراج دماغه كلها تطير.

ضحكت "جيني". تناولت كأسها ثم وضعته مرة أخرى.

- ولكن... لماذا تضحكين إذًا؟

- كيف؟

هزت "جيني" رأسها.

- إذا كان قد حكي لك كل هذا – ماذا تريدين أكثر؟

- أنت لا تفهمينني.

وضعت "جيني" يدها على ساعدها.

- في مترو الأنفاق جلست أمامنا امرأة تركية، 20 سنة ربما، ومعها خمسة أو ستة أكياس تسوق. كفاها ضخمان، كأنهما جاروفان. من خلالهما استشف "ديتر" أنها لا تتوقف عن العمل، ولم يستطع أن يهدأ أبدًا. هذا بالضبط هو "ديتر".

- ركبتما معًا مترو الأنفاق؟

- نعم، لماذا؟

لم يتبقَ من القرص سوى حلقة بيضاء على حافة الكوب.

قالت المرأة:

- انتبهي! هنا! ستسقط حالًا.

أبعدت "جيني" السيجارة من حافة المنفضة ثم أطفأتها.

- هل ما زال يؤلمك؟

وأشارت "جيني" بالإبهام ناحية الثدي.

- لا بد أن أتواجد هناك في العاشرة، أشعة. لا بد أن أنصرف.

قالت "جيني" وهي تومئ:

- نعم. ليس من الضروري أن نودع بعضنا.

ثم مالت جانبًا.

- أُثني دائمًا مؤخرة الحذاء فأرتديه كالـ"سابوه".

مدت ساقها لتجذب الحذاء إليها بأصابع قدمها، فلامس رأسها كتف المرأة. حتى عندما ضغطت وجنة "جيني" على خصرها، بقيت مستقيمة في جلستها ولم تحرك ساكنًا.

قالت "جيني" عندما ظهرت ثانية:

- إنه حذاء جيد. ولكنني أثنيه من وراء دائمًا، كسل فظيع. هل ستمشين؟

- إنهما خطوتان فحسب.

أومأت "جيني".

- هل تشعرين بالتحسن – بعد الأسبرين؟

- يا إلهي!

صاحت المرأة وهي تنزل من على كرسي البار العالي الخالي من المساند.

- هذه الكراسي لم تُصنع لي!

وجدت نفسها تستند رغمًا عنها على فخذ "جيني".

- عندك زر فوق أوشك على الوقوع.

عندما وقفا متواجهين، قالت "جيني":

- شكرًا.

قالت المرأة:

- عليكِ ألا تدخني كثيرًا هكذا. والأفضل ألا تدخني إطلاقًا.

أومأت "جيني" مرة أخرى وتتبعتها ببصرها حتى انغلق الباب.

سأل الجرسون الذي وقف هناك فجأة:

- ها، وبعدين؟

- هل ارتحت الآن؟

راح يمسح طاولة البار. رفع المنفضة ثم وضعها في الموضع نفسه. ظلت "جيني" جالسة في مكانها.

- لا أفهم معنى هذا كله! ماذا استفدت من ذلك؟

أحنى جذعه وخفض رأسه حتى يتطلع إلى وجهها.

- "جيني"! أنا أتحدث معك. لم تصدق المرأة كلمة مما قلتيه. ماذا يعني كل هذا الكلام الفارغ؟

أخذ يراقبها وهي تنقر على العلبة مُخرجةً سيجارة، فأسرع إليها بالولاعة.

قالت "جيني" وهي تنفخ الدخان جانبًا:

- أنتَ ظننت أنني سأحكي كل شيء. لم تترك مكانك وراء الستارة لأنك لم ترد أن يفوتك شيء.

- تخاريف. هل عزمتيها على الأقل؟

- أتعرف ماذا يسمون ذلك يا "مايكي"؟ أنا أسميه تلصص.

وضعت "جيني" السيجارة على حافة المنفضة ثم فتحت الظرف الرمادي وألقت نظرة داخله.

قال الجرسون:

- هذه الوظيفة لا تناسبك. لقد قلت لك ذلك على الفور. لا تناسبك.

- ليست وظيفتي.

تورد وجهه ولمعت جبهته وطرف أنفه، ثم قال دون أن ينظر إليها:

- أنت فعلًا تخرفين، إمَّا أن تتحملي، أو تتخلي عن الأمر. عندئذ لن تكون وظيفتك، فهمتِ؟ ولماذا تجلسين هنا، على البار، إذا كنت تريدين ألا أسمع شيئًا؟

وضع كأسًا أخرى من "الجين تونيك" أمامها، ثم أضاف:

- كانت المرأة تفضل أن تجلس على أي مائدة عادية، في حالتها هذه.

شرعت "جيني" تحصي الأوراق النقدية بكلتا يديها.

- أتريد أن تعرف ماذا كان يفعل؟

قلب الجرسون الظرف الفارغ على طاولة البار، وسألها:

- هل هذا خطُّه؟

- محتمل. محتمل أن يكون هذا خطه.

تثاءبت "جيني" وأحصت الأوراق النقدية للمرة الثانية.

- لا تريد أن تعرف إذًا يا "مايكي"؟

قال الجرسون:

- كريم جدا. خمسمائة؟ كان يمكنك أن تنتظري حتى يدفنوه، على الأقل حتى ذلك الحين.

دست النقود في حقيبتها.

- أحتاج إلى حذاء جديد.

وتثاءبت مرة أخرى.

صاح الجرسون:

- يا إلهي! غير معقول ما تقولينه يا "جيني"! أنا أشتري لك عشرين حذاء، ما شئت من أحذية!

مسح يديه في المنشفة قائلًا:

- أنتِ تعبانة؟

- لا. ولكن هذه العتمة هنا.

- فنجان قهوة آخر؟

- لا.

قالت "جيني" وظلت تنقر بطرف إصبعها على السيجارة حتى لم يعد الفلتر على حافة المنفضة.

- أنا على ما يرام. أشعر فعلًا بأنني في حالة طيبة.

بحذر قربت الكأس المملوءة إلى فمها وشرعت تحتسي، بينما كان الجرسون يتطلع إليها واضعًا يديه في وسطه.

(17)

ديون



"كريستيان باير" يحكي عن إجازة قضاها في نيويورك مع "هني"، صديقته الجديدة. زيارة مفاجئة. رجال ومال ومياه.

بعد خمسة أيام في المدينة لم نكن شاهدنا إلا تمثال الحرية، ومركز التجارة العالمي، ومتحف التاريخ الطبيعي. درجة الحرارة بلغت في الحادية عشرة - وفق ما شاهدنا على شاشة التليفزيون - 101 درجة فهرنهيت. حسب معادلات التحويل المكتوبة في الدليل السياحي "بِديكر" فإن هذا يساوي 38,33 درجة مئوية. كل شيء حار ورطب، حتى قاعدة الحمام. الكتب تتموج صفحاتها.

جهاز التكييف معطل. الجهاز مثبت على النافذة اليسرى، فوق الفراش الكبير بالضبط. يبدو كأنه ظهر جهاز تليفزيون قديم. بسببه حصلنا على تخفيض قدره 25% على هذه الشقة المملوكة لـ"ألبرتو"، المهندس الإسباني. الجدار الأيسر مكسو بالمرايا حتى السقف. لهذا نستطيع دائمًا أن نراقب أنفسنا

ونحن نسير في طريقنا إلى الحمام أو إلى باب الشقة الذي نصل إليه بالدوران حول المائدة الكبيرة وبتجاوز ركن المطبخ.

ترقد "هني" على بطنها مُديرةً رأسها. بيدها اليسرى تثبت شعرها. أردافها بيضاء، وكذلك ذلك الشريط الرفيع الممتد تحت الكتفين. أمَّا أنا، فواضعًا كلا الوسادتين وراء ظهري، رحتُ أقرأ بصوت عال من مجلة "جيو" مقالة عن اليهود في "كراون هايتس".

سألتُها:

- نمتِ؟

حركت "هني" رأسها قائلة:

- لا.

كلانا يحلم أحلامًا غريبة. الليلة الماضية، لم يكن حلمًا، كان بالأحرى شعورًا، أو موقفًا: المرتبة، سريري، مدينة آسيوية ساحلية في المساء أو الليل، الأضواء تغمرها. كل شيء تحتي يموج بالحياة، سيان أين أضع رأسي: تحتها دائمًا حياة. المكان يعج بالأصوات والكلام، جزء منه موجه إليَّ. لم أتخلص من الحلم حتى عندما ذهبت إلى دورة المياه. لم أهدأ إلا في الصباح التالي. وكأن السرير تحتي قد نعس أخيرًا. أسألها:

- هل أفتح الشباك؟

رأس "هني" يتحرك.

- هل يعني هذا لا؟

- لا.

قالت وفمها على الملاءة. كل ليلة، عندما تمر عربة الكنس الآلي، ينطلق جهاز إنذار من إحدى السيارات. أستطيع تمييز تتابع الإشارات المُنذرة، ثم الهدوء الذي

يعم لثانيتين قبل أن يتتابع كل شيء من البداية مرة أخرى. أيضًا يهتز سلم المطافئ في بعض الأحيان. أمَّا خزَّان المياه على السطح المقابل لنا فهو غير محكم. يصدر عنه صوت يسببه صوت الخطوات. في الصباح تتساقط القطرات فوق جهاز التكييف. ربما يسقي أحد فوقنا النباتات. بسبب السلك الشبكي على النافذة – الذي يمنع دخول الذباب – لا يستطيع أحد أن يتكئ على الدرابزين ناظرًا إلى الخارج.

سألتها:

- أتريدين شرب شيء؟

- واصل أنت قراءتك.

- انتهيت. هل أعمل شايًا؟

- لا أريد شايًا. بالأمس سكبتَ الشاي كله في الحوض.

ليس كله.

إذًا ليس كله.

قالت "هني" الجملة مُديرةً رأسها إليَّ:

- لماذا لم تقل شيئًا عندما حدث ذلك؟

قلتُ مقلبًا في صفحات مجلة "جيو":

- الأمر ضايقني. يشعر المرء وكأنه ناقص، وكأنه مبتور.

- يا إلهي! من الممكن أن يفكر المرء في الأمر بطريقة أخرى!

صاحت وهي تستدير على ظهرها، ثم قعدت، وأضافت:

- هل الأمر بهذا السوء بالنسبة إليك؟ أسبوع كامل دون إرهاق وضغط عصبي. ثم إنك تريد أن تحيا على الخبز والماء!

نعم. المرء يشعر وكأن سره انكشف.

قالت "هني":

- هذه مشكلتك.

لفت شعرها حول يدٍ، وبالأخرى راحت تتصيد التوكة من تحت السرير. النصف الأسفل من ثديها أبيض. أضافت:

- أنا آسفة، ولكن هذه بالفعل مشكلتك. على كل حال لم يغلقوا حساب كارت الائتمان عندي! وما زال لدي بعض المدخرات. وإلى أن تنفد فإنني أريد أن نستمتع بالخروج معًا، وأن نستقل سيارة ليموزين ضخمة فخمة، وأريد مطاعم بشموع على الموائد، وجرسون يشرح لي قائمة الطعام، ومنظرًا خلابًا. وفوق ذلك أريد أن أطير بالهليكوبتر، وأن أذهب إلى "أوبرا متروبوليتان". وأحصل عليك أنت أيضًا فوق البيعة. كما أريد مياها معدنية إيطالية.

نهضت "هني". قرفصت أمام الثلاجة، وبكوعها أبقت الباب مفتوحًا ثم أخذت تشرب. كانت تشرب في نَفَس واحد وهي ترفع الزجاجة، إلى أعلى، إلى أعلى، حتى رأيت الملصق الأزرق. تركت الباب ينغلق ثم وضعت الزجاجة على الأرض بجانب الأخريات.

قالت وهي تتفحصني من فوق إلى تحت:

- ثم.. إنني أريد أن أشعر بالسعادة مرة أخرى. لا تقل شيئًا، أرجوك. أعرف أنك لست ماكينة. أردت أن أقول ذلك فحسب. الكلام مسموح، أليس كذلك؟

تناولت قبعتها المجدولة من القش وتأملت نفسها في مرآة الحائط مضيفة:

- كما أن الحياة هنا ليست غالية كما يبدو. ثم إنها "مانهاتن"!

شدت حافة القبعة بكلتا يديها، ثم لبست الصندل ناظرة إليَّ:

- ما رأيك؟ اعتراضات أخرى يا "مستر يونيفرسوم"؟

- أنت أيضًا مفلسة.

- سأشتري لك بابيون. بابيون وربما بدلة سموكنج. كانت رخيصة جدًّا، وتفصيلة حديثة.

تسحب من تحت مائدة التليفزيون مضرب البيسبول الذي يملكه "ألبرتو"، ثم تضعه على قدمها، وتضغط بظهر يدها اليسرى على خصرها.

- الصبي كان اسمه ماذا؟ "دوناتلو"؟

- تعالِ هنا.

الملاءة غير مرتبة ورطبة قليلًا بسبب العرق.

قالت وغيرت القدم التي ترتكز عليها:

- "دوناتلو". لا ينقص إلا الجوارب.

- سنذهب إلى كل مكان، إلى أي مكان تريدين، إذا أنت..

- شعره طويل، وله كرش ظريف..

نفخت "هني" بطنها:

- هكذا. ليس مثلك، ولكن هكذا.

عندما نهضت هزت رأسها، قم قالت وأعطتني مضرب البيسبول:

- لا بد أن أذهب لإنجاز شيء ما.. للحمام.

تسرع في صندلها إلى دورة المياه. تترك القبعة. مقابلنا، في الشباك العالي، كان هناك كرسي أبيض من البلاستيك بظهر كالمروحة، وبورقة موز على القاعدة. أدفع بالمضرب ثانية تحت التليفزيون، وأستلقي بعرض السرير. أسمع صوت بولها وهو يتقابل مع الماء في التواليت. الباب موارب.

نادرًا ما نخرج من البيت قبل الواحدة أو الثانية. إذا لم نتحمل، ندخل محلًا تجاريًا. الجو لا يتلطف في المساء. تظل الحرارة كامنة في الأسفلت، في الأحجار. أمَّا محطات مترو الأنفاق فهي الجحيم. وفي كل مكان تفوح رائحة عفونة. أسمع السيفون، وبعد برهة الدش.

تعرفت إلى "هني" عندما كنا نبحث عن أحد يكتب نصائح حول كيفية التعامل مع الحيوانات الأليفة، وعمومًا عن أحد لديه معلومات عن كل ما هو مدهش في عالم الحيوان. كل أسبوع تكتب "هني" لنا عمودين. مرة عن القطط، مرة عن الديدان، مرة عن الطيور المهاجرة أو عن العناكب. قلت لها إنني أريد السفر إلى نيويورك، فقالت:

- وأنا أيضًا.

عندما دق الباب، أغلَقَت الدش. لبرهة يسود الصمت في المكان. بعد الدقة الثانية ارتديت بنطلون الرياضة، وسرت إلى الأمام ناظرًا في الحمام. "هني" تقف تحت الدش مغلقة عينيها. تهمس:

- أغلق الباب.

أظل ماسكًا بأكرة باب الحمام وكأنني أريد أن أحبسها، وأنتظر.

- سيدي؟ معذرة، سيدي؟! "Sir? Excuse me, Sir?"

صوت رجل، واضح ورفيع.

- أنا "روبرت فاندربلت" من شركة "بالمر" للعقارات. هل يمكنك أن تسمح لي بالدخول من فضلك سيدي؟" I'm Robert Vanderbilt from Palmer Real Estate, Sir, would you please open the door, please? "

العين السحرية في الباب. "مستر"، ينادي.

- أستاذ.. "باير". أنا مضطر لالتقاط بعض الصور لشقة الأستاذ "سوليفانز"، سيدي! سأقوم بإدخال بطاقتي من تحت عقب الباب، هل

يناسـبك هـذا، سـيدي؟! "Mister..... Bayer. I have to take some photos of Mr. Sullivans apartment, Sir. I'll pass my card under the door, okay, Sir? "

كارت "روبرت ج. فاندربلت" يظهر أمام أصابع قدمي.

- سيدي، من فضلك افتح الباب. "Sir, would you please open the door, please?"

أفشل في نزع السلسلة المثبتة على الباب لاعوجاج المجرى المعدني. لا بد أن أحركها ببطء وعلى المستوى نفسه. عند أقل غلطة تبقى محشورة، ولا بد من إعادتها حيث كانت. أحاول مرة ثانية، وفي النهاية مرة ثالثة. كنت أعتقد أنني الوحيد الذي يسمع صوت احتكاك السلسلة بالمجرى. عندئذ أدع "روبرت ج. فاندربلت" يدخل.

- اللعنة، ماذا كنتم تفعلون؟

ترمش "هني" بعينيها. تنتشل التيشيرت من الحقيبة. تمسك بالإبهام والسبابة المنشفة الملفوفة حول خصرها. منشفة أصغر لفتها كالطربوش فوق رأسها. تسألني:

- ماذا حدث؟

- "روبرت ج. فاندربلت". وسيط لبيع غرفة "ألبرتو".

- ماذا يفعل؟

تجلس على السرير، عيناها محمرتان.

- يحاول بيع شقة "ألبرتو".

- وأنت صدقت؟

تَسقط المنشفة من على حجرها، فتتناولها وتغطي فخذها.

- مرر لي كارته من تحت عقب الباب.

أشعر بالعرق ينساب على ظهري وتحت ذراعي، بل وعند القدمين.

- لماذا لم تتصل تليفونيًا وتسأل عمًّا إذا كان ذلك مسموحًا له، وإذا كان مسموحًا لك؟ هل تعرف ماذا يريد أن يفعل "ألبرتو" بشقته، وأي رجل هذا!

أسألُها وأجلس:

- ماذا حدث؟ كان هذا رجلًا لطيفًا يهتم بأمر الشقة. لا شيء غير هذا.

- نحن هنا في نيويورك، وأنت تفتح الباب لرجل غريب – وتتركني أنا واقفة في الداخل وكأنني غير موجودة على الإطلاق. تتبادلان الحديث و..

تغلق عينيها وتضغط بأناملها على الجفون.

- "هني".

-..... أو على الأقل تسأل إذا كنتُ أحتاج شيئًا.

تسحب المنشفة من على رأسها وتلقي بها خلفها. الكيلوت على طرف السرير.

- على الأقل كان يمكنك أن تدق الباب وتسألني إذا كان كل شيء على ما يرام.

- ولماذا لا يكون كل شيء على ما يرام؟

- ماذا! كل شيء مُلقى هنا، الفلوس، الملابس، جواربك.. كان يمكنك أن تنتظر على الأقل حتى أنتهي من ارتداء ملابسي.

- مستر "فاندربلت" انصرف، والموضوع انتهى.

- أنت دائمًا هكذا! كل شيء عندك انتهى ومر. وماذا لو رجع؟ أو لو كان يتجسس؟ لو كان جاء إلى هنا فقط من أجل ذلك؟

- إذًا فلن يجد شيئًا.

- يا إلهي!

تنظر لبرهة إلى السقف، ثم تحدق في:

- على الأقل الآن يمكنك الاتصال.

- "ألبرتو" هو الذي أرسله. وإلا فكيف له أن يعرف اسمي؟ لقد سمعتيه وهو يناديني!

- كيف تريد أن تعرف كل شيء بهذه الدقة – تقول إن "ألبرتو" هو الذي أرسله؟ وماذا إذا لم يكن الأمر كذلك؟ لماذا لم يصور الحمام؟ إذا كانت شقة تهمني، فأنا أريد أن أعرف كيف يبدو الحمام!

تكور الوسادتين وتضعهما خلف ظهرها، ثم تشد ركبتيها إلى جذعها.

- أنت لا تستطيع حتى وصفه! كل طفل يسأل نفسه هذا السؤال. إلا السيد المدير.

أحضر لها من على المائدة كارت الرجل وكاميرا البولارويد. تجفف شعرها بالمنشفة.

- أنظري!

قلت لها وطلبت رقم "ألبرتو".

- وما هذا؟

- نسيها. أو لم يعرف كيف يستعملها. المرايا عاكسته أثناء التصوير.

- ماذا؟ تركت رجلًا صينيًّا يلتقط الصور في كل ركن هنا؟ لا، لا أصدق؟

- لقد قال وهو واقف بالخارج إنه يريد أن يفعل ذلك. ولا بد أن يفعل ذلك! إذا كان يريد بيع شيء فلا بد أن يكون لديه ما يفرج الناس عليه!

تمسك "هني" الآن البولارويد بكلتا يديها. تليفـون "ألبرتـو" مشـغول. أذهـب إلى الثلاجـة. أضع زجاجة الماء "بليجرينو" على المائدة، ثم أحضر كأسين وزجاجة عصير تفاح، وأقول لها:

- فيما عدا أنه صيني، هذا إذا كان صينيًّا، لم يلفت نظرك أي شيء آخر؟

- لقد نسيتَ أن تشفط كرشك.

أقول وأعطيها كأسًا ملآنة:

- إنه يرتدي بدلة غامقة وقميصًا أبيض وكرافتة زرقاء.

- طبعًا. لقد تبادلتما الحديث وتفاهمتما جيدًا. شكرًا. خسارة أنه انصرف، أليس كذلك؟

أُعيد الزجاجتين إلى الثلاجة. أثناء السير آخذ رشفة، ثم أجلس أمام التليفون.

- قضى سنتين في تكساس. الماء سيصبح شحيحًا هناك.

- في تكساس؟ ماذا يفعل صيني في تكساس؟

أطب الرقم من جديد، وأقول لها:

- ولم لا؟ هناك يحرقون حتى الصبار كي تحصل الحيوانات على شيء يؤكل. النـاس تسـتعير تماثيل القديسين من الكنيسة، ثم يحملونها في الحقول كي يروا بأنفسـهم مـدى سـوء الوضـع. رؤوس الحيوانات أصبحت تبدو كالجماجم. الدمار والخراب حل بكل المزارعين.

- اسمع! هل تعتقد أن صينيًّا سيصبح مزارعًا في تكساس؟

- لم أدَّعِ ذلك. أنا لم أقل سوى إنه ترك تكساس، وأنه عاش هناك سنتين، وأن الجفاف دمر المزارعين. عندما تجف الأرض فإن سوق العقارات يصبح راكدًا. على الأقـل هـذا الجفـاف أمـر واضح.

- أي أمر؟

أكرر:

- أمر واضح. أمر لم يتسبب فيه أحد. لا يستطيع أحد أن يتهمك بأنك السبب. إما أن يصيبك الأمر أو لا يصيبك. لا يستطيع أحد أن يتهمك بالجهل أو الفشل. كل السخط ينصب، إذا انصب، على الرب الحبيب، أو على العذراء مريم أو أي قديس لديهم. ولكن عمومًا فإن الأمر يكون واضحًا.

- هل قال لك ذلك؟

- كان يصور ويحكي طوال الوقت. كان التصوير صعبًا بسبب المرايا. المرء يأخذ انطباعًا خاطئًا تمامًا عن الغرفة والمقاييس. لم أكن أعرف أين أقف. سيان في أي مكان، كنتُ أظهر في الصورة.

"هني" وأنا نشرب في اللحظة نفسها الكأس حتى آخرها. فخذاي يلتصقان بالكرسي، وساعداي بالمشمع.

- هل كان يطاردك من مكان إلى آخر؟

- آخ، لم يفعل أي شيء. كان ينتظر فقط. عندئذ كنت أفهم أنني أقف في المكان الخاطئ. إنهم أكثر منا تهذبًا. أعتقد أنه هرب بسبب الديون.

- بسبب الديون؟

- هكذا شعرت من كلامه.

أحشر السماعة بين أذني وكتفي وأطلب الرقم للمرة الثالثة. وضعت "هني" البولارويد على ركبة، وعلى الأخرى الكارت.

- ماذا يعني حرف الجيم قبل "فاندربلت"؟ "جينج"، "جانج"، "جونج"؟ لا، ليس "جونج". ربما جن؟

أقول لها:

- وربما "جيرهارد".

نتبادل النظر.

- ربما يبيع "ألبرتو: لأنه مديون فحسب. لن يبيعوا بأقل من 220 ألف دولار. وبالتأكيد أكثر. مبلغ سيصلح أمورهم.

- ألم تقل إن الصيني مديون؟

- في البداية اعتَقَدَ أنه يمكنه التعايش مع الديون، على الأقل هذا ما قاله. عندما يصله إنذار بالدفع، كان، ببساطة، يمزقه. ولكن ذات صباح جميل استيقظ وهو يفكر في كل الإنذارات بالدفع. تكرر الأمر في الصباح التالي، والذي يليه. لم يعد يستطيع أن يقاوم التفكير في الإنذارات. أول فكرة كانت تخطر على باله هي الديون. خاصة إذا كان بمفرده. لم يستطع أن يجمع المبلغ، هذا هو الأمر ببساطة. عندئذ هرب.

- عمَّن تتكلم؟ عن الصيني؟

- كل مراقب إداري يكلف دافع الضرائب 60 ألف مارك في السنة. وهل تعرفين كم يجمع رجل مثله؟ واحد وأربعة من عشرة ملايين مارك. تخيلي الرقم. واحد وأربعة من عشرة مليون!

"هني" تحرك الهواء بالكاميرا البولارويد. أنتظر حتى يفرغ الصوت النسائي من الكلام في جهاز الرد الآلي عند "ألبرتو" ثم أضع السماعة.

تصيح "هني":

- قل شيئًا! إنه لا يرفع السماعة أبدًا.

أرسلُ النظرَ عبر النافذة إلى الموز الأخضر، ثم أطلب الرقم من جديد.

- الصيني قال إنه هرب من تكساس بسبب الجفاف، وإنه الآن يعيش في نيويـورك ويريـد بيع شقة "ألبرتو"؟ هل هذا صحيح؟ وبالمبلغ يصلح الاثنان أمورهما؟ أعتقد أنـك فهمـت شـيئًا ما خطأ، أو أن الأمـور اختلطـت عليـك. أو أن هـذا الرجـل مـن العصـابات، ويحفـظ حكايـة سخيفة جدًّا.

تلقي نظرة قصيرة على الصورة، ثم تواصل التهوية، وتسألني:

- أم أنه يعني بالماء الفلوس.

- الفلوس، كيف؟

- نعم، ربما. ربما يستخدمون هنا تعبيرًا مشابهًا لما نقوله: الواحد غرقـان في الـرز، أو أنهـم قفلوا المحبس عليه، على المستر "جينج".. "جانج".. "جونج"؟

- ممكن نتصل به.

أنتظر سماع الصفارة بعد الصوت النسائي، ثم أقول إن "روبرت فاندربلت" كان هنا وصور الشقة كلها، وإننا نأمل ألا نكون تصرفنا خطأ.

- هل أنت راضية الآن؟

أمد يدي نحو الكأس، لكنها فارغة.

- هذا أقل ما ينبغي. فعلًا.

أقول لها في طريقي إلى الثلاجة:

- "فاندربلت" رجل لطيف جدًّا ووسيم. لم يفعل لنا شيئًا، ولا أقل شيء.

- إذا كان هذا رأيك.

- لو كنت امرأة، لوقعت في حبه.

- لكنك لم تكن ستعجبه.

قالت "هني" جملتها دون أن ترفع نظرها من على البولارويد فوق ركبتها، ثم أضافت:

- "جوفاني"، ربما، هذا محتمل. "ج" مثل "جوفاني".

من زاوية عيني ألمح صورتي في المرآة. يمكنني أن أقول لـ"هني" إنها قالت لي إن عليَّ أن أغلق باب الحمام لأنها لم تكن تريد أن يدخل أحد. ويمكنها الرد بأنه كان عليَّ ألا أفتح باب الشقة. ولكن ربما يكون الشجار حول هذه التفاهات نوعًا من الترف.

نفضت "هني" الوسائد، ثم تمددت. البولارويد الآن بجانبها. تشد التيشيرت الذي يصل إلى فخذها. واضعة يدها فوق رأسها تمسح بنصف كم اليد الأخرى عرقها فوق الجبين. في تلك الأثناء ينحسر التيشيرت مرة أخرى.

تنادي:

- "كريستيان"؟

- نعم.

- ولا شيء. كنت أريد أن أعرف فقط إذا كنت هنا.

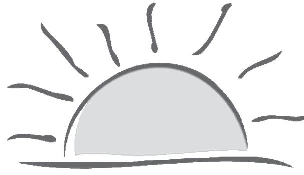
- حالًا.

أقول واضعًا الكأس في الحوض، ثم أذهب إلى الحمام. قبعتها على غطاء التواليت. لا أعرف أين أضعها. فأرتديها. أضغط على السيفون حتى لا تسمع الأصوات المنبعثة عند الارتطام بالماء.

بكلتا يدي أفتح صنبور الدش واضعًا رأسي مائلًا حتى لا تبتل القبعة. ما زال باستطاعة المرء هنا أن يفتح صنبور الماء البارد أو الدافئ، حسب احتياجه. أُقرب فمي وأشرب من الماء.

(18)

الصباح الذي أعقب ذلك المساء



"فرانك هوليتشك" يحكي عن صباح في فبراير. "باربارا" والتطورات الأخيرة في كابوسها. محاولة "فرانك" للتسرية عنها. "إنريكو فريدريش" و"ليديا" والصور.

استيقظتُ بسبب تخاريف "باربارا". ترقد على ظهرها وساعدها على جبهتها. الفجر ينشر ضياءه. "باربارا" تعاني من كابوسها مرة أخرى. ربما أكون رمشت بجفوني دون أن ألاحظ، أو ربما تقلبت في السرير، لهذا اعتقدَت أنني مستيقظ. أو أنها بدأت ببساطة تتحدث. إنها تفعل ذلك دومًا بعد هذا الحلم. تتصل بي إذا كنت غير موجود، والأمر سواء لديها أين أكون. تسير الأمور كالتالي تقريبًا: هي تجلس في السيارة أمام عجلة القيادة، ثم تتخطى امرأة تقود دراجة. عندما تعطي "باربارا" إشارة إلى اليمين وتنظر في المرآة الخلفية لا ترى للمرأة أثرًا. لا تفكر "باربارا" في الأمر كثيرًا إلى أن تصل إلى الإشارة التالية فتجد رجلًا صارخًا يمد ناحيتها يدًا ملطخة بالدماء ويحاول أن يشدها من السيارة. يداه تجذفان في الهواء ثم تهشمان الزجاج. "باربارا" ترى

نفسها ملقاة بجانب ماسورة العادم. تحاول رفع رأسـها، لـيس فضـولًا أو خوفـا، ولكـن حتـى يتمكن الرجل من ضربها على نحو أفضل. تريد أن تبدأ اليـوم مـن أولـه، تريـد أن يكـون كـل شيء غير حقيقي. "من فضلك، من فضـلك"، تـتضرع "باربـارا" في الحلـم، "لـيكن حلـمًا، حلـمًا فقط". مع أنها تعلم أنه ليس حلمًا، وأن اليوم لا يمكن بالطبع أن يبـدأ مـن جديـد. كـل شيء يبقى على ما هو عليه. والرجل يصرخ: "جريمة قتل!"، و"قاتلة!" تُلتقط الصور لـ"باربـارا"، مـن المارة، من الشرطة، من السيارات العابرة. ترى صورة البحث عنها على ملصق كبير معلق عـلى المصعد. ليس لها سوى الانتظار حتى القبض عليها.

كم من مرة سمعت ذلك – من المعجزات أنني لا أحلم أنا نفسي بهذا الحلـم. عنـدما أرى صلبانًا أمام الشجر على حافة الشارع، أو زهورًا مستندة على عمود النور، أفكر عـلى الفـور في كابوس "باربارا".

تثني ذراعها الآخر أيضًا وتضعه فوق عينيهـا. أقـترب منهـا وأسـحب بشـفتي شـعر إبطهـا الأيمن. على طرف اللسان أشعر بالطعم اللاذع لمزيل رائحة العرق. لقد نمنا متأخرين، وهو مـا لم نعد نقدر على تحمل تبعاته، كلانا، على الأقل خلال أيام الأسبوع.

تقول "باربارا":

- وأنت تدعي أن الأمر ليس مشكلة، فهو أمر يحدث كثيرًا.

لا أرى إلا طرف أنفها وفمها الذي يظل مفتوحًا قليلًا. تتنحنح بصوت خافت.

- إذا أسرعنا – هكذا قلتَ – لن يلاحظ أحد شـيئًا، كـل مـا علينـا هـو أن نسرع. عـليَّ أن أجلس خلفك على الدراجة. هكذا حاولت أن تقنعني، دون أن تهتم بـ.....

تعض على شفتها السفلى، ثم تضيف:

- دون أن تهتم بالجثة.

- وماذا عن الرجل الذي يضربك؟ أين هو؟

أرى عرق عنقها ينبض.

- لا أعرف. إنه هناك. في مكان ما. إنه يعرف كل شيء.

نبرات صوتها مستسلمة تمامًا. أمرُّ بلساني فوق أسناني حتى أتخلص من طعم مزيل رائحة العرق.

- هل تأتين في الحلم معي؟

أقبل نهدها الأيمن. لم ترد "باربارا"، فأقول:

- ليس لطيفًا أن يعتلي الرجل امرأته أثناء الكابوس. ليس هذا عتابًا. في هذا الوضع تفتقدُ إلى روح الدعابة.

- ربما أرمز في الحلم إلى المساعدة والعون. أليس هذا ممكنًا؟

تصمت، ولا يبدو عليها أنها تلاحظ أنني أداعب ضلوع صدرها، ثم تهبط يدي إلى الخصر حتى تصل إلى أعلى الفخذ.

تقول:

- إذا كنت ترقد في المستشفى، وربما في الجبس من الرأس حتى القدم، وتبحلق في السقف عالمًا أنك قتلت إنسانًا..

- لكنك لم تعودي تقودين سيارة. منذ أكثر من عامين.

لا شيء ولا أحد استطاع أن يقنع "باربارا" أن تجلس ثانية خلف عجلة القيادة منذ أن دهست غُرِّيرًا. هذا الامتناع يعقد أمور حياتنا. حتى تصل إلى مدينة "دوزن" تحتاج إلى ثلاثة أرباع ساعة، هذا إن لم يفتها الأتوبيس. يغضبني أنها تغمي عينيها. لا يمكن أن يعني هذا شيئًا طيبًا أبدًا. لا يفارقها هذا الحلم.

أقول لها:

- أنت دهست غُرِيِّرًا. غُرِيِّرًا! بل ربما لمستيه فقط، وربما يكون قد تعافى وأصبح له الآن أحفاد!

- إذا كان هذا رأيك. إذا كان هذا رأيك، فربما يكون صحيحًا.

أداعب بطن ذراعها من أعلى حتى الكوع الذي أمر عليه بحركات دائرية، ثم أواصل حتى المعصم، من هناك تنتقل يدي إلى ذراعها الأخرى، وبحركة سريعة دائرية تستريح يدي تحت إبطها الأيسر، ثم تمسد نهدها. تهبط يدي إلى ركبتها بجانبي.

تقول "باربارا":

- أنت ترقد هناك، تحملق في السقف، الوقت لا يمر، أو يمر ببطء شديد لا يستحق الذكر، مع أن الوقت هو الشيء الوحيد الذي يخطر على بالك، الشيء الوحيد الذي يفرق بين الحياة والموت.

- كنت تحلمين، والآن استيقظت.

أقول لها ذلك وأضع رأسي على نهدها الأيمن، وأمر بأصبعي على الآخر في حركة دائرية.

- وماذا إذا لم أستيقظ؟ إذا اتضح أنه ليس حلمًا؟

أشعر برودة فعل جسمها عندما تتحدث. تسألني:

- ماذا ستفعل معي عندئذ؟

عندئذ أتزوجك مرة أخرى. أم ماذا في رأيك ينبغي عليَّ أن أفعل؟

أرتكز على "باربارا"، بطني على بطنها، وأمد يدي إلى المنبه. يتزحلق الغطاء وينحسر عنا. أعود بالمنبه في يدي، فأعدل من وضع الغطاء وأستلقي على ظهري. يصطدم صدغي بكوعها. أود أن أطلب منها أن تسحب ذراعها. أريد أن

أدفعه بعيدًا. يغيظني أن "باربـارا" لا تبـالي بي. إلا أننـي لا أقـول شـيئًا وأنسـحب عـلى طـرف السرير بعيدًا عنها.

إذا نهضنا الآن سيكون صباحًا عاديًّا، نأخذ دشًا، ونتناول الفطور. باب غرفة نومنـا مغلـق. وإلا كنت سأسمع "أورلاندو" وهو يعلق كيس الخبز على مقـبض بـاب الشـقة. أضـبط المنبـه على السابعة وأبقيه في يدي. على الأقل عشرون دقيقة. إذا أسرعنا عندئذ، يمكننا أن ننجـز كـل شيء في الوقت المناسب.

تقول:

- قبل أن تلاحظ أنك لا تستيقظ، تفكر أنك ربما كنـت شخصًـا آخـر تمامًـا، أن مـا يحـدث مجرد خطأ، **أنني** ألعب **الآن** هذا الدور. إلا أنك تلاحظ عندئذ أنك لا تستطيع الاستيقاظ، أنـه لا يمكنك الخروج من هذا البدن.

- "بابس"! ما هذا الذي تقولينه؟

لم يكن الأمر بهذا السوء أبدًا. الشقوق في السقف تسير متوازية مثل حواف ورق الحائط، إلا أنها متعرجة. الورق مطلي باللون الأبيض، لكن سطحه غير مستوٍ، لذلك نشأت أشكال على الورق: مرة يرى المرء خطًا ونقطة ووجه، مرةً أخـرى أعمـدة منحوتـة، أو لولبًـا مـن الصـلب، ومنه تنمو زهرة كبيرة متفتحة تلتف عـلى نفسـها، أوراقهـا طويلـة مـنكسرة وسـاقها قصـيرة، شبيهة بالزهور في ورق الحائط. الزهرة تلتف خارجة. ومن الممكن أن يكون ذلك تمثالًا، بشعر مجعد كثيف وفم فزِع يهم بالصراخ.

أقول لها:

- سأنهض الآن. علينا ببساطة أن ننام مبكرًا.

بالأمس زرنا أحد أصـدقاء "باربـارا" القـدامى، "إنريكـو فريـدريش". تريـد "باربارا" أن أجد وظيفة لـ"إنريكو" ككاتـب خطـب، حتـى يخـرج مـن أزمتـه.

ولكن مستحيل. سكير وثرثار، متشاعر يكتب حتى على الجدران وورق الحائط كي لا ينسى أفكاره العظيمة.

- من أين تعرفين زوجته، "ليديا" هذه؟

ترد "باربارا" بعد برهة:

- ليست زوجته.

- لكنها تسكن معه.

- لا. رأينا بعضنا مرة بالصدفة في المتحف البيولوجي.

- ولماذا كنتما تتشاجران؟

- من قال إننا تشاجرنا؟

- المرء كان يشعر بذلك. عندما ذهبت إلى الحمام دبت بينكما خناقة.

- طبعًا أنت تعرف أحسن مني، إذا كنت في الحمام...

- لا أفهم. كيف تتحمل هذه المرأة "إنريكو". الأمر يشبه المعجزة إذا نظرنا إلى سلوكه وشكله.

- هناك ما هو أسوأ.

دائمًا تدافع عن "إنريكو". المجتمع هو المسؤول عن كل شيء في رأيها. زرناه معًا مرتين. وفي المرتين وجدت نفسي مرغمًا على التفرج على هذه الصور، "إنريكو" و"باربارا" على جسر مطل على بحر البلطيق. أكره هذه الأوضاع المتكلفة. لهذا ليست لي صور مع "باربارا" إلا نادرًا، باستثناء صور الزفاف والصور الرسمية. لا يمكن تجنب ذلك.

لا أريد أن أعرف أي علاقة كانت تربطهما في الماضي. لكنني لا أستطيع من أجـل خاطرهـا تعيين سكير كاتبًا للخطب. لن يمر عندئذ سوى بخبرة سيئة جديـدة، وأشـعر أنـا برقبتـي مثـل السمسمة.

- أتعرفين ما مشكلة "إنريكو"؟ مشكلته أنه لا يعاني من أي مشكلة يمكن أن يكتـب عنهـا قصائد أو روايات، ليست لديـه مشـاكل حقيقيـة. يحسـدوننا في العـالم كلـه، يحسـدوننا عـلى مشاكلنا. كلهم يريدون استبدال مشاكلهم بمشاكلنا. هـذا مـا يعكـر صـفو "إنريكـو". يريـد أن يعاني.

فيما مضى، بعد أن نرجع إلى البيت بعد زيارة قمنا بها، كنا نتعانق بمجـرد أن نكـون وحـدنا. فيما مضى، كنـا نقـول لأنفسـنا أحيانـا إن وضـعنا جيـد، وأننـا سـعداء، وإننـا لا نسـتطيع تقـدير سعادتنا، وإننا أصحاء، وإن حظنـا كـان كبـيراً. عنـدما كنـت أسـتيقظ لـيلًا ولا أسـمع صـوتًا مـن "باربارا"، كنت أتحسس الفراش بيدي نحوها، أو كنت أشعل الضوء. بل شعرت ذات مرة بالغيرة من "إنريكو". بالأمس كانت "باربارا" هي الغيورة. ربما لذلك تشعر اليوم بالاحتياج إلى تشـجيعي ومواساتي.

أريد أن أحكي شيئًا يجعلها تفكر في أمر آخر. ولكن لا يخطر على بـالي شيء يتناسـب مـع موقفنا. أرسل النظر إلى السقف حيث أرى التمثال يتحول ثانيةً إلى لولب حديـدي. في الطـلاء أحاول التعرف على خريطة العـالم، هنـاك في المواضـع الخشـنة. الهنـد تقـع أمـام فلوريـدا، لا يتناسب ذلك مع المقاييس، لكن الرسم واضح، بالأسفل البلاد الإسكندنافية، وفي بحـر البلطيـق تقع أستراليا.

أسألها:

- هـل تتـذكرين "كانـدلاريا"؟ وصـدى صـفارة البـاخرة الـذي كـان يرجـع مـن المدرجات الجبلية ثم يخفت شيئًا فشيئًا؟ هل تتذكرين كيـف أننـي اعتقـدت ذات صباح أنها تمطر. ولكن كل ما في الأمر هـو أن الجبـل حجـب الشـمس. وفي المسـاء

لم يكن المرء يعرف أين ينتهي البحر وأين تبدأ السماء، اللون الرمادي الفضي يغطي كل شيء، لا فرق.

- لم يكن اسمه "كاندلاريا".

- ماذا إذًا؟

لم ترد، فقلتُ:

- أنا متأكد أن المكان الذي سكنا فيه اسمه "كاندلاريا".

من أجل أتفه الأشياء نتشاجر. في الأسبوع الماضي حول درج جواربي. "باربارا" تعتقد أنني رميت فردًا من جواربها الجديدة التي اشترتها للاسترخاء. قلتُ لها إنني لم أرم جوارب مفردة، بل أزواجًا فقط، وتحديدًا تلك التي لم أعد ألبسها منذ سنوات لقبحها أو لأنها تهرأت أو بهتت وحال لونها. هذا هو المضحك في جوارب الاسترخاء، تقاطعني "باربارا"، إنها تبدو قديمة ورثة رغم أنها جديدة. الزوج من جوارب الاسترخاء ثمنه 15 ماركًا. أسألها: "ما جورب الاسترخاء؟"، ترد قائلة كيف إذًا أدَّعي أنني لم أرمها إن كنت لا أعرف حتى شكلها. أكرر أنني لم أرم إلا أزواجًا من الجوارب وأنني كنت سأعرف جواربها على الأقل من مقاس حذائها. على رف الشباك في الحمام أجد ورقة مكتوبًا عليها: "جوارب استرخاء – دون (ثم بخط أصغر) خيوط مطاطية، ملمس مريح، أجريت عليها اختبارات لتحديد المواد الضارة وفقًا للمعايير البيئية " Tex Standard 100" في اليوم التالي كنت أريد أن أقول لها إنه – إذا لم تستطع أن تجد الجوارب – لا يتبقى سوى إمكانية واحدة، ألا وهي أن أكون أنا الذي رميتها، مع أنني لا أستطيع تفسير ذلك، لأن معنى ذلك أن تكون وضعت جواربها مع جواربي؛ إنها في نهاية الأمر هي التي تضع الغسيل دائمًا في الدولاب. ترد "باربارا" أنها وجدت الجوارب. عندما سألتها لماذا لم تخبرني بذلك من قبل، نظرت إليَّ غير مصدقة، وكأنها لا تستطيع أن تفهم كيف أوجه لها مثل هذا

السؤال، مع أن تعبيرات وجهها يمكن أن تعني: "لقد قلت من قبل: أنت لا تصغي إلي". هذا وحده هو السبب في نصف مشاجراتنا، أن تقول إنني لم أصغِ إليها، وأنا أقسم أننا لم نتحدث حول هذا الأمر. لست أطرش!

ينطلق رنين المنبه. أغلقه. الصوت الوحيد الآن هو صوت طائرة هليكوبتر. أخيرًا أقول لها:

- "بابس"، لا بد أن ننهض.

- "فرانك".

تقول. كوعها الأيمن يشير ناحيتي، ثم تضيف:

- إذا اكتشف المرء ذات مرة أن ذلك ليس حلمًا، إذا لم يستطع المرء أن يستيقظ، ووجد نفسه قد طعن في السن خلال ساعات قليلة، وإذا شعر أنه عاش بما فيه الكفاية، وانتظر بما فيه الكفاية أيضًا ولم يعد يريد الانتظار، عندما يمشي المرء إلى الشباك وينظر إلى الخارج فيشعر باللامبالاة، أيًّا كان ما يراه أو لا يراه، إن كانت الدنيا نهارًا أو ليلًا، إذا أدرك المرء أنه لم يعد هناك فرق واحد، فرق واحد لم يعد، عندئذ يكون المرء قد عاش المعجزة الوحيدة التي يمكن أن يأمل حدوثها. عندئذ يمكنه القفز.

أقول لها:

- الساعة السابعة. لا بد أن ننهض، "بابس"، هل تسمعين؟

أقعد وأزحف حتى نهاية السرير، ثم ألبس شبشبي وأسير إلى الشباك. تحولت مياه القناة إلى جليد. قوارير بلاستيكية بلون أزرق وأصفر وأخضر فاتح مرشوقة في الجليد، وأيضا الغصون السفلى من شجرة صفصاف. الشارع على الضفة الأخرى مغلق أمام المرور. لهذا لا أرى سيارات. قالت لنا السمسارة إن الإنسان لا يؤجر شقة فحسب، بل حياة أخرى: الجيران، المرور، المنظر.

أضغط جبهتي على الزجاج كي أرى الشارع أمام البيت. الشارع خال. ليس سوى زوج مـن طيـور العقعق يقفز أمامي على شجرة الكستناء من فرع إلى آخر. أحاول تركيز انتباهي فـيما سـوف أفعلـه الأيام القادمة. يوم السبت الحفلة المسرحية، يوم الأحد يزورنا والـد "باربـارا" مـع صـديقته الجديـدة ويشربان معنا قهوة العصر.

أقول لها:

- إما أن تأخذي إجازة مرضية، أو تنهضي الآن. سأسخن لك ماء، هه؟

"باربارا" لا ترد. ربما لم تسمعني على الإطلاق.

تسألني:

- هل ستبقى معي؟

- لا بد أن أسافر إلى مدينة "إيرفورت".

- ليس هذا ما أقصده. هل ستبقى معي في كل الأحوال؟

- "بابس"! وماذا سأفعل غير ذلك؟

- ومن سينتخبك وزوجتك بهذا الشكل؟

- يا إلهي. ماذا حدث لك؟ أنت مستيقظة، مستيقظة!

- لا تصرخ.

تقول "باربارا"، ثم تتمطى. الـذراع الـيسرى تصـل حتـى حافـة السريـر، الأصـابع المتدليـة تلامس الأرضية المفروشة بالسجاد. أخيراً أستطيع النظر في عينيها. ترفع "باربارا" رأسها وتنظـر إلي، ثم تنكمش على نفسها من جديد. لا أدري ماذا أقول لها حتى تقوم وتدخل الحـمام. بـل لا أعرف أنا نفسي ماذا سأفعل الآن؟ العقعق يطير بعيـدًا. واحـدا تلـو الآخـر. لبرهـة يتـأرجح الغصن الذي كانا عليه. ثم يبقى كل شيء ساكنًا، كما في صورة فوتوغرافية.

(19)

معجزة



"إنريكو فريدريش" يتلقى زجاجة مارتيني هدية. يحكي لـ"باتريك" عن ظهور "ليديا" المفاجئ، واختفائها المفاجئ. أثناء ذلك ينافس نفسه في الشرب حتى يقع سكران طينة. "باتريك" يصمت وفي النهاية يسأله سؤالًا شائكًا.

- لا بد أن المرأتين تقابلتا من قبل.

يقول "إنريكو" وهو يفك الورق المغلف لزجاجة المارتيني، ثم يفرد الورق ويطبقه، ويسحب الدرج الأسفل الذي يضع فيه الأكياس البلاستيكية.

- أنت صورت "فرانك" ألف مرة. طبعًا تعرفه.

يصطدم الورق بالحافة العليا. يضغط "إنريكو" على الورق ويغلق الدرج.

- قبل انتخابات مجلس الولاية تمشى في السوق ووزع وردًا. أقلع عن التدخين، لكنه لا يستطيع الاستغناء عن مضغ اللبان.

تمتد يد "إنريكو" إلى الفتاحة. يمسك بمنشفة أطباق. يقول فاتحًا الزجاجة:

- "كناك"! أعشق هذا الصوت. ثلج؟

- لا.

يقول "باتريك". لامسًا الثلاجة بظهر الكرسي. راح يقرأ الشخبطات التي تملأ ورق الحائط كله. يملأ "إنريكو" الكأسين حتى منتصفهما.

- "ليديا" تتحدث عن نوع من الطيور لا يحتاج من ألاسكا إلى هاواي سوى خمسين ساعة. تسمح لي.

يشير "إنريكو" إلى الثلاجة، ثم يضيف:

- اعتقدت في البداية أن "باربارا" عضو في جمعية صداقة، ما كان يُسمى في الماضي رابطة ثقافية أو "أورانيا" أو شيئًا من هذا القبيل. كن يجمعن فئرانًا مدببة الفم، فئران ميتة. الله أعلم ما الذي أردن إثباته.

يتكئ "باتريك" إلى الوراء مرة أخرى.

- اعتدت على ذلك.

يأتي صوت "إنريكو" من عند الحوض. يخبط قالب مكعبات الثلج على الحافة الداخلية، ثم يقلبه على أحد الأطباق.

- ولكن ليس أكثر من قالبين من الثلج.

تقع معظم القوالب على الأطباق المتسخة، فيجمعها "إنريكو"، ويكومها على الطبق ويمنع سقوطها بيده إلى أن يضع الطبق على منتصف المائدة الخشبية.

- كل هذه الأطباق والمواعين ورثتها عن جدتي.

يملأ "باتريك" كأسه بالمياه المعدنية، ويقول:

- في صحتك.

يرد "إنريكو" متناولًا قوالب ثلج:

- في صحتك.

يسأل "باتريك":

- وهذا؟

- زوجان من الجوارب السوداء، فرشاة أسنان، مقص ومبرد أظافر، أربعة مناديل ورقية، تذكرة سفر مستعملة، وماركان وخمسة فنكات.

ينقر بظفره على كأس البطولة الزجاجي بينهما.

- لم تنس أكثر من هذه الأشياء.

أرسل "إنريكو" بصره عبر "باتريك" إلى المنزل المقابل حيث اشتعل الضوء في نافذتين.

- كان "فرانك" يريد أن يقرع الأنخاب في صحة رفع الكلفة بينهما والتخاطب بـ"أنت" لا حضرتك. ربما اعتقد أن "ليديا" كانت خجولة لأنه نائب يجلس في برلمان الولاية في "إيرفورت". في صحتك مرة أخرى يا صاحبي. اقرع الكأسين!

يمد "باتريك" يده.

- كان ينظر إلى ذراعيها. كلما قصت شيئًا كان يسترق النظر إلى ذراعيها. كانت ترتدي الفستان الأسود، الواسع من...

يصف "إنريكو" ربع دائرة تحت الإبط.

- فيما بعد عندما ذهب إلى التواليت قال: يا عيني على رِجليها! قال ذلك هامسًا.

يستدير "إنريكو" إلى الباب، ثم يقول:

- هيا يا "كيتي"، تعال، ماذا هناك؟ إنه يقبع الآن هناك ويتفرج. أطلقت عليه – هه! اجلس! أسميته "كيتي". يشخر عندما ينام. ولكن لا تصدر عنه أصوات في اليقظة.

يداعب القط تحت الذقن. لون فرائه رمادي مختلط بحمرة. يتساءل "إنريكو":

- هل تلاحظ أن النهار يطول؟

يهز "باتريك" رأسه. يمر بلسانه على أسنانه خلف الشفاه المزمومة. يتأمل من جديد ورق الحائط وما عليه من شخبطات. يصب "إنريكو" في كأسه من جديد ويمسك بالزجاجة عاليًا. يمد "باتريك" له كأسه المليئة حتى منتصفها.

يقول "إنريكو":

- في صحتك. تخيل التالي: "ليديا" تقف هنا وتقلب كل شيء، ثم يتصل "فرانك" ويعرض علي هذه الوظيفة. عليَّ أن أكتب فقط ما أفكر فيه، كتابة شخصية. قال لها على التليفون إن هذا هو المهم. هه، "كيتي"!

يحرك "إنريكو" أنفه يسارًا ويمينًا، ويقول:

- تعلمنا تحية "الإسكيمو".

يتشممه القط ثم يشيح بوجهه.

- سألته كم سأكسب من هذه الوظيفة، سألته أمام "ليديا" و"بابس" كي يكون كل شيء واضحًا. أخبرني. عندئذ قلت: أترون، أنا رجل بجد، أستطيع أن أكسب نقودًا كثيرة. عندها قبلتني "ليديا".

بمجرد أن تتوقف المداعبة والتمسيد يضغط القط على اليد المرتاحة على عنقه، أو يمد كفه ناحية ذراع "إنريكو".

- وهكذا، كما كانت "ليديا" واقفة هناك، هكذا انصرفت. كانت واقفة هناك مع الحقيبة، ذلك الشيء الأخضر الذي كان على دولاب غرفة النوم لديكم. كنا نريد أن نقتسم الإيجار، مؤقتًا. هذا ما كان. عملتُ شايًا، وهي اشترت أصصًا أكبر للنباتات، ورشاش النباتات والنخلة. أقول نخلة، لكن لها اسمًا آخر صحيحًا. ومن أجل ساق النبات هذه كان عليَّ أن أنزل خصيصًا إلى القبو وأحضر إطارًا خشبيًّا أسندُ النبات عليه وأثبته. كانت تعرف كمية الماء التي يحتاجها كل نبات، وكم مرة. كل يومين كانت تدير الأصص. هل أشعل الضوء؟

يقبل "إنريكو" القط بين الأذنين، ثم يضيف:

- تخيل يا صاحبي لو كانت "ليديا" ردت على التليفون. ليس من الحتمي أن الأمر كان سيتغير. ولكن لو كانت **هي** على الخط. لا أعرف، ولكن ماذا كنت ستقول؟

يضحك "إنريكو" ويشرب كأسه حتى الثمالة.

- كان الأمر سيكون أفضل كثيراً. أقصد، لا علاقة للأمر بك، أنا أقصد الموقف في حد ذاته! تخيل الموقف! عبثي تمامًا.اأعذرني يا صاحبي، ولكن ليس لي ذنب في الموضوع.

بيد يفتح الزجاجة ثم يرفعها.

- أم أنني في رأيك لي ذنب في الموضوع؟ ألا تريد؟

يصب "إنريكو" لنفسه. القط يقبع الآن ساكنًا على ذراعه الأيسر.

- كانت الحياة جميلة هنا، انسجام كامل. باب الشقة المزعج جاء واحد وأصلحه، ثم أعقبه السباك وأخرج الهواء من الدفاية. فجأة أصبح كل شيء على مايرام. أنا أكتب، "ليديا" تقرأ، و"كيتي" يترك كفًا من كفوفه يتدلى على المسند مطلقًا شخيره. ومن المطبخ تفوح رائحة الكيك. لا أحتاج إلى أن أحكي لك، معجزة حقيقية، هكذا اعتقدت. هل أقول لك شيئًا آخر؟ لا تفهمني خطأ يا صاحبي. "ليديا" كانت أول شخص، أول شخص على الإطلاق، يستحسن ما

أفعله. انتظرت ذلك طويلًا، أن يقول لي شخص: هذا حسن، أو هذا سيئ. ليس هذا اتهامًا لك. ولكنني بحاجة إلى إنسان يقول لي: ما تكتبه جيد.

يمسح "إنريكو" بكفه المسطح على ورق الحائط المليء بالشخبطة، ويقول:

- كلها أفكار. وعندما أتى "فرانك" ومعه "بابس".. لا بد أن المرأتين تقابلتا من قبل. كلاهما كثير الأسفار، لأن "فرانك" – كنائب شاب – تتاح أمامه فرص عديدة، هناك برنامج خاص للنواب الشبان، يسافرون إلى بلاد عديدة، حتى أستراليا. سألته عن الهدف من وراء ذلك. يعتقد أنه يستفيد من ذلك، أن الرؤية تتغير عندما ينظر المرء إلى الصورة بأكملها من الجانب الآخر، آسيا واليابان، وهذا الكلام. حكى أشياء لا حصر لها. يعتقد دومًا أنني من الممكن أن أستفيد من حكاياته، لكتابة قصص أو ما أشبه، هكذا يتخيل "فرانك" الأمور.

يمر "إنريكو" بظفر إبهامه على الحز الطولي المحفور في كأسه، ثم يديره إلى الحز التالي ويكرر الحركة.

- في أستراليا ابتلع أحد نواب البرلمان الشبان أثناء تناول الطعام المحشو، ابتلع حشو أحد أسنانه. لمدة ثلاثة أيام لم يذهب إلى التواليت لأنه كان يخشى أن ينكش في برازه بحثًا عن الحشو. وذات يوم كانوا يسافرون بالأتوبيس في منطقة جرداء تربتها حمراء لا ينمو فوقها سوى بعض الأعشاب. نزل، وجعل السائق يواصل رحلته. عندما عادوا لإحضاره، كان ينكش بالفعل فيما أخرجه. قصص كثيرة مثل هذه كان "فرانك" يحكيها. أو معلم الفصل الذي كان يكسر أجنحة الملائكة المعلقة على شجرة عيد الميلاد قبل مجئ العيد، لأنه كان ماديًا ويرى في الملائكة استفزازًا للعقل. لا بد أن المرأتين تقابلتا من قبل. إذ أنهما تشاجرتا عندما كان "فرانك" في التواليت. اعتقدا أنني لن ألاحظ شيئًا. خمنت أن الغيرة هي السبب. لكنها لم تكن. ليديا قالت إنها تفهم "بابس". بالطبع لم تقل "بابس"، ولكن الدكتورة "هولتشيك". بقيت طوال الوقت تخاطبها بـ"حضرتك". قالت "ليديا" إنها تفهم بابس، لكنها لا تستطيع أن تدعي أنها

كانت تبحث عن غُرِيّر، بالتأكيد لم تبحث عن "غُرِيّر". ولكن إذا دهس إنسان أحدًا وقتلـه، إذا لم يكن هناك على أي حال ما يمكن إنقاذه، فعلى الإنسان ألا يدمر حياته أيضًا. "ليـديا" قالـت إنها تفهم "بابس". عندئذ بدأت "بابس" في الصراخ متهمة "ليديا" بالكذب.

يضحك "إنريكو" ضحكة صبيانية، ثم يضيف:

- "ليديا" كذابة، كذابة. وعندما دخل "فرانك" عـاد كـل شيء إلى مـا كـان عليـه. لم تنطقـا بكلمة. هل أُشعل الضوء؟ ماذا حدث؟ أنت غاضب يا صاحبي؟

يتطلع "إنريكو" في وجه "باتريك" الذي كان يرتشف المارتيني، ثم صب لنفسه.

- أحيانًا يتتبع الرجل ببصره امـرأة، لأنـه رأى سـاقيها أو وجهها مـن الجانـب أو شـعرها. ولكن عندما تستدير المرأة أو تتحدث.. أمَّا "ليديا"، الرجل يحب أن ينظـر إلى كـل شيء فيهـا، وكلما أطال النظر كان ذلك أفضل. يا أخي، قل شيئًا! أي رجل سيفرح عندما تقف امرأة مثلها أمامه فجأة، أليس كذلك؟

يفرغ "إنريكو" الكأس في جوفه دون ثلج أو ماء.

- أستطيع تخيل حالتك الآن يا صاحبي. ولكن لا يحق لك أن تغضـب منـي. هـه! "ليـديا" هربت منك. وجاءت إليَّ. هذا صحيح. السؤال هـو: هـل كـان صـحيحًا أن تهجـرك وتـأتي إليَّ؟ أجبني؟

يمد "إنريكو" رأسه إلى الأمام قائلًا:

- أليس هذا ما حدث؟ نعم أم لا؟

يضع "إنريكو" الكأس الفارغة على شفتيه، ثم يرفعه ببطء إلى أن تتساقط عدة قطرات في فمه المفتوح عن آخره.

- أنت تعتقد أني لازم أشرب. إذا لم أشرب لن أتحدث، هه؟ إذا كـان هنـاك شيء لازم أعملـه فهو الكتابة، الكتابة يا صاحبي. وإذا أردتُ كانت "ليديا" بقيت هنا.

يحيط الكأس بكلتا يديه ويمط شفتيه.

- هل تريد أن أقول لك لماذا ذهبت؟ أنا أعرف، أعرف جيدًا.

يستدير القط على حجره. ينحني "إنريكو" إلى الأمام إلى أن يلمس بأنفه بين الأذنين.

- لأنها لم تشعر بها، بالمعجزة، هذا هو السبب، والمشكلة.

يقفز القط من حجر "إنريكو" إلى الأرض، ويظل راقدًا بجانب الباب الموارب. يشبك ذراعيه على المائدة ناقلًا بصره من كوع إلى آخر.

- بكل بساطة لم تشعر بها.

يزم شفتيه ويهز رأسه ببطء.

- لم أُعد الزجاجة إلى مكانها. تركتها تحت حامل المناشف. مسحت الحمام ووضعت شيئًا من منظف "مايستر بروبر" في الدلو. كنت أريد أن أسكب كل ما تبقى في الزجاجة ولم ألحظ أن الكثير ما زال بها. نسيتها. الواحد لا يراها عندما يقف أمام الحوض، لا يرى الزجاجة، فالمناشف تحجبها.

قال "باتريك" وهو يهز بقايا المارتيني في كأسه بحركة دائرية:

- لا أفهم حرفًا.

- نظفنا معًا، بسبب زيارة "فرانك". "ليديا" المطبخ، وأنا الحمام. عندما يقف الواحد عند الحوض ويغسل يديه، لا يرى الزجاجة.

يقترب "باتريك" منه.

- سماع هذا يهمك يا صاحبي، مضبوط؟

يصب "إنريكو" في كأسه.

- وقفت في الحمام أمام الحوض. كل أشيائها اختفـت، فرشـاة الأسـنان، الكـريم، السـبراي. كانت ما زالت في البانيو. بعد الحمام وضعت كل شيء في الشنطة، حتـى المنشـفة المبلولـة. لم أسألها إلا: هل لا بد أن يكون ذلك الآن؟ هل لا بد أن تنصرفي في منتصف الليل؟ تركَـت ورقـة مكتوبًا عليها متى وكيف أسـقى الزهـور، ووضـعت المفـاتيح عـلى الورقـة، وفتحـت الثلاجـة: الفلفل الرومي هنا، والسمك الملفوف بالسكر.. هئ هئ هئ.

ضحك "إنريكو" بصبيانية. من بين الأسنان أصدر هسيسًا.

- بالسكر ومنزوع الجلد... هئ هئ هئ. تركت الماء ينساب على يـدي، كي أهـدئ نـفسي، بينما كانت هي واقفة متكئةً على إطار الباب. أغلقت الحنفية وجففـت يـدي، بـبطء، بـبطء وعناية، كأنني جراح. ليس من اللازم أن أشرب. إذا كنت لا أريد، لا أشرب. عندما وضعتها على الحامل بجانب المنشفة الأخرى، ركزت تفكيري، ومع ذلك لم تكن المنشفتان في وضع سيمتري، نزلت فوق زجاجة التنظيف تمامًا، فأوقعتها. ثم، حدث ما حدث يا صاحبي.

تثاءب "إنريكو".

- الآن أنت تصغي، أذناك كبرتا فجأة.

بكلتا يديه يرسم أذنًا كبيرة في الهواء.

- كان الأمر غريبًا، غير معتاد إطلاقًا. ولا حتى سـاحر كـان يسـتطيع الخـروج مـن المـأزق، ليس دائمًا، لأن الأمر يتوقف على الحظ.

يشرب "إنريكو" جرعة.

- انحنيت، ورفعتها، المنشفة يا صاحبي، وهكذا اعتدلت زجاجة المنظف مـرة أخرى، ولكنها ظلـت تتـأرجح. وقفـت بهـدوء. بـبطء رفعـت المنشـفة إلى أعـلى، وسحبتها كما يسحب الساحر المنديل من قبعتـه. لم تعـد زجاجـة المنظـف تهتـز.

أردت أن أقول شيئًا، شيئًا يبعث على الأمل، لأن ما حـدث علامـة طيبـة، بالنسـبة إلى "ليـديا" وإليَّ، معجزة، ما حدث يغير معنى كل شيء.

يتناول "إنريكو" الكأس مرة أخرى ويمر بظفر إبهامه على طول الحز المحفور.

- سألتُها: هل رأيتِ ذلك؟ ولكن لا إجابة، تيار هوائي فقط، مقبض الباب يتحـرك، بهـدوء، هكذا تغلقُ الأبواب دائمًا، ثم باب الشقة، "تـراك"، وبعـد ذلـك سـمعت وقـع خطواتهـا عـلى الرصيف. راحت الرغاوى تتزايد، الرغاوى التي لم تنزل مع الماء، أنت تعلم مـا أقصـده. كانـت تريد دائمًا رغاوي كثيرة. عليك أن تنظر جيدًا، عندما اختفت الفقاعات. في كـل لحظـة تنفجـر مئات من الفقاعات، "تسيك، تسيك، تسيك"، هذا هو آخر ما سمعته من "ليديا".

شرب الكأس حتى آخر نقطة ووضعها بقسوة على المائدة.

عندما رفع رأسه مرة ثانية لم يرَ سوى على استدارة الكتف اليسرى لدى "باتريك" ومنبـت ذراعه الذي تميزت حدوده أمام النوافذ المقابلة المضاءة والضوء الباهر من أعمدة الإنارة. رأى خيال النباتات والمسند الخشبي في أصيص الزهور وعلى يمينه منظر الرشاشة الجانبي.

حاول أن يميز بين الأشياء على المائدة: كأس البطولة الزجاجية التي ربحتهـا "ليـديا" بـدت وكأنها كأس آيس كريم، وفرشاة الأسنان فيه بدت كملعقة الآيس البلاستيكية، الحز الطـولي في كأسه كأنه ترس أو عجلة روليت، وإبهامـه هـو السـن. السـطور المكتوبـة عـلى ورق الحـائط التحمت وتشابكت وتحولت إلى حبال سميكة، إلى متاهة.

لاحظ "إنريكو" أن الدنيا أظلمت فجأة. ولكـن السـبب هـو - هكـذا فكـر - أن "باتريك" يحول بيني وبين الشباك، إنه يكبر أمامي ويتضخم. هذا الاسـتنتاج بـرهن له عـلى أن عقلـه لا يـزال يعمـل بدقـة، وأنـه مـا زال بكـل خفـة يسـتطيع إيجـاد علاقة بين الأشياء، لا يزال يستطيع أن يكتـب عـن كـل شيء، عليـه فقـط أن يريـد.

بجانب كرسيه رأى القط الذي لم يتوقف عن لعق أحد كفوفه، ثم المسح بكفه على رأسه. إنه يريد وصف هذا أيضًا، كيف ينظف قطٌ نفسه، ويريد أن يصف شخصًا يقف عند منبع الضوء فيُقال له: "تزحزح قليلًا، أنت تحجب الشمس". راح "إنريكو" يضحك بصبيانية دون أن يصدر عنه صوت. تحسس جيوبه باحثًا عن قلم. لا يحتاج إلا إلى قلم وورق. كان يريد أن يكتب عن كل شيء، عن العالم كله. تزحزح جانبًا، هذا ما سيكتبه، لا يريد أكثر من هذا. إذا كنت أستطيع الضحك هكذا، قال "إنريكو" لنفسه، فيمكنني أن أكتب: "لا تحجب عني الشمس". لو كان لدي قلم وورق لكتبت الآن. سمع "إنريكو" اسمه يتردد، وسمع اسم "ليديا". اختفت عجلة الروليت من تحت ظفر إبهامه. لو كان ثمة مكان على ورق الحائط.. لم يعرف أي سؤال استدعى الكلمات التي راح شخص يصرخ بها في أذنه، وهل هو عطر ماء الحلاقة أم أنه النَفَس الذي كان يلامس وجهه. بالطبع نمتُ مع "ليديا". كل شخص يجئ عليه الوقت ويغلبه النوم فينام، حتى "ليديا"، وأنا أيضًا، من غير نوم يموت الإنسان، قلت لنفسي، ولكن لا بد أن أكتب، ما يهمني في المقام الأول أن أكتب. وحتى عندما شعر "إنريكو" بهذا الألم في الرقبة وعندما اصطدمت جبهته بالمائدة، حتى عندئذ لم يستطع أن يتوقف عن وصف العالم. إنه ببساطة لا يستطيع أن يتوقف عن الكتابة.



(20)

أطفال



"إدجار كرونر" يحكي عن رحلة مع "داني" على طريق قديم للسيارات. المرأة تقود السيارة، أو ماذا يحدث عندما يحب الاثنان القيادة. حكايات حقيقية وأخرى مُختلقة. الحب الحقيقي يستطيع الانتظار.

لم تتخل "داني" عن مكانها أمام عجلة القيادة. جلست من البداية وحتى النهاية أمام عجلة القيادة، وحتى أثناء تموين السيارة بالبنزين أخذت تلعب بعض تمرينات ثني الركبة دون أن تترك مكانها أمام باب السائق المفتوح. في الأسبوع الماضي قصت شعرها قصيرًا جدًّا دون أن تسألني عن رأيي في ذلك. كانت متوترة لأنها لم تجد عملًا، وأيضا بسبب "تينو" الذي يزداد التعامل معه صعوبة يومًا بعد يوم. عندما ودعته راح يصرخ بهستيرية ويركلها بقدمه. لم يرد أن يقضي عند أبيه أسبوعين فحسب. تبخرت كل مدخراتي بعد أن اشتريت المطبخ الجديد من "إيكيا". في كل شهر نحتال بكل الحيل حتى نصل إلى نهايته. ورغم كل ذلك لم ترد أن تستغني عن سيارتها "البليموث" القديمة، هذا الطراز الذي يتيح للسائق أن يجلس على كنبة عريضة في الأمام، وحيث يجد

حاملًا يضع عليه علبة المشروبات الغازية. لم تـرد أن تسـتغني عـن "جيمـي الابـن" في مقابـل "جيمي"، السكودا القديمة.

"داني" ليست سائقة سيئة، سريعة بعض الشيء ربما. غالبًا ما يصيبني الغثيان عنـدما أجلـس بجوار السائق. وهذا الجزء مـن الطريـق السريـع القـديم كـان جحـيمًا، كلـما عبرنـا مربعًـا مـن مربعات الطريق، كنا ننال خبطة بسبب الطـرق المرصـوفة بـبلاط كبـير مـن الأسـمنت. تعـذيب أصلي. وكأنني أرى فيلمًا تعليميًا: العجلات ترتطم بحافة الألواح المطلية بالزفـت، الارتطـام يصـل إلى المقعد ثم إلى العمود الفقري. الخبطات تؤلم ألمًا فظيعًا في فقرات الرقبة على وجه الخصوص. ومباشرة تأتي الخبطة التالية من العجلتين الخلفيتين، والنتيجـة: تتلـف بعـض الأعصـاب، ويـقصر المرء ثلاثة سنتيمترات. بالإضافة إلى الخبطات، ضـايقني أن "داني" مـا زالـت تتنـاول حبـوب منـع الحمل، مع أننا اتفقنا على إنجاب طفل. قالت إنها ما زالت صغيرة إلى حد ما بسنواتها الـ 34 أو 35. أجبتها قائلًا:

- كما تريدين يا "داني".

ماذا أقول لها إذا كانت قررت أن تؤجل الموضوع؟ هناك دائمًا أسـباب، ليسـت هـذه هـي النقطـة. ولكن "داني" بدأت مرة أخرى تقول إن من الأفضل أن نبقى بلا أطفال.

- من يعرف يا "إدي" إذا ظللنا نحب بعضنا بعد عامين؟

بعدها بكت واعتذرت، فاحتضنتها وسألتها:

- عن أي شيء تعتذرين؟

كانت تفرط في قراءة كتب علم النفس، هذه هي المشكلة. في البداية كانـت كتـب ميلـر، ثم كارل جوستاف يونج. دائمًا لديها مثال جديد، مثال ينطبـق عـلى الحالـة فعـلًا، كـما تقـول. قلت لها إنها تضيع وقتها فحسب بهذه الخزعبلات. ولكن الكلام لا يفيد، لا بد أن تقتنع هـي بذلك.

أنحني إلى الأمام - لبرهة أعتقد أن طائرة تصحبنا من جهة اليسار، ثـم يتضـح أنهـا مجـرد وساخة على الزجاج. في تلك اللحظة تسألني:

- هل تعرف آخر أخبار "لوكاس"؟

"داني" شهدت تعميد "لوكاس" وأخيه التوأم. اختارها "توم" و"بيلي" لتكون إشـبينة ابـنهما "لوكاس". أما آخر أخباره فهو أنه قام بتثبيت دبه القماش على السريـر بمسـامير. عنـدما رأتـه "بيلي" صفَعتَه - لأول مرة. في اليوم التـالي حـاول "لوكـاس" الإمسـاك بالببغـاء، لكنـه اسـتطاع الهروب. والآن كتبوا أوراقًا ملونة وثبتوها على أشجار القرية كلها، وفيها يتسـاءلون: "مـن رأى هربرت، الببغاء ذي الريش الأصفر المائل للاخضرار". مرة أخرى شرحت "بيلي" للأطفـال قصـة المسيح، أمَّا "توم" فإنه يبني معهم بيتًا للعصافير دقوا فيه كل مخزونهم من المسامير.

لأن "داني" لم تبتسم على الإطلاق توقعتُ أن تبدأ مرة أخرى في الحديث عن كارل يونج أو ميلر. قلت إن بيت العصافير فكرة جيدة.

ضغطت على الولاعة المثبتة في السيارة ثم راحت تشرح لي أهمية السنوات الأولى في عمـر الطفل، فالأخطاء التي تحدث عندئذ لا يمكن إصلاحها إلا بجهد هائل - هـذا إذا تـم إصـلاحها على الإطلاق. هناك معلمون عديدين يستنفذون أعمارهم في التربية والتعليم بلا طائـل. كـان هؤلاء المعلمون سيرتاحون كثيرا لو أن مزيدًا من الآباء كانوا آباءً أفضل. أسألها من تقصد بهذا الكلام. إن ما يهمها - تقول - أن نفعل كل شيء بوعي تـام، إذا إنجبنـا طفـلًا في يـوم مـا. أمـر بيدي على فخذها في الجزء الذي ينتهي فيه بنطلونها القصير. وضعت "داني" يدها على يـدي. عندئذ تقول إن أخطاء كثيرة ارتُكبَت في حق "تينو". أرد عليها:

- لأنهم دللوه حتى أفسدوه.

- لا. ليس لهذا السبب.

إلا أننا لم نواصل التحدث حول هذا الموضوع.

على الرغم من أن "داني" قد هـدأت السرعـة إلا أن الخبطـات ازدادت سـوءًا. لا حـول ولا قوة للمرء أمامها. تفاحة صغيرة تتدحرج بين قدمي من حيث لا أعلم - عندما التقطتهـا كـان ملمسها يشـبه التفـاح المشـوي في الفـرن، متغضـنة ودافئـة. ثـم انزلقـت أوراق السـيارة مـن الشماسة. أقول لها إن عليها أن تتجاوز هذا الغبي أمامنا ثم تلزم الحارة الـيسرى. ولكـن عـلى اليسار كانت السيارات تزدحم خلفنا مضيئةً أنوارهـا الجانبيـة. وجـدنا أنفسـنا مجـبرين عـلى العودة إلى الحارة المليئة بالمطبات. وضعت التفاحة العطنة في حامل علب المرطبات.

أصابع "داني" تعبث بعلبة "لاكي سترايك"، ثم قربتها من فمها ونجحـت في تصـيد سـيجارة بشفتيها. سألتني والفلتر بين الأسنان إذا كنت أريد أن أدخن أنا أيضًـا، وأنزلـت زجـاج شـباكها قليلًا. قلت لها:

- لا أشعر بأنني على ما يرام.

- لقد اخترنا يومًا ما يعلم به إلا ربنا!

قالت وهي تمر بإبهامها تحت حزام الأمان، ثم شدته وتركته يعود إلى وضعه. أعتقـد أنهـا لم تدرك في تلك اللحظة كم أحب هذا المنظر. أخذت أتأمل يدها اليمنـى التـي أمسـكت بهـا السيجارة. كان يمكن رؤية العروق في ظهر يدها، لكن ليس بوضوح كبـير. أمـا الزغـب الأشـقر على ساعدها فلا يلاحظه المرء إلا عندما تلمسها أشعة الشمس.

طلبت منها مرة أخرى أن تبقى على الحارة اليسرى بقدر الإمكـان، وأن تقـف عند محطة البنزين القادمة. أبطأت السرعة. تهيأ لي أننـا السـيارة الوحيـدة التـي تسير ببطء دون أن تتجـاوز السـيارات الأخـرى. ولكـن قبـل أن نصـل إلى محطـة بنزين فإن الأمر لا يستحق أن نتجـاوز أحـدًا. دهسـت "داني" السـيجارة وأنزلـت زجاج الشباك عن آخره، ثم تركت يدها الـيسرى متدليـة وكأنهـا تتأمـل أظافرهـا

في المرآة العاكسة. على الأقل الآن كان يمكن لهذه الإجازة أن تصبح جميلة. الألـواح عـلى أرض الطريق ستنتهي في لحظة ما، كما أننا اقتربنا من هدفنا. اعتقـدت أننـي سـأقود السـيارة بعـد محطة الوقود، وعندما أسوق بنفسي لا أُصاب بالغثيان. عندئـذ سـتقترب "داني" منـي، وتخلـع صندلها الجلدي وتضغط بأصابع قدميها على الزجاج الأمامي مُقربةً ساقها الـيسرى كي أدلكهـا لها. لدي الأمل في أن تعثر على عمل في أكتوبر أو نوفمبر. قلت لها:

- بدلًا من أن نغير الإكصدام فمن الأفضل أن نشتري سيارة جديدة.

وجدت نفسي أتفرج على "داني" وهي تمر على محطة وقود دون أن تتوقف. عندما مررنـا عليها قالت إن المرء ما زال يدفع في السيارات الألمانية الثمن نفسه الـذي يتقاضـاه العامـل في مجالها، وهو راتب يسمح لهم بالذهاب إلى حمَّام السباحة للعـمَّال، أمَّـا السـيارات الفرنسـية والإيطالية فإنها لا تصلح لشيء، واليابانية لا طراز ولا شخصية لها. فجأة رفعت قدمها من على دواسة البنزين، فاندفعتُ إلى الوراء، ثم مرةً أخرى حدث ذلك عندما خفَضَت السرعة.

قلت لها:

- حمام السباحة.. كلمة أربطها أكثر بأمريكا.

أغاظتني الطريقة التي مطـت بهـا شـفتها السـفلى، وكيـف وضـعت علبـة "الفانتـا" عـلى الحامل مائلة وكأنها فارغة. مسحت بظهر يدها على فمها، وضغطت بالعلبة على رقبتهـا، ثـم دحرجتها على فتحة الصدر، وأمسكت بها في النهاية عند كتفها.

- هذا لا يغير من الوضع شيئًا.

تكلمت "داني" بخفة مبالغ فيها. قلت لـنفسي إن الجـالس بجـوار السـائق يجد نفسه دائمًا في موقف سخيف، كما أن تهدئة السرعـة فجـأة تضر السـيارة بالتأكيد. إنها تُطيـل أيضًـا في إعطـاء الإشـارات الضـوئية. أمَّـا محطـة البنـزين

القادمة فتبعد كما يبدو 64 كيلو مترًا. الزجاج الأمامي المبقع بأجزاء الحشرات المتناثرة يحتاج إلى غسيل. شعرت بالغثيان. الحارة اليمني كارثة. أردت أن أفعل شيئًا، أن أقول شيئًا، ولكن دون أن أسألها إذا كانت ربما لا تمانع في أن أتولى أنا القيادة. لم يكن الوضع يبعث على المرح بأي حال من الأحوال. رحت أتخيل موقفًا كالتالي: أن أرتكبُ حماقة وأحكي لها شيئًا يثير استفزازها على الفور. فإذا شرعت في التحدث عن نظريات "كارل يونج"، عن "المطابقة والسببية". كنت أنوي أن أحسم الأمر بصورة نهائية وأقول لها إنني أعتبر ذلك كلامًا فارغًا وإنني لن أصغي فيما بعد لمثل هذا الهراء. أردت أن أنصحها بأن تهتم بالموسيقى. إنها على كل حال شيء حقيقي. أو أن تهتم بالفلك.

سألتها:

- هل حكيت لكِ عن رحلتي بالقطار؟

من الطريقة التي قالت بها: "لا"، لاحظت أنها متعجبة، لأنني قمت بالرحلة قبل ما يقرب من أسبوع. على كل حال بدأت أحكي عن ولد وبنت لم يتوقفا عن العدو في الممر إيابًا وذهابًا. قامت والدة كل طفل بوضع حيوانين من القماش – بطريق وضفدعة ضخمة – على المقعدين المقابلين لي على الجانب الآخر، ثم عادت المرأتان إلى مكانهما في نهاية العربة. وجدت نفسي أفكر رغمًا عني في توأم "توم" و"بيلي" وكيف يتصرفان حتى أضيف إلى الموقف كل التوابل اللازمة. أكملت حكايتي:

- طوال الوقت لم يتوقف الطفلان عن الصراخ. حاول رجل أصلع ذو صوتٍ عالٍ أن يهدئهما. زوجته كانت مستغرقة في النوم، أو تظاهرت على الأقل بذلك. بعد وقت قصير غادرا العربة، ثم تبعهما آخرون عندما بدأ الطفلان يفتحان غطاء صندوق القمامة ويغلقانه، ما أصدر صريرًا فظيعًا. لم يظل جالسًا إلا رجل عجوز بدين راح يسب الطفلين، فتوقفا برهة، ثم واصلا الدوشة والهيصة. سار العجوز في الممر هازًّا رأسه حتى وصل إلى المرأتين.

- كم يبلغ عمرهما؟

سألت "داني". قلت لها إنه يصعب عليَّ دائمًا أن أقدر عمر الأطفال، ربما في العام الـدراسي الأول. أضافت "داني":

- قصدت المرأتين.

- حوالي 25.

أجبتها، ثم صمتُّ لبرهة.

كانت سيارتنا تخرج من مطب لتدخل في آخر. كنا نسير خلف شاحنة قلَّاب عملاقة أحاط بنا عادمها بغلالة حجبت عنا الرؤية. قلت مواصلا الحكاية:

- ثم لعب الطفلان "لعبة الهجوم" – هكـذا أطلقـا عليهـا. كـان عـلى البنـت أن تجـري في الممر، والولد يجري وراءها ويمسك بها، ثم يطيح بها أرضًا. بعد ذلك يتبادلان الأدوار. وعنـدما كان الدور على الولد وقف العجوز بينهما. قال الولد إنه يريد عندما يكبر أن يـدخل الجـيش حتى يخنق أعداءه. كان ينطق بمثل هذا الكلام بينما راح العجوز يسب ويلعن ويقول إنه لن يفعل في الجيش أبدًا ما يريده، بل على العكس، في الجيش تحديدًا يسود النظام.

أمسك بالصبي من ذراعه وهزه. ثم سمعت العجوز يسأله:

- ماذا تريد أن تفعل في يوغسلافيا؟

هنا توقفت مرة أخرى عن الكلام. وجهت "داني" إليَّ نظرة قصيرة، لأول مرة خلال الرحلـة كلها.

- ماذا تريد أن تفعل هناك، سأل العجوز. راح الولد يكرر: أخنق أعدائي!

- وبعدين؟

سألت "داني".

- تركه العجوز يجري.

- وأنتَ؟

تجاوزت "داني" الشاحنة القلابة ثم رجعت إلى الحارة اليمنى ومعها عادت المطبات، مع أننا نسير على سرعة 60 على أقصى حد.

عندما أدركت ما يدور في رأسها قلت لها:

- الصبي عنده ست أو سبع سنوات...

- ومسموح له بكل شيء؟

- "داني"..

صحت ولم أعرف ما أقوله. لقد تحولت بالموضوع إلى منحى آخر تمامًا.

- غير معقول.

قالت هامسة. وزفرت ببطء من خلال أسنانها فأصدرت فحيحًا. عدلت من وضع مسند الظهر عندي لمجرد أن أفعل شيئًا. قلت لها:

- لم يخطئ الولد في كلامه. وطالما لا يريد أحد أن يفعل شيئًا، فستستمر المذابح لتنظيف البلد كلها وتنقيتها عرقيًّا. ليس من المعقول أن نتفرج على ما يحدث.

كم من مرة شرحت لها رأيي في هذا الموضوع! وكنت أعتقد أن ما أقوله يبدو معقولًا. أردت أن أطلب منها أن تقف أو تسير في الحارة اليسرى لأنني أشعر بغثيان فظيع. بدلًا من هذا كانت سيارة وراء الأخري تتجاوزنا. وأخيرًا لاحت لنا التفريعة التي ننتظرها.

تسير "داني" الآن على طريق كالحرير. وضعت يدي على ركبتها وسألتها إذا كانت تريد سيجارة. لم تنبس بكلمة. رأيت على ظهر يدي آثار الحرق الذي حدث

وأنا أُخرِج الخبز من الفرن، لم يتبق منه سوى نقطة حمراء. بالتأكيد ستضع "داني" يدها في لحظة ما على يدي. طائرات شراعية تحلق الآن فوق الحقول.

أجمل شيء أستطيع تذكره هو أنني نظرت فجأة على النعل الداخلي اللامع لصندلها الجلدي، ثم رأيت على دواسة البنزين قدمها الحافية وأصابعها المطلية. لوهلة اعتقدت أن هذا يفسر سبب تقدمنا الآن بسرعة وبلا عوائق.

عندما بدأنا نتحدث مرة أخرى، كانت كل كلمة تتسبب في شجار. قالت إنها لا تستطيع التعرف علي، إنها لا تصدق أبدًا أن شيئًا كهذا يمكن أن يصدر من فمي. لقد عقدت الدهشة لسانها. اعتقدتُ أنها ستجهش الآن في البكاء والعويل. إلا أنها أضافت بمرارة:

- هل تُعيد عليَّ ما قلت؟

قلت لها إنها تأخذ الأمور مأخذًا سهلًا، سهلًا جدًّا. نظرت "داني" بعناد إلى الأمام. قالت إنها كانت لفترة طويلة تفكر مثلي. لكن هذا خطأ كبير.

- سنة 89 لم تكن لتتكلم هكذا أبدًا، أبدًا!

مرارًا وتكرارًا كانت ترفع يدها عن عجلة القيادة ثم تعيدها وكأنها لاعبة جمباز أو حاملة أثقال، مكررةً أنها لا تستطيع أن تصدق أن الذي يتحدث هكذا ودون تفكير هو أنا.

زودنا السيارة بالوقود، وراحت "داني" تلعب تمارين الركبة بينما قمت أنا بالمهام الأخرى. أثناء العشاء كنا نقرأ الجريدة أو نحملق في قطعة الزبد الموضوعة بيننا. في الصباح التالي رجعت إلى البيت.

بقيت الأربعة عشر يومًا وحدي في البيت الصيفي على بحيرة "شارموتسل". على أي حال لم يكن بإمكاننا أن نستعيد ما دفعناه. بمجرد استيقاظي من النوم

كنت أرتب سريري وأنظف الغرفة على الفور حتى لا يتسخ شيء. لم أغـادر البيـت إلا للسـباحة. بل واشتريت مرتين زهورًا لأنني وجدت زهرية في دولاب المطبخ.

حاولت أن أفكر بهدوء في علاقتي بـ"داني" و"تينو". ولكن ما خطر على بـالي كنـت أعرفـه من زمان. إنني أرى أنه من الطبيعي أن يرغب الإنسان في طفل من صلبه. ولكن ليس معنـى ذلك أنني لن أعتني بــ"تينـو". حتـى اليـوم الأخـير كنـت أعتقـد أن "داني" سـتأتي عـلى الأقـل لتوصلني.

في البداية انتقلت مع "تيري" و"تينو" إلى أبيه، يعني إلى زوج أختها. ظللت آمـل لمـدة طويلـة أنها ستتصل بي في عيد ميلادي. على الأقل من أجل أشـيائها الكثـيرة في الشـقة: جهـاز "الـووكمان" والكتب وسي دي المغنية ماريا كالاس والوحش الرمادي (أعني كرسـيها المفضـل)، كرسـيها المـبطن المفضل – وكل الأشياء التي اشتريناها معًا - طقم المطبخ والحصـير والأبـاجورتين وكـرسي البحـر. لم أكن أستطيع أن أتصل بها وأقول: "آلو "داني، اليوم عيد ميلادي. ألا تريدين أن تهنئيني؟"

شعرت بالغضب تجاه "بيلي" و"توم"، لأنني كنت دومًا أتخيل أنهما نصحاها أن تفـارقني. بعد نصف عام، في أواخر يناير، فُصلت من عملي. لم يتخيل أحد في الصحيفة أن الفصل يمكـن أن يطالني. أنا فقط كنت أعرف أنهم يقصدونني في المقام الأول عندما تحدثوا عن "أننا لا بـد أن نصبح قادرين على المنافسة". كافة قرارات الفصل – حتى فصـل مراسـل صـحفي خـارجي سيئ مثلي – لم تتخذ من أجل صالح أغلبية العاملين فحسب، بـل أيضًـا لصـالح اقتصـاد البلـد كله، أي لصالحي أنا أيضًا في نهاية الأمر.

لم يكن ينقص إلا هذا الجزء حتى تكتمل الصـورة البائسـة التـي كنـت أراهـا منـذ رحيـل "داني". لذا كان منطقيًّا أن أوفر الجهد والتعب، وألا أرفع قضية أمام محكمة شؤون العمال.

في البداية لم أجد الأمر سيئًا، أن تنقضي فترة البحث عن عمل بما فيها من فقدان ماء الوجه. كنت قد سئمت الوجوه العكرة المتهكمة التي كانت تعرفني من قبل. لم أحزن إلا من أجل "بِت". العمل معه كان في بعض الأحيان لطيفًا ومسليًا.

أردت أن أستفيد من الوقت فبدأت في قراءة كتاب شتوريج "الموجز في تاريخ فلسفات العالم"، إلا أنني تعثرت في القراءة قبل أن أصل إلى أفلاطون. عندئذ قررت أن أقرأ رواية "روبرت موزيل" "رجل بلا سمات" – الأجزاء الأربعة اقتنيتها منذ فترة طويلة - لكنني فقدت الرغبة بعد ثمانين صفحة. اشتركت في نادي اللياقة البدنية لمدة نصف عام بمبلغ 449 ماركًا، إلا أنني لم أذهب بعد الأسبوع الثاني. بل لقد توقفت حتى عن استذكار الحصة اليومية من المفردات الأساسية للغة الإنجليزية من كتاب "لانجنشايت" الملقى بجانب سريري. لم يعد يخطر على بالي أي شيء يمكن أن أتحدث عنه. عندما ألقي نظرة إلى الوراء لا أعرف ماذا كنت أفعل خلال ثلاثة أرباع ذلك العام، غير أنني اشتريت مكنسة وأنني كنت أتقابل أحيانًا مع "أوته". لم أستطع السيطرة على أموري، دون أن أعلم لماذا؟

كنت أعتقد أنني الوحيد الذي يلاحظ أن الأرض تدور. لم يفهم أحد عن أي شيء أتحدث. مع أنني منذ وقت طويل وأنا أتأمل في هذا التعبير. الأرض تدور، ولا يستطيع المرء سوى انتظار أن تواصل دورانها، وفي تلك الأثناء يتغير المنظور، أي أن المرء يرى الأشياء أحيانًا بطريقة مغايرة. إلا أنني لسبب لا أعلمه كنت أرى دائمًا الأشياء نفسها.

وفجأة حصلت على عمل كنت قد تقدمت إليه برسالة عادية من تلك الرسائل التي ينساها المرء بمجرد إرسالها. "فريدريش شولتسه، برلين مارينـدورف، شركة النقل الدولية" – لديهم فروع جديدة في "كريميتشاو" و"جوتيبورن". مرتين في الأسبوع أسافر الآن إلى فرنسا ومعي خل ومسطردة من مدينة "ألتنبورج" لسلسلة محلات "ليدل". يتيح لي عملي وقتًا كافيًا كي أحلم بامرأة اسمها "داني" لم تقص شعرها.

تعيش الآن مع زميل سابق لي، مصور من صحيفة "باير" هجرته زوجته. رأيته مرة عند "توم" و"بيلي". لا يناسب "داني".

ربما كان لا بد أن يحدث كل شيء على هذا النحو. أريد فقط أن تلاحظ "داني" في يوم ما أن مكانها ظل شاغرًا، أنني أحبها فعلًا، هي ولا أحد غيرها، حتى وإن لم أعرف في بعض الأحيان ماذا ينبغي أن نفعل معًا، أو عن أي شيء سنتحدث. أنا على كل حال أعتبر ذلك شيئًا ليس شاذًّا: أن أحب شخصًا واحدًا فقط، ولا أحب غيره، حتى وإن كان المرء لا يعيش مع هذا الشخص، بل ولا يقابله.

قبل عدة أسابيع رأيت سيارتها "جيمي الصغير" في موقف سيارات المركز التجاري "كاوفلاند". لم يكن هناك أحد فنظرت داخل السيارة. لم يتغير شيء. وكأنني سأركبها الأن. فقط التفاحة لم تكن موجودة.

أتخيل ماذا كان سيحدث لو أنني كنت السائق، ولو أنني لم أخترع حكاية الطفلين تلك.. كانت "داني" ستقترب مني، وستضع رأسها على كتفي، وتخلع صندلها، وترفع قدمها وتضع كعبها على أقصي يمين التابلوه. كان شعرها سيسقط على ذراعي، بينما كانت أصابع قدميها المطلية ستضغط على الزجاج الأمامي. كانت ستنعس لأنها منهكة تمامًا. وفي المساء كنت سأقود السيارة حتى شاطئ البحيرة، وهناك أقبلها على عينيها هامسًا: "داني، انظري أين نحن الآن".



(21)

إبر



"مارتين مويرر" يستقبل في شقته الجديدة أول زائر. من سيتزوج "فضيلة"؟ أسماك في الزجاجة والسلطانية. سرّ حياة. تنظيف سطح بلكونة. من تنتظر؟

- "فيني"، "فيدي"، "فيتشي".

يقول "طاهر"* راجعًا برأسه إلى الوراء وهو يضحك. يظل واقفًا على آخر درجة من السلم، ويعطي زجاجة المياه المعدنية التي تسع لترًا ونصف لـ"مارتين" الذي يسند بظهره بابَ الشقة ليظل مفتوحًا.

- من أين جئت؟ لقد انتقلت إلى هذه الشقة من أسبوع.

يقول "طاهر":

- شوف!

* "طاهر" هو أحد اللاجئين المسلمين من البوسنة والهرسك الذين هربوا إلى ألمانيا منتصف التسعينيات بعد تفكك يوغسلافيا واندلاع الحرب الأهلية هناك، وهو يحاول أن يتحدث ألمانية سليمة، لكنه يخطئ.

- لا، اثنين؟ وواحدة أخرى!

راح "مارتين" يتأمل الأسماك من الشق الفاصل بين الورقتين الملصقتين على الزجاجة.

قال "طاهر":

- إذا تركتهم في الزجاج سيكبرون كثيرًا.. nobody لا أحد.. لن يعرف أحد كيف دخلوا فيها.

يرتدي "طاهر" قميصًا باهت اللون على صدره تمساح صغير، وبنطلونًا أسود يلمع عند حواف الجيوب، وحذاءً قديمًا نصف رقبة، وعلى الذراع جاكتة.

يغلق "مارتين" باب الشقة ويقول:

- طوالي يا "طاهر"، على طول. هل تعجبك؟

- هات.

يقول "طاهر"، ويذهب بالزجاجة إلى الأرفف على الحائط، ويزيح السيارات الصغيرة والأحجار الزينة، ثم يسحب إلى الأمام زجاجة على شكل سفينة.

- عندما تكبر الأسماك لا بد أن تفعل هكذا.

- الزجاجة.. الزجاجة يا "طاهر"، وليس الزجاج.

يضع "طاهر" الزجاجة بالعرض على الرف. يلمس الغطاء المعدني الأزرق فلين زجاجة أخرى.

- وماذا أعطيها لتأكل؟

يستدير "طاهر" وهو ينقر بسبابته على ظهر يده.

- ما اسم هذا؟

- آه، براغيث، لغاية يوم الإثنين؟ هل محل الأسماك؟..

الرعب يصيب كليهما. تتدحرج الزجاجة على الرف الأسفل وتقع بلا صوت تقريبًا على السجادة.

- ما حصلش حاجة.

يقولها "طاهر" وينحنى على الزجاجة، ثم يكرر:

- ما حصلش حاجة.

كان "مارتين" يقف على ورق الصحف بجوار حذائه الرياضي مرتديًا جوربًا وبنطلون جينز مقصوص من أسفل الركبة. عند الشباك أمسك بفرشاة مسطحة، وراح يغسلها في برطمان مملوء حتى منتصفه ضاغطا بالفرشاة على قاع البرطمان.

- يمكنك أن تساعدني. كنت أريد أن أعرفكما ببعض، أنت و"شتويبر". لديه إمكانيات أكثر بكثير، بكثير!

أمسك "طاهر" بالزجاجة بين إصبعين مؤرجحًا إياها، ثم قال:

- كان لازم ألعب شطرنج.

- كنت ستكسب هنا أكثر من 15 ماركًا – كم يتقاضى الواحد الآن مقابل لعب الشطرنج؟ أخي، "بت"، كان هنا أيضًا، هو الوحيد الذي لديه أشياء تناسبك.

يسأل "طاهر":

- إيه ده؟

- محلول بديل للتربنتين.

- لا. تيك تيك تيك. clock.. أأأ.. ساعة؟

- فظيع، أليس كذلك؟ كأنها قنبلة زمينة. اعتقدت أنك الكهربائي.

- أنا مش كهربائي.

- ليس أنت! أنا أنتظر الكهربائي، الذي سيعمل لي هذا، واعتقدت...

يقول "طاهر" هازًّا رأسه:

- آه، آه..

- صوت وكأننا في محطة محولات كهربائية.

يصدر "مارتين" أزيزًا ويحاول أن يغطي على الصوت.

- ثم هذه التكات. إذا كانت هذه هي التكنولوجيا الحديثة.. إذا لم يصلحوها لن ندفع، no money، بكل بساطة.

يجفف "مارتين" الفرشاة في لباس مهترئ.

- هذه الشقة كانت شقة البواب، ليس إلا. عليك أن ترى المنظر عندهم تحت. مبنية على طراز "اليوجندستيل"، طابقان، فخامة لا توصف. كان كل هذا روضة أطفال، لكن سوء الإدارة أفسدها. وهنا على السطح شقة البواب، لها مدخل خاص.

يلقي "طاهر" الجاكيت على كتفه ويمسكه بإصبعه. يتبعه إلى الممر.

- هذه غرفة "تينو"، حتى إذا جاء ينام بها. الباب مدهون أيضًا.

يضغط "مارتين" بأنامله على الأكرة. الستارة محشورة بين المصراعين.

- صغيرة قليلًا، ولكن ماشي الحال.

يفتح الشباك ويهندم الستارة، ثم يخرج ويفتح الباب المقابل.

- أنا أنام هنا. لا شيء تتفرج عليه. لا يتكلم "شتويبر" عن هذا الموضوع، ولكنه بالتأكيد دفع ما لا يقل عن مليون لهذين الدورين. مقابض النوافذ، كلها مصنوعة بالطلب، جميلة، مش كده؟ كان "شتويبر" يخشى دومًا أن يقوم البواب العجوز في يوم ما بتفجير هذا كله. لم يكن يسمح لأي أحد بالدخول

عنده. أتعرف كيف كانت هذه الشقة تبدو قبل ستة أسابيع؟ لن تستطيع أن تتصور ذلك. انظر هنا.

في الحمام يغلق "مارتين" غطاء التواليت، ثم يضيف:

- لم يكن بالإمكان وضع بانيو أكبر، ولكن المهم أن هناك بانيو. اضغط هناك، ضوء إضافي. والمرآة! قمت باختيارها بنفسي ووضعت له الفاتورة في صندوق البريد. لا بد أن يدفع أجرتي أنا أيضًا. والآن أجمل شيء.. هل تغلق الباب؟

يفتح "مارتين" باب الشرفة في المطبخ على مصراعيه، ثم يزيح بقدمه إسفينًا خشبيًّا تحت الباب.

- عندما ينتهي العمل هنا... بلكونة مع شقة، وليس العكس. تفضل يا سيدي!

يأخذ الزجاجة من "طاهر".

- حتى لا تلقيها على رأس أحد.

يقول "مارتين" واضعًا الزجاجة على المائدة.

تحتم على "مارتين" أن يتناول من الدولاب السلطانيات البلاستيك الثلاث كي يصل إلى أكبرها. وضع فيها ماءً باردًا ثم راح يرجّها. ألقى الماء ثم فتح غطاء زجاجة الماء، وصاح قائلًا:

- لا تسمع هنا إلا صوت العصافير. أشجار الصنوبر نادرة في هذه المنطقة. الطحالب أيضًا. الصنوبر والطحالب.

يمسك "مارتين" بالسلطانية في وضع مائل وكأنه يملأ كأس بيرة. ينساب الماء إلى حواف السلطانية. ببطء يرفع الزجاجة إلى أعلى.

- كنت أعتقد أن "فضيلة" عندك، ربما.

"طاهر" يبقى واقفًا عند باب البلكونة.

- "فضيلة"؟ إنها خطيبتك أنت.

"مارتين" يُنزل الزجاجة.

- أنا لا أعرفها على الإطلاق. كيف لها أن تعرف أن...

- أنا أحكي كثيراً عنك.

يطوح "طاهر" رأسه إلى الوراء ويضحك قائلًا:

- نتكلم كثيراً عنكم يا بني آدم.

- عنك، إذا كنت تقصدني أنا. عنك، عنكما، عنكم.

يُنزل "مارتين" سمكة من الزجاجة ثم يدير غطاءها ويحكم إغلاقها.

- على الزجاجة رهن، 35 فنكا.

- نحن نتكلم عن "فضيلة" وأنت – ليه لأ؟

يعلق "طاهر" الجاكتة على مسند الكرسي. من المحفظة يخرج صورة بالألوان، ثم يمسح بيده على المائدة ويضعها أمام "مارتين".

شابة حافية تستند على حائط مطلي، ترتدي بنطلون جينز فاتحًا وقميصًا من الفلانل، وشعرها مقصوص على موضة الأمير "إيزنهرتس". عظام وجنتي "فضيلة" ملفتة للنظر، ونظرتها جادة.

- هل تشبه؟

- مَن؟

- أسألك أنت يا بني آدم!

- حسب تسريحة الشعر والطول تُشبه المغنية "ماري ماتيو".

- لا، "جوليت بينوش". لا تضع ألوانًا حتى تنظر جميلة.

- حتى **تبدو** جميلة.

- شايف طولها؟ صغيرة، هكذا!

يصنع "طاهر" بأصابعه مسافة قدرها عشرة سنتيمترات.

- هكذا!

تتسع أصابعه وكأنها مؤشر.

- ليس أكثر.

في الصورة يرى المرء قدم "فضيلة" اليمنى موضوعة على اليسرى، ركبتها مثنية.

- حذاء صغير جدًّا، مثل "جوليت بينوش".

- هل عند الصغيرة حذاء؟

- لا أعرف.

يضحك "طاهر".

- اعتقدت أن "فضيلة" في برلين؟

يتأمل "طاهر" الصورة.

- نسكن شارع "لايبتسج". ماما في برلين.

- المرة الأخيرة كان العكس.

يفتح "مارتين" باب الدولاب، ثم يسأله:

- وأبوك؟

يضحك "طاهر" ضحكة قصيرة.

- هل هو أيضًا هنا؟

- ذبحوه.

- أبوك؟ كيف؟

"طاهر" يضحك، ويضع قبضته على سرته، ثم يسحبها حتى ذقنه، قائلًا:

- شقوا بطنه.

- أنا قصدت.. لم أقصد.. أنا آسف.

يزيح "مارتين" علبة بها شرائح خبز محمص، وكيسًا به مكرونة وآخر به حبوب "موزلي" وثمار توت مجففة. - أين حدث ذلك؟

- في المستشفى، في "بريتشكو".

- سنذهب فيما بعد لنأكل شيئًا، موافق يا "طاهر"؟ أم تريد شيئًا الآن؟

يشير "مارتين" إلى علبة مرسوم عليها بودنج بالشوكولاتة، وعليها كريمة صفراء.

- دون أن نطبخ!

"طاهر" يهز رأسه.

- أنت معزوم. أنت أول ضيف يزورني هنا. سنذهب، موافق؟

- موافق.

- أنت جوعان؟

- آه.

- عندما أنتهي من كل شيء هنا سأقيم حفلة. عندئذ ستجيء ومعك "فضيلة"، موافق؟ هل ما زال الريحان صالحًا للأكل؟

"مارتين" ينقر على الكيس من الأسفل.

يصطدم "طاهر" بساق المائدة، تهتز المياه وتصل حتى الحافة.

- ليه مش جواز مع "فضيلة" – ليه لأ؟

تلمس كلتا السمكتين البرتقاليتين بفمهما قاع السلطانية. السمكة الزرقاء تسبح ببطء. يفرم "مارتين" أوراق الريحان. قال "مارتين" ناظرًا له:

- إذًا أنت لا تبحث عن "فضيلة"؟

- أنا أبحث عن "فضيلة". "فضيلة"...

يحاول "طاهر" الإمساك بناموسة بيده اليسرى. مسح أصابعه ببطء على كفه الآخر.

يقول "مارتين":

- لا شيء هناك.

تنفرج أصابع "طاهر" ويشير إلى البقعة بين الوسطى والبنصر. يلقي بالناموسة في السلطانية.

- كنت أعتقد أنكما مخطوبان؟ أنت قلت إنكما مخطوبان، والآن تسألني إذا كنت أريد الزواج منها؟!

يضع "مارتين" كيس الريحان في الثلاجة.

- هل تعتقد فعلًا أنها ستأتي اليوم؟ أن "فضيلة" ستأتي إلى هنا؟

- أعتقد.

- من أين حصلت عليها، الأسماك؟

يضع "طاهر" الصورة في محفظته.

- واحد كسر حوض سمك، خناقة كبيرة بين الكل. كل واحد أخذ... الأسماك

يحرك "طاهر" أصابعه.

-..... الأسماك التي لم تمت، وتلعب في الماء.

- نعم، تلعب في الماء.

- كسر حوض سمك؟

- آه.

يدس "طاهر" المحفظة في جيب الجاكيت. فتات من الريحان يلتصق بحافة السلطانية.

- سأجن من هذه التكات من صندوق المنصهر. أم أنه يُهيأ لي فقط يا "طاهر"؟ كم الساعة الآن؟

يشير "مارتين" إلى معصمه.

يمسك "طاهر" بمعصمه الأيسر ويدير الساعة ليرى الوقت. يقفز عقرب الثواني ثم يعود إلى مكانه.

قال "مارتين":

أنت بحاجة إلى بطارية جديدة. بطارية. هل تساعدني في البلكونة؟ هناك خطورة إذا فعلت هذا وحدي. أريد أن أنظف المظلة فوق البلكونة.

- هل هذا هو أنت؟

يأخذ "طاهر" صورة من على الصندوق الذي يحفظ فيه الخبز.

- عرفتني؟ إلى أقصى اليمين، هذا الذي يقرفص، كان عمري عشرين سنة.

يدور "مارتين" حول المائدة، ويضيف:

- هذا، قابلته أثناء نقل أشيائي إلى الشقة. وهذا...

يقول ناقرًا بإصبعه عليه:

- نسي الصورة عندي، "ديمتريوس"، يوناني.

يسحب "مارتين" من الثلاجة زجاجتي "كلاوستالر".

- دعك من كل الذين في الصورة، كلهم. ولا واحد فيهم أصبح شيئًا.

- من الذي لم يصبح شيئًا؟

- واحد باحث في الفن، والآخر باحث في تاريخ الفن. تشرب "كلاوستالر"؟ منذ ثلاث أو أربع سنوات ظهر فجأة، "ديمتريوس"، دون أن يتصل بي قبلها أو يخبرني بمجيئه. دق الجرس، فتحت، ورجع هو برأسه. هكذا كان يبتسم دومًا، برأس مُلقاة إلى الوراء.

راح "مارتين" يقلده.

- كان يحمل حقيبة ضخمة، وعلى بسطة السلم وضع شنطتين أخريين كبيرتين.

ممسكًا بزجاجة بيرة "كلاوستالر" الخالية من الكحول في كل يد رسم "مارتين" دوائر كبيرة في الهواء أمام وجه "طاهر" قبل أن يضع الزجاجة على المائدة.

- هذه هي "حلقتنا الدراسية" عندما كنا نجمع محصول التفاح. "ديمتريوس" له أصابع مثل عازف الجيتار أو الكمان، الأنامل متصلبة. كان يقرض أظافره.

يعض "مارتين" على أظافره.

- يقرض، فاهم؟ كان يتحدث الإنجليزية والإسبانية والفرنسية والإيطالية، بعد قضاء عام في معهد "هيردر" في مدينة "لايبتسج" الألمانية أيضًا. وكان يتحدث اليونانية طبعًا. وكان يتحدث الروسية أيضًا، مثلما هو الحال عند الشيوعيين. أبوه كان معتقلًا سياسيًّا في جزيرة "ماكرونيزوس". آخر مرة رأيته سنة 88، سنة البكالوريوس. آنذاك كان ينوي الزواج من فتاة دنماركية، ثم يأخذها ويعودا إلى الوطن، إلى اليونان. كان يريد التفرج على الرومان القدماء،

هنا، في متحف المدينة، مثل "جيدو دا سينا"، و"بوتيشلي"، إلى آخره. ثم طلب مني كوب مـاء. في السابق كان يطلب نصف كوب. في صحتك يا "طاهر".

- ليه؟

- في صحتك. لأنه كان يريد أن يعاني، من أجل الشيوعية، من أجل العلم، من أجل...

يتناول "مارتين" رشفة، ثم يقول:

- ببساطة من أجل كل شيء. الحقيبة والشنط كانوا ممتلئين عن آخرهم، على حد تعبـيره. قال إنه يريد إرشاد الرفاق الثوريين، في كل مكان، وحيثما كانوا. لم يكن يعرف هنا أحدًا غيري. قلت له إن قيام ثورة في ألمانيا أمر لا أعتبره محـتملًا ولا مرغوبًـا فيـه. عندئـذ راح يعـاني مـرة أخرى وقال: كثيرون يفكرون مثلك، ولكن هذا ليس صحيحًا. في اليوم التالي ذهبنا إلى المتحف، ثم إلى المحطة. كنا نتبادل حمل الحقيبة. كان من الممكن أن تكـون بـداخلها قنبلـة. لم أسـمع عنه بعد ذلك شيئًا على الإطلاق. لا تعجبك البيرة؟

- وهذا؟

- المخبر في الشلة. ظهر هنا بعد أسبوعين مـن جنـازة "أنـدريا"، زوجتـي، لـكي يسـأل عـن حالي. في "لايبتسج" لم نكن نتكلم مع بعضنا في الفترة الأخيرة. حتى اليوم لا أعرف لمـاذا تركتـه يبيت هنا. ليس هنا، في الشقة القديمة في "ليرشـنبرج". آنـذاك انفعلـت لأنـه لم يكلـف نفسـه حتى عناء نزع الملاءة عن السرير قبل أن يغادر. كما أنه لم يغتسل. في الحقيقة، كنـت غاضـبًا من نفسي لأنني قمت بخدمته. لست سريع البديهة. لم أكن أريد أن أراه ثانية أبدًا، أبدًا. وإذا حدث ذلك، كنت أنوي أن أقف أمامه قائلًا: هنا مكان لواحد منَّـا فقـط، إمـا أنـا وإمـا أنـت. أخذت أتمرن على هذا حتى أعد نفسي لتلك اللحظة.

"مارتين" يشرب من الزجاجة.

- هل عندك؟

- هذا غادر "لايبتسج" من زمان.

- "مارتين" الآن يسوع المسيح، ويحب الكل.

- و"طاهر" يصوم لله وتفوح من فمه رائحة كريهة.

- رائحتي كريهة؟

- نعم. لهذا قدمت لك أقراص نعناع. للهواء فقط.

يحرك يده أمام فمه ثم يشير إلى بطنه:

- ليس من أجل هذا. هل تفضل المياه المعدنية على البيرة؟

- وهذا، هنا؟

- هذا فقد وظيفته وبدأ يشرب، أو فقدها لأنه يشرب. طلق امرأته قبل ذلك. العام الماضي تقابلنا في برلين. لم يتغير، أقصد أن ما قاله هو ما كان يقوله فيما قبل، أيضًا لم يقرأ غير ما اعتاد قراءته. لكنه أصبح يشرب يوميًّا. "برلين باردة زي الرصاص"، هكذا كان يردد: "زي الرصاص" – باردة جدًّا. رمموا البيت الذي يسكن فيه، في "كناك شتراسه"، بيت خلفي لا يطل على الشارع. كل شيء جديد، حتى المواسير. كانت هناك حفر في الأرضية في كل مكان، حفر كبيرة. ولأنه سكير فقد وقع مرة في إحدى هذه الحفر، ووجد نفسه في الطابق الأسفل حيث كاد يتجمد من البرد. المستأجرون الآخرون كانوا قد تركوا البيت منذ وقت طويل. ناس مثلنا لا يشرفون أحدًا، فعلًا.

يسير "مارتين" إلى الحوض ويغسل زجاجته.

- هذه الواقفة بجانبي ألقت برسالة الدكتوراه في صفيحة الزبالة ولم تتمها. كانت أميرة جماعتنا. حتى في بيت الطلبة كانت تمسح فمها أثناء الطعام

بمنديل من القماش وليس مثلنا في مناديل ورقية. الأساتذة الجدد جاؤوا بمعارفهم إلى الجامعة. تعمل الآن مرشدة سياحية في "إيرفورت". وهذه الجميلة، السمراء، هذه الآن مطلقة وعندها طفلان، وتعيش مع أمها في قرية بالقرب من "تمبلين". أمَّا الآخرون فلا أعرف عنهم شيئًا. هيا، لا تعذب نفسك.

يأخذ "مارتين" من أمامه زجاجة "الكلاوستالر" ويغلقها ضاغطًا على السدادة الفلينية.

قال منحنيًا على السلطانية:

- هؤلاء أيضًا لا يأكلون بشهية. لا بد أن يتعودوا أولًا على البيئة الجديدة.

أحضر "مارتين" حذاءه الرياضي. ثم جلس في المطبخ على كرسي منخفض وشد لسان الحذاء وأرخى الرباط قليلًا.

- كان من بين أساتذة ومدرسي الجامعة من يهتم فعلًا بأمرنا، أو على الأقل بالدراسة. هؤلاء كانوا يريدون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ويريدون أن يتواصلوا معنا. كانوا مثلنا، لم يعرفوا اليونان أو مدينة "هيلدسهايم" إلا من الصور.

يثني "مارتين" قدمه واضعًا كعبه على حافة الكرسي المنخفض، ثم عقد رباط الحذاء عقدتين.

- من أجلهم أشعر فعلا بالأسف لأننا لم نفلح. **I feel sorry for them** ، فاهم؟

يعيد "طاهر" الصورة إلى مكانها فوق صندوق الخبز.

- والآن، هل تساعدني؟

يذهب "مارتين" بالكرسي إلى البلكونة. يشير إلى أعلى.

- هذا مصنوع من البلاستيك المتموج، إذا كان هذا اسمه. يصبح شفافًا عندما يكون نظيفًا. الوساخة متجمعة في التجويفات. غصون شجر، أوراق،

وقذارة. كل هذا ينزل من شجرة الصنوبر. عندما أرى ما يجمعه "شتويبر" من طحالب كل يوم – إنه يفتخر افتخارًا عظيما بالطحالب. لم ينظف أحد هنا منذ سنوات طويلة. عليك أن تسندني، فقط تسندني.

يهز "مارتين" السياج الحديدي المحيط بالبلكونة حيث ما زالت حوامل أصص الزهور مثبتة عليه، ثم يجر الكرسي ناحيته. يقول له ممسكًا بحزامه:

- امسكني من هنا. والأفضل بيديك الاثنتين، هكذا. الأول هنا...

يسحب من خلف الدلو الملئ بمشابك الغسيل جاروف لعبة ومكنسة يدوية.

- الأول هذا، ثم هذا.

يخبط "مارتين" بكف يده على حوامل المظلة.

- المرة القادمة الدور عليها. أكلها الصدأ.

بظفر الإبهام يكحت بقايا طلاء أبيض.

- نبدأ؟

يضحك "طاهر". يركع "مارتين" على الكرسي القصير، ثم ينهض ببطء متشبثًا بالحامل المثبت في الركن. يخطو خطوة نحو السياج الحديدي.

- أمسكني جيدًا يا "طاهر"!

يسحب "مارتين" قدمه الأخرى.

- "طاهر"، هيا، أمسك جيدًا!

ببطء بالغ وبظهر محني يستدير "مارتين"، ثم يسأل "طاهر":

- ماذا حدث؟ أين الجاروف؟

- إنها تمطر.

- الجاروف!

يمسك "مارتين" بذراع الجاروف بين أسنانه، ثم يمد رأسه فوق المظلة.

- هذا حقل زراعي! كله على بعضه! شوف! مزبلة حقيقية!

صوت مكتوم يصدر عن أول خبطة في هذه الحديقة الغناء.

- حقل زراعي مثمر!

يتتبع "طاهر" حركات "مارتين". يتطلع إلى عضلات السمانة وإلى الحذاء الرياضي الذي يسير ببطء على السياج.

يكرر "طاهر":

- إنها تمطر.

يثب "مارتين" على أطراف أصابع قدميه.

- سأجعلها تمطر زبالة وورق صنوبر. سترى كيف ستصبح هذه المظلة البلاستيكية منفذة للضوء. هذا هو ما سيعطي الشقة كلها جمالًا.

يده اليمني تظهر ثانية تحت المظلة وتضرب عدة مرات في الهواء.

- المقشة!

يناوله "طاهر" المقشة.

بعد لحظة يظهر رأس "مارتين" تحت المظلة البلاستيكية. شعره مبلول، الوساخة تلتصق بذقنه وأنفه. يقفز إلى أرضية البلكونة.

- هه؟ إيه رأيك؟ الوضع الآن تغير تمامًا. آخ، لم أُنزل كل شيء؟

يخبط بالجاروف الصغير من أسفل على السقف.

الآن يمكنك أن تعد أوراق الصنوبر، كل واحدة تقع على السقف!

- الآن الصوت عال جدًّا.

- يكون عاليًا عندما تمطر فقط.

يقول "مارتين" ذلك ويمسح جبينه بكمه مرورًا بالأنف إلى الذقن، ثم يضيف:

- أحب سماع صوت المطر على السقف. فلترَ إذا كان المطر دخل من الشباك في غرفة الجلوس، فاهم؟

عندما عاد "طاهر" كان "مارتين" جالسًا وظهره على الحائط. في الحديقة يرمي شخص ما لعب أطفال بين الشجر. صوت نسائي يصيح عدة مرات:

- كله اتسخ! كل لعب الأطفال اتسخت!

عندئذ ظهر "توماس شتويبر". يسير بحذر فوق الطحالب ملتقطًا اللعب. ويحمل بيد جرارًا بثلاث عجلات، وشاحنة قلابة. باليد الأخرى يجمع قوالب بلاستيكية مختلفة الأحجام، وفي كل مرة تخبطه العجلة اليمني الخلفية للجرار في كعبه. الصوت النسائي يعلو ثانية. فجأة يستدير "شتويبر".

- ولكن ليس على الطحالب!

يزأر رافعًا يديه الممدوتين. يسقط منه قالب أحمر. يلتصق قميصه بكتفه. ينحني محاولًا أن يلتقط القالب بإصبع واحد. يعيد الكرة عدة مرات. إلا أنه يفشل. ينهض، ثم يطوح يديه عدة مرات قبل أن يرمي الجرار على سلم الشرفة، ثم يتبعه بالشاحنة. يلقي بكل الأشياء الأخرى إلى أسفل، ثم يمسك بالقوالب ويرميها عبر السياج.

يقول "طاهر":

- هو مجنون، مجنون تمامًا.

من مكانه يراقب "مارتين" السقف حيث يغطي صوت هطول قطرات المطر على كل ما عداه. فرع من شجرة الصنوبر تطل جانبًا، مسافة ضئيلة، ثم ترجع إلى الخلف. بين الحين والآخر يقفز فرع صنوبر تحت المطر، ثم بجانبها فرع أخر. بين لحظة وأخرى تتساقط الأوراق.

صاح "مارتين":

- يا إلهي! أترى؟

غطت الأوراق السقف تمامًا. أكداس من الورق تغمره.

- أترى الأوراق؟ تيك تاك، تيك تاك.

يحرك "مارتين" إبهامه يمينًا ويسارًا.

- نعم. كأنها سمكة صغيرة.

يستند "طاهر" إلى إطار الباب، ثم يسأل:

- متى يجيء كهربائي؟ تنتظر؟

- لا.

أجابه "مارتين" بعد برهة.

- يمكننا أن نذهب الآن.

وببطء نهض مستندًا بظهره إلى الحائط.

(22)

ما فات مات



حديث في موقف سيارات المستشفى في "دوزن". "ريناتا" و"مارتين مويرر" يحكيان حكاية "إرنست مويرر" القصيرة. الدكتورة "هوليتشك" تسجل ما يقولانه. مستقبل الحب. زوجة متوفية في حادث، وعاشقة تسافر بالأتوستوب.

- كيف؟

تتساءل "ريناتا مويرر"، وتأخذ نفسًا وكأنها تريد مواصلة الحديث، ثم تحبس أنفاسها. تضع يداها بين ركبتيها، ثم تضيف:

- لا، لم تكن مفاجأة لي. لقد توقعت ذلك. لا يحتاج المرء إلى أن يكون عرافًا، فعلًا، ولكن...

نظرت جانبًا قبل أن تقول:

- يعني.. الأمر غريب فعلًا ألا يتحرك أحد قبل أن تقع الواقعة، إن مثل هذه القوانين..

قالت د. "هوليتشك":

- أعرف. ولكن لا بد أن نلتزم بالتعليمات. كما أن.. ما البديل في رأيك؟

يبتسم "مارتين" ويقول:

- لا بد أن يقع الطفل في البئر حتى يستطيع أحد انتشاله.

تقول "ريناتا مويرر":

- على كل حال، هذا الدرس حفظناه الآن.

رجعت بكتفيها إلى الوراء واعتدلت في جلستها قبل أن تضيف:

- ولكنني لم أعرف **أي مصيبة** يريد أن يفعل. كنت متأكدة من حدوث شيء، مثلما ينتظر المرء كلمة "آمين" من المصلين في الكنسية.

شربت جرعة من الماء المعدني ووضعت الكوب أمامها على المكتب. أكملت:

- بل إنني أرى الأمر الآن منطقيًّا. كان لا بد وأن يحدث شيء في منتهى السخافة. شيء ليس له علاقة حقيقية به. شيء آخر لا يتناسب مع المخطط، مع النظام، سمه ما شئت، مع القوانين. وإلا فلن يفعل أحد شيئًا. لهذا السبب وحده أنا سعيدة أن "إرنست" فعل تلك الحماقات، وأن أحدًا لم يصبه ضرر. كان رجلًا طيبًا.

سأل "مارتين":

- **كان** رجلًا طيبًا؟

- بالفعل كان طيبًا!

- تقولين **كان**، "إرنست" لا يزال حيًّا.

- طبعا لا يزال حيًّا. ومع ذلك يمكنني أن أقول إن "إرنست" كان رجلًا طيبًا. ما الفظيع في ذلك؟

- لا شيء.

- إنسان طيب – كما يقول الروس. هل تفضل ذلك؟ "مارتين" غير راضٍ عني في الفترة الأخيرة.

دون أن تستدير سحبت د. "هوليتشك" الجاكت التريكو من مسند الكرسي ولبسته فوق معطف الأطباء ذي الكم القصير الذي كانت ترتديه والذي كان أكبر من مقاسها بنمرة أو نمرتين.

قالت "ريناتا مويرر":

- تزوجت للمرة الثانية في السابعة والعشرين. كان "إرنست" يحب الأطفال جدًّا. "مارتين" كان في الثامنة و"بِت" في السادسة. لم أكن أريد إنجاب أطفال أكثر. وافق على ذلك، رغم أن ابنه من زوجته الأولى كان قد تُوفي. كان لـ"إرنست" شرط واحد فقط، وهو ألا يكون لنا علاقة بزوجي الأول. إذا أرسل لنا "هانز" رسائل، كنا نعيدها إليه، حتى الطرود. كنت أرى أنني لا بد أن أفعل ذلك من أجل "إرنست". لم يكن مسموحًا له بعلاقات مع ناس من الغرب.

- زوجك الأول من...

قال "مارتين":

- كان يعتقد أننا سنلحق به إذا تمكن من الفرار إلى ألمانيا الغربية.

- من يبتعد عن الأطفال، يكون قد اتخذ قرارًا ضدهم - هذا كان رأي "إرنست" دائمًا. في البداية ظننت أن "إرنست" يرغب فيَّ فقط لأنه مكلف بهذا، حتى لا نلحق بزوجي في الغرب. لكنني لم أكن أريد الفرار. لقد كنت معجبة به أيضًا. كما أنه لم يكن مخطئًا تمامًا في رأيه.

سأل "مارتين":

- لم يكن مخطئًا.. في أي شيء؟

- أنت تعرف ما أقصد. ليس من الضروري أن...

حملقت "ريناتا مويرر" في المائدة أمامها، ثم أكملت قائلة:

- المال أسوأ من الحزب في بعض الأحيان. بالتأكيد لم يكن العيب في أشخاص مثل "إرنست"، لا. وإذا أردت أن تغير شيئًا، فلا يمكن أن تنسحب من كل شيء، عليك بالانضمام إلى الحزب. ربما كان سلوكه صحيحًا.. أليس من المسموح أن أقول ذلك؟

- والدتك...

قال "مارتين":

- طبعًا، طبعًا. لا أقصد أن.. أنا آسف، ولكن...

- لا يمكن لناظر مدرسة أن ينسحب وينكفئ على حياته الخاصة. لا يمكنه أن يفعل ذلك في أي مكان في العالم. هناك أشياء لا بد أن يقوم بها المرء، حتى ضد إرادته.

يقول "مارتين":

- ليس هذا محل خلاف.

يلتفت "مارتين" إلى د. "هوليتشك" ويسألها:

- ماذا قصدت عندما قلتِ إنه الآن.. هل أعطيته.. مهدئًا؟

- لم نفعل شيئًا حتى الآن. لقد جاء إلينا بحالته هذه الليلة الماضية.

أخذت تشد الجاكت التريكو.

- وماذا تعتقدين...

- لا أستطيع أن أقول أي شيء.

- لكن...

- لا شيء. الدور الآن على طبيب مكتب الصحة ثم يجيء قرار المحكمة الابتدائية. عندئذ سنرى. كل ما أعرفه أنه ليس حالة منفردة. هذا هو كل شيء.

- سيظل هنا؟

- عدة أيام، بالتأكيد.

تسأل "ريناتا مويرر":

- أيام؟

- وبعد ذلك؟ هل يمكن...

أصاب الخرس "مارتين" عندما هزت رأسها بالنفي، ثم قال:

- فهمت.

قالت "ريناتا مويرر":

- كل شيء واضح. علينا ألا نتظاهر بشيء. أنا أعرف مشكلته. وهذا ما يجعل الأمر صعبًا. هذا هو أسوأ ما في الأمر. إنني أعرف تمامًا حالته من الداخل، من هنا، أعرف تمامًا.

- معذرة.

قالت د. "هوليتشك" عندما سمعوا طرقات، ثم فتحت الباب الموارب. تحدثت بصوت خافت وهي تومئ برأسها. كان شعرها ذيل الحصان - المربوط بثلاث حلقات من القطيفة على مسافات متساوية - يتأرجح كالبندول على ظهرها.

همست "ريناتا مويرر":

- ما رأيك في المكان؟

أجاب "مارتين":

- على الأقل جددوه.

- نعم، كل شيء يلمع.

- معذرة.

قالت د. "هوليتشك" وهي تجلس. أكملت:

- قاطعت كلامك.

تقول "ريناتا مويرر" وهي ترسم بيدها في الهواء:

- عايشت ما حدث خطوة خطوة. يومًا بعد يوم. لكنني كنت أعتقد أن الأمر سيتحسن يومًا ما.

أنزلت يدها، ثم عقّبت:

- لقد تغلب الآخرون أيضًا على أزمتهم.

قال "مارتين":

- كانوا يلعبون به الكرة، ثم يتخلصون منه. كان يتركهم دائمًا يفعلون به ذلك. كلما أرادوا شيئًا، لم يكن يقول أبدًا: "لا".

- كان يقول لا، يا "مارتين". لم يكن الأمر هكذا. لو لم يكن يقول لا...

- لكنه تركهم يلعبون به الكرة، مرة بعد أخرى.

- عندما بدأت أحداث سور برلين سنة 89 كلفوه بكتابة رسالة إلى بريد القراء.

قال "مارتين":

- وهو ما فعله الرفيق "مويرر".

- لم يكتب إلا ما كان يـؤمن بـه. كتـب عـن المجـر سـنة 56* وربيـع بـراج سـنة 68* وأن المظاهرات لا تغير شيئًا، وأن على المحرضين ألا يتوقعوا الرأفـة. وعنـدما جـابوا هـذه المنطقـة أيضًا، حاملين الشموع واللافتات، اكتشفت أنهم كتبوا على إحـداها: "لا رأفـة مـع مـويرر". في الصحيفة لم ينشروا سوى صورة واحدة فيهـا هـذه اللافتـة. تملكنـي الخـوف. لكننـي أُعجبـت بشجاعته عندما ذهب إلى المدرسة في اليوم التالي. اعتقدت أنهم سيقفون يومًا مـا أمـام بـاب بيتنا. عندما سألني "مارتين" إذا كنت أود أن أسافر معه إلى "لايبتسج"، على الأقل لأتفرج عـلى المدينة، طرده "إرنست" من البيت ومنعه من دخوله مرة أخرى. وماذا يفعل "مـارتين"؟ مـاذا يفعل مع أخيه "بِت"؟ أهدونا رحلة بالأتوبيس إلى إيطاليا. في فبرايـر 90 سـافرنا بطريقـة غـير مشروعة إلى إيطاليا.

قال "مارتين":

- بمناسبة عيد زواجهما العشرين. خمسة أيام، فينيسيا، فلورانسا، أسيزي. حتى يغيرا الجو، ويخرجا من دائرة أفكارهما.

سألت د. "هوليتشك" عندما توقفا عن الحديث:

- وبعدين؟

- هذا لا بد أن تحكيه أنتِ يا ماما.

---

* عام 1956 اندلعت في المجر انتفاضة شعبية تطالب بإصلاحات ديمقراطية. لم تستطع الحكومة المجرية السيطرة عـلى الوضـع إلا بعد تدخل القوات المسلحة السوفيتية. (م)

* ربيع براج 68: تسمية أُطلقت على المحاولات التي حدثت في تشيكوسلوفاكيا عام 1968 لتطبيق "الاشتراكية ذات الوجه الإنسـاني". في 21 أغسطس تدخلت قوات حلف وارسو (من الاتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقية وبولندا وبلغاريا والمجر) ووضعت حدًّا لـذلك "الربيـع". (م)

- لولا رحلة إيطاليا، ولولا رسالة بريد القراء، كان الأمر سيكون مختلفًا. على الأقل هذا ما أظنه أحيانًا. ذات يوم فصل زوجي معلـمًا لأن تلميـذًا سـخر مـن الحـزب الحـاكم وكتـب عـلى كراسـة الواجبات: "البولشفية تأتي من الشرق". اتهموا المعلم أنه كان على علم بذلك – في الكراسة نفسـها كان التلميذ قد نقل الـدعوة إلى آخـر اجـتماع لأوليـاء الأمـور. كـان ذلـك في عـام 78، أو في هـذه الحدود. آنذاك عقد الحزب الـديمقراطي المسـيحي* اجتماعًـا في "دريسـدن"، وكـان مكتوبًـا عـلى لافتاته: "من الشرق يأتي النور"، أو "السلام"، الأمر سيان. عندئـذ كلفـوا "إرنسـت" أن يفعـل شـيئًا، التكليف جاءه من فوق، من القمة! لم يكن زوجـي بالشـخص المهـيج أو المحـرض. وهـذا المـدعو "شوبرت" بالذات.. سافر معنا إلى إيطاليا.

سألت د. "هوليتشك"، وهي ترمش بعينيها:

- "زيوس"؟

تومئ "ريناتا مويرر" برأسها.

تساءلت د. "هوليتشك":

- آه. أليس هو الذي مات من سنة أو سنتين؟

- آنذاك لم يتضرر من القرار. كان...

- كيف لم يتضرر يا ماما؟ ثلاث سنوات في منجم فحم. لصالح الاقتصاد القومي!

---

* المقصود هنا "الحزب الديمقراطي المسيحي" في ألمانيا الشرقية الذي تأسس عام 1945 تحـت لـواء الحـزب الحـاكم، وهـو الحـزب الاشتراكي الموحد. بعد التحولات التي حدثت في الكتلة الشرقية عام 1989 وبعد انهيار سور برلين أقام هذا الحزب علاقات وثيقة مع نظيره في ألمانيا الغربية الذي كان يترأسه آنذاك المستشار هيلموت كول. وفي عام 1990 قاد كول شطري الـبلاد إلى الوحـدة. عندئـذ اتحد الحزبان في شرق ألمانيا وغربها.

- هناك من يفعل هذا طول عمره... بعد ذلك حولوه إلى المتحف، ليعمل مسؤولًا تربويًا. كان يتمنى ذلك دائمًا، أنت نفسك قلت هذا. "مارتين" كان يعرفه.

- كنت أراه بين الحين والآخر. كنت أصادفه في كل مكان، وعند افتتاح أي شيء. في هذه البلدة الصغيرة يعرف كل شخص الآخر.

- معذرة، ولكن ماذا حدث مع زيوس، مع السيد "شوبرت"؟

هزت "ريناتا مويرر" رأسها.

قال "مارتين":

- قبل الوصول إلى "أسيزي" تعطل الأتوبيس. عندئذ فقد زيوس صوابه. كان يعتبر الرسام الإيطالي "جوتو" أعظم فنان. ثم، قبل "أسيزي"، يعني على بعد فركة كعب، يرجعون! فقد عقله. هذا ما أسميه "صدمة ثقافية". هذا أمر موجود، أليس كذلك؟ عقلية ألمانيا الشرقية، وكأنه لن يستطيع طول حياته أن يسافر مرة ثانية إلى هناك.

- لم يترك مناسبة إلا وأنَّب فيها "إرنست"، أمام الجميع. كان الأمر عبثيًا تمامًا.

حكَّت "ريناتا مويرر" بحذر حلمة أذنها الملتهبة، ثم أضافت:

- أما أسوأ شيء فهو أن "تينو"، حفيده، رفضه تمامًا. كان "إرنست" يعشق حفيده. تينو صعب، صعب جدًا.

قال "مارتين":

- ابني.

- أم "تينو" لقيت مصرعها، في أكتوبر 92. ومنذ ذلك الوقت – و"تينو" لا يتحدث إلا مع الأطفال، مع الأطفال ومع خالته. لا يرد على أحد آخر، ولا حتى على "مارتين". عندما يدخل الآن المدرسة – ربنا يستر.

- بالدراجة؟ هل.. هل زوجتك توفيت...؟

سألت "ريناتا مويرر":

- هل تتذكرين؟ كتبت الصحيفة عن الحادثة وهروب السائق.

قال "مارتين":

- كانت قد تعلمت لتوها ركوب الدراجة.

- "مارتين" يلوم نفسه على...

- ماما...

-..... عندما يحدث كسر في فقرات العنق، يموت المرء على الفور! ولكن "مارتين" لا يزال يظن أن إنقاذها كان ممكنًا...

- إذا كان ما حدث لزوجتك كسرًا في فقرات العنق، فإن الإنسان يموت فعلًا على الفور، بين لحظة وأخرى.

- هل سمعت؟ على الفور.

- إذا كنت لا تزال تفكر في الأمر...

قالتها د. "هوليتشك" وهي تعبث بزرار في الجاكتة. ثم ضغطت بيدها على فتحة المعطف عند الصدر، واتكأت على المائدة، وتناولت من فوق مجلة نظارة بلا إطار ووضعتها على أنفها. فتحت صفحة من كشكولها وشرعت تكتب.

قالت "ريناتا مويرر":

- "مارتين" أهدى "تينو" كلبًا، من فصيلة "صياد الثعلب" اعتقد "إرنست" أننا نريد أن نهيج الولد علي جده، ومن أجل ذلك فقط اشترينا الكلب، لأن عنده حساسية من شعر الكلاب.

د. "هوليتشك" تكتب.

- احكي بالترتيب يا ماما. حدث ذلك بعد فترة!

قالت "ريناتا مويرر":

- انهالت الصحيفة عليه بالسباب. من المؤكد أن زيوس كان وراء الموضوع. نبشوا في حكاية زيوس القديمة، ولكنهم صوروا الموضوع وكأن الحزب لم يكن له وجود، وكأن "إرنست" فعل كل هذا بإرادته وبقراره. نُشر هذا الكلام عام 90، في الأسبوع الذي يسبق عيد القيامة. عندئذ شكلوا لجنة لتحري الحقائق، وكان عليه أن يجيب على أسئلتها. أعضاء اللجنة كانوا من أكبر اللصوص. واحد وراء الآخر وجد نفسه مجبرًا على تقديم استقالته. جاءتنا رسائل من غير إمضاء. أما أسوأ شيء فكانت رسائل التضامن، أيضًا من غير إمضاء.

قال "مارتين":

- لقد ارتكب خطأ. قدم استقالته بنفسه. بعد نشر المقالة كتب استقالته، وكان يأمل بالطبع – هكذا أخمن – أن يعترض أحد ويقول الحقيقة. ولكن لم يتحرك أحد، طبيعي. فقد "إرنست" للحظة السيطرة على نفسه. لو طرح مسألة الثقة – كان كسب الموضوع، أنا شبه متأكد. ثم اعتقد الجميع أنه كان من "الشتازي". وإلا فلماذا قدم استقالته، طواعية؟ في طرفة عين أصبح يجلس في بيته عاطلًا عن العمل. تحاشاه الجميع. ثم خرج من الحزب أيضًا لأنهم لم يفتحوا فمهم. منطقي تمامًا، فهم لن يدينوا أنفسهم. ما كان عليه إلا الانتظار. مجلس النظار الجديد كان سيطرده، أو كانوا سيحيلونه على المعاش المبكر. "إرنست" أفسد كل شيء بنفسه.

- أبدًا، هذا غير صحيح يا "مارتين". أنت تعرف ماذا حدث بعد المقالة. لقد هددوك أنت نفسك بالضرب. كيف تقول هذا الكلام؟ كانوا سيقضون تمامًا على "إرنست"، ويسفكون دمه. لم يكن أحد سيتدخل. كلهم صمتوا.

- هل دافع عن نفسه؟ هل قام زوجك بأي خطوات؟

- ماذا على سبيل المثال؟ لقد حدث كل شيء بسرعة، ثم فجأة انتهى الأمر. فجأة لم يعد الموضوع يهم أحدًا. أصبح المهم هو المال والعمل والشقة وكارت الائتمان، وأن يفهم المرء في القوانين وملء الاستمارات. غير ذلك لا يهم أحدًا، على الإطلاق. هذا ما أتى على البقية الباقية فيه. هذا و"تينو".

راحت "ريناتا مويرر" تتمخط. سألتها د. "هولتشيك":

- أتريدين جرعة ماء؟ وأنتَ؟

دون أن تضع القلم الجاف من يدها تفتح الزجاجة باليد اليسرى وتملأ الكوبين بالتناوب إلى أن فرغت الزجاجة.

قالت "ريناتا مويرر":

- شكرًا. بعد فصلي من شركة "تكستيما"، عملت لدى رجل كان حتى النهاية... من الأفضل ألا أقول ماذا كان.. كان من كوادر الحزب الاشتراكي، والآن يمتلك مكتبًا للاستشارات الضرائبية والمحاسبات. لا يملك المكتب وحده، لكنه الرئيس. إنه ذكي، يركع حتى يلمس جبينه الأرض كي لا يفوِّت أصغر الفرص. مبدأه المثل القائل: "القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود"! السيد "نويجباور" كان يتجاهل الأمر عندما يتحدثون عن المحسوبية لأنه وظفني – فأنا في الأصل اختصاصية إحصائيات. وظفني وتجاهل كل شيء، إلى أن بدأ "إرنست" يبتزه. أعدَّ "إرنست" رسالةً باسمه، وباسم "نويجباور" وآخرين، لقد كان يعرفهم كلهم. طلب منهم جميعًا أن يوقعوا، ويبعثوا بنسخة إلى كل صحيفة. عرفت بالأمر من "نويجباور". لم أفهم في البداية أي شيء يريده "نويجباور" مني، أي شيء يتوجب عليَّ أن أمنع حدوثه؟ كان الأمر محرجًا لأنه كان قد عرض علينا بيته الريفي في منطقة جبال "الهارتس"، لنقضي فيه الصيف كله، مجانًا. فكرت أنها فرصة كي يخرج "إرنست"، فهو لم يكن يغادر المنزل. هناك كان يتبعني كظلي. سافرنا معًا. كان عليَّ الرجوع – وفي

اليوم التالي كان يقف أمام باب الشقة، صارخًا ومشتكيًا ومـدعيًا أننـي أهنتـه وأردت إبعـاده عني. بعد ذلك فسخ عقد استئجار الحديقة الذي كان مكتوبًا باسمه. علينا أن نـترك الطبيعـة في حالها، وألا نتدخل في أمرها، هكـذا قـال. أخـذت أبـكي وأنـوح، مـن أجـل الفراولـة، كانـت الحديقة واحة. عندئذ تأكدت أن برجًا مـن أبـراج عقلـه طـار. كنـت أعتقـد أن الـزمن كفيـل بشفاء الجروح.

قالت د. "هولتشيك":

- اسمحي لي أن أقاطعك. ألم تنشر الصحف آنذاك شيئًا عن الموضوع؟

- ولماذا ينشرون؟ عندما اغتنـى آخـر رؤسـاء منظمـة "الشـبيبة الحـرة" - لأنـه كـان يمـرر المناقصات إلى شركات المقاولات - لم يحدث أي شيء، لأنه يعرف حتى الشـيطان. كلهـم رجـال أعـمال نـاجحون يـوفرون فـرص عمـل للشـعب، ويجلبـون إعلانـات للصـحف. فلـماذا تفـتح الصحف فمها؟ ما فات مات!

وبعد برهة واصلت "ريناتا مويرر" كلامها قائلة:

- "نويجباور" كان يريد أن يعرف إذا كنـت أنـوي أن أرفـع قضـية في حالـة فصـلي مـن العمـل لأسباب إدارية. هكذا حصلت على الأقل على تعويض البطالة. "إرنست" استقبلني في المنـزل بكـأس شمبانيا. في تلك اللحظـة أردت طلـب الطـلاق. بعـد شـهرين وجـدت وظيفـة أخـرى، بـالقرب مـن "شتوتجارت". "إرنست" وصفني بـ "الخائنة". لم يقصد ذلـك بـالمعنى السـياسي. كـان يتصـل يوميًّـا، مرتين، ثلاث مرات – 600 مارك، 700 مارك فاتورة التليفون في الشـهر، مجنـون تمامًـا. مـع أنـه كـان يستطيع الحصول على عمل. جمعية "مساعدة التلاميـذ" الخاصـة كانـت تريـد أن توظفـه. دروسـه كانت دائمًا تمتاز بالجودة والكفاءة. ولكنه اعتبر كتابة الرسائل للبحث عن عمل أمرًا منافيًا لكرامتـه. فجأة أصبح لا يتكلم إلا عن الكرامة والكبرياء. كل استمارات مكتب الشـؤون الاجتماعيـة كنـت أنـا التي أملؤها. كـل عـام. إنهـم يجعلونـك تتعـرين أمـامهم، قبـل أن يـدفعوا لـك معونـة اجتماعيـة!

كانوا مثلًا يريدون أن يعرفوا: كم يكسب والده – الذي مات في الحرب والذي لم يره في حياته أبدا! إنهم في النهاية يعرفون عنك أكثر من المخابرات.

تدخل "مارتين" قائلًا:

- ماما، هل لأن مكاتبهم الآن في المبنى الذي كان مقر...

- آه، هذا سبب إضافي. إنهم يجلسون الآن في فيلا "الشتازي". ثم أمراضه، الروماتيزم، الزن في الأذن، الحمى. عندما وقف أمام الطبيب راح ينظر إليَّ من غير كلام، نظرة رجل جريح يتألم. سرطان، هكذا فكرت، أو مرض كهذا. طبيعي جدًّا أن هواجسه أكلته. ثم قال "إرنست": الصحة تمام. حتى الرئة. شعر بالإهانة عندما أردت أن أرسله إلى طبيب الأمراض العصبية.

حملقت "ريناتا مويرر" في المنديل الورقي بين يديها.

قال "مارتين":

- كنا نلعب الشطرنج معًا، مرة في الإسبوع. لا يريد إلا لعب الشطرنج، لا شيء غير ذلك.

- دون أن تتحدثوا؟

- عن التوافه. لا أريد أن أقلب عليه المواجع، ولا أن يقلب هو علي مواجعي. مع أنه ليس عندي مواجع. فقط عندما أردت أن أتعمد. كان التعميد والكنيسة بالنسبة له شيئًا مثل "الحزب الديمقراطي المسيحي"، وكأني سأنضم إلى الحزب – إلى "الذين دخلوا التاريخ منتصرين"، على حد تعبيره.

- لم تسأله أبدًا؟

- عن أي شيء؟

تساءلت "ريناتا مويرر":

- أي ذنب ارتكبه؟ في بئر السلم بمكتب البحث عن عمل، شدوا شبكة خلال أعمال التجديد حتى لا يُصاب أحد إذا وقع، هناك شال أحمر، حتى يراه كل شخص ولا يحاول مجرد محاولة أن يقدم على الانتحار، هناك تقابلا بالصدفة، هو و"شوبرت". كنت أرافق "إرنست" كثيرًا عندما كان يتحتم عليه أن يذهب إلى مكتب العمل. إلى مكتب الشؤون الاجتماعية. لم يكن يذهب أبدًا وحده. كان لا بد أن أذهب معه.

- زوجك تحدث مع "شوبرت"؟

- لم يكن ذلك ممكنًا. "شوبرت هرب". كان يريد أن يعترفوا به "مُلاحقًا سياسيًّا" وأن يدفعوا له التعويضات بسبب الملاحقة السياسية التي تعرض لها أيام ألمانيا الشرقية، وأن يمنحوه لقبًا وشهادة رسمية. لم نكن نعلم ذلك. لم يعد يريد التحدث مع أحد. كان المرء يستغرب عندما يقابل أشخاصًا لم يكن يتوقع أن يقابلهم في مكتب العمل. عندما أسمع كلمة "الشبكة الاجتماعية" أفكر دائمًا في سلم مكتب العمل.

يقول "مارتين":

- الشبكة المعلقة.

- بعد ذلك ذهبنا إلى "فولكس - شتات" لنشرب قهوة ونأكل جاتوه بالفراولة أو بالتوت. "فولكس - شتات" كان هو الترف الوحيد الذي تبقى لنا. وبعدها نعود مباشرة إلى المنزل. ورغم ذلك بدأ "إرنست" يكتب مواعيده في مفكرة. كان يريد أن يعرف - قبلها بشهور – إذا كان لدينا موعد. كنت أجلس معه كما أجلس مع طفل يريد أن يشرح لي جدول الحصص. إذا سألته عن شيء كان يحضر مفكرته ثم ينظر فيها ويقول: "ماشي"، ثم بعد ذلك يكتب الساعة والعنوان والاسم كاملًا، حتى لو كان سيذهب إلى "مارتين". مرة سألت "إرنست" إذا كان هناك شيء يتذكره بسرور بعد عام 1989. تطلع فيَّ قائلًا:

- طوال حياتي لا أتذكر شيئًا فعلته وحدي وكنتُ مسرورًا. هكذا، كأنه لم يكن لي وللأطفال وجود، كأنني أمضيت حياتي وحيدًا.

- هل يحب أن يتفرج على التلفزيون؟ هل يقرأ، أو يتمشى؟ أو ماذا يفعل؟

- زمان كان يحب أن يقرأ للأطفال قصة من قصص الكاتب "فالادا"، مثلًا "حكايات الأطفال الأشقياء"، أو "فريدولين، الضفدع الوقح". بمناسبة عيد ميلاده أهديته ببغاءين، كان ينوي أن يعلمهما الكلام. ربما كانا أكبر عمرًا من أن يستطيعا التعلم. لكنه أخذ ذلك على محمل شخصي. إنه يأخذ عمومًا كل شيء على محمل شخصي. مرة لم تتفتح زهور التيوليب التي أحضرتها معي. عندئذ اشتريت سرًّا زهورًا جديدة حتى لا يظن أن الخطأ خطؤه. كما أنه أصبح يهتم بأتفه التوافه. ما نكاد نفرغ من تناول العشاء حتى يعد المائدة للفطار، ويا ويلي إذا لم أغسل على الفور الكوب الذي استعمله. ثم الأصوات التي يصدرها عند المضغ... أو من أنفه. في السابق لم يكن كذلك.. ثم ترميم البيت. ربما كان الترميم هو الذي أتى على البقية الباقية لديه. وضعنا ملاءات على كل شيء. كانت الغرف تبدو مثل مكتب "لينين". أطلق "إرنست" النكات على ذلك. في الأيام الأولى كان يقف في السكة فحسب. وعندما مر الوقت الذي قدَّره للانتهاء من أعمال الترميم، بدأ يشتكي. كان "إرنست" يطلب من العمال أن يخلعوا أحذيتهم، وكل خمس دقائق يمسح وراءهم. في نهاية الأمر لم يعد يفتح باب الشقة لأحد أبدًا. كانوا قد انتهوا من كل شيء إلا ثلاثة شبابيك عندنا. كان عليَّ أن آخذ إجازة كي يستطيعوا الدخول إلى شقتنا. بعد الترميم أصبح يدعي أن المستأجرين الجدد يستخدمون مسَّاحة الأقدام أمام شقتنا. كان يقبع أمام العين السحرية ويفتح الباب فجأة بمجرد مرور أحد. كان الأطفال يرمون الزبالة أو الفئران الميتة عبر الشبابيك أو على البلكونة - كانوا يخافون منه.

رن التليفون. كررت د. "هوليتشك" عدة مرات: "نعم، طيب"، ثم قالت بعد أن وضعت السماعة:

- آسفة.

واصلت "ريناتا مويرر":

- لم يكن الساكنون فوقنا أشرارًا، ولكنهم كانوا طوال الوقت في الشقة، شباب. مرة دعوني للدخول. لم تكن الموسيقى عالية. لكن الأصوات العميقة، "الباص"، توحي بذلك. إذا وضع أحدنا يده على مائدة الطعام فإن الآخرين يشعرون بذلك. "إرنست" كان يجلس طوال النهار في جحره، وينفعل كالحيوان الهائج... ثم يفيض به الكيل. المرء ليس بحاجة إلى أن يكون عرافًا لفهم سبب انفعاله ذلك.

قالت د. "هوليتشك":

- أنا لا أعرف إلا تقرير الشرطة. اقتحموا الشقة. خمسة رجال يرتدون صدريات واقية من الرصاص إلى آخره، اقتحام بكل معنى الكلمة.

رد "مارتين":

- لأنهم لا يستطيعون أن يفرقوا بين مسدس الغاز والمسدس الحقيقي.

- ألم يتصل بك أحد بالتليفون؟

قال "مارتين":

- بعد ذلك.

- وأنتِ؟

"ريناتا مويرر" تهز رأسها نافية.

- لم تتصل الشرطة بكِ؟

أجابت "ريناتا مويرر":

- لا.

سأل "مارتين":

- وماذا كتبوا في التقرير؟

قالت د. "هوليتشك":

- على السُلَّم، أطلق طلقة من مسدس الغاز، ثم راح يهدد أنه سوف يدافع عن راحة باله بالقوة إذا لزم الأمر، ثم تقوقع في ركن. لحسن الحظ لم يبدِ مقاومة.

- لا أستطيع أن أتنازل عن كل شيء من أجله. لا بد أن أعمل على الأقل 7 سنوات، وربما 12، إلى أن يكون من حقي الحصول على معاش. إذا تركت عملي في "شتوتجارت" فمعنى ذلك أنني أقول لـ"إرنست": "عندك حق". لا أستطيع أن أقدم استقالتي من أجله. هذا بالضبط ما يريده. لا بد أن يلاحظ أن الأمور لا يمكن أن تسير هكذا. ليس هناك بني آدم واحد يتصرف مثله، ولا بني آدم واحد. أنا زوجته، لا مربية أطفال. إذا لم يستطع أن يفهم هذا فسأطلب الطلاق.

- أنت قلت، يا مدام "ريناتا"، إنك تفهمينه؟

- طبعًا أفهمه. من أجل كل ذلك أفهمه. ولكن لا بد للحياة أن تسير.

قالت د. "هوليتشك":

- يعني، عندما يخرج من هنا...

سألت "ريناتا مويرر":

- متى؟

- عندئذ سيعيش وحده خمسة أيام في الأسبوع خلال عملك، على الأقل في البداية؟

حدقت "ريناتا مويرر" من جديد في المنديل الورقي دون أن تنطق.

قالت د. "هوليتشك":

- طيب.

قال "مارتين":

- يمكنه أن يأتي إليَّ.

- لا، لا يا "مارتين". من الغباء أن نفعل هذا. صدقني. لن تساعده بهذه الطريقة. لا بد أن تجد عملًا. ليس من المعقول أن تقبع في المنزل لتحرس "إرنست". كما أنه لن يوافق. وإذا حدث ذلك، فلن يجيء "تينو" لزيارتك أبدًا.

قالت د. "هوليتشك":

- كثيرون يعيشون وحدهم. ليس معنى هذا أن أحدًا لا يهتم بهم. لن تتركوه وحده.

- لم أقل سوى إن "إرنست" يمكنه أن يعيش معي إذا أراد.

قالت د. "هوليتشك" وهي وتكتب:

- طيب.

- "مارتين"...

قال "مارتين" مشيرًا إلى الشنطة:

- كل شيء هنا. صابون، ملابس، بُرنس الحمام، ومحفظته، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

- لا أحزمة ولا مقص ولا مبرد ولا مطواة ولا موس حلاقة؟

- هل هو وحده في الغرفة؟

- لا.

- لا يجب أن يعرف أنني كنت هنا. الزهور أحضرها "مارتين".

يرن التليفون، فتواصل "ريناتا مويرر" قائلة:

- لن تقولي له إنني كنت هنا؟

- لن أفعل إذا كنتِ لا تريدين.

سأل "مارتين" وهو يضع على المائدة ماكينة الحلاقة وكيسًا به مستلزمات الحمام:

- ومتى يمكن التحدث معه؟

- ربما غدًا، أو بعد غد. ولكن اتصلا بي بالتليفون قبل ذلك.

أومأ "مارتين"، ثم كرمشَ الورق الذي كانت الزهور مغلفة به الذي كان بجواره. ما زال التليفون يرن.

لم ينهض "مارتين" ولا أمه، لذا قالت د. "هوليتشك": "طيب"، وقامت. شدت ستارة كانت تغطي حوضًا، وغسلت يديها، وجففتها طويلًا ثم رشت بعضًا من رذاذ عطر على حلمة أذنيها.

على أرضية الممر كان حذاء "مارتين" يصدر صريرًا. أمَّا خطوات المرأتين فلم تكن تُسمع. حول الموائد الصغيرة جلس مرضى يرتدون ملابس عادية، وفي أقدامهم أحذية منزلية أو رياضية. بينهم ممرض بمعطف أبيض يلعب معهم "السلم والثعبان". دفعت د. "هوليتشك" باب القسم بكتفها وبقيت واقفة أمامه.

قالت مُفسحةً الطريق أمامهما:

- إلى اللقاء قريبًا.

- شكرًا.

قالت "ريناتا مويرر" مادةً يدها. صافحتها د. "هوليتشك" أولًا، ثم صافحت "مارتين"، وقالت:

- لا بد أن أطلع إلى فوق.

وأسرعت ترتقي الـدرج ويـداها في جيـب المعطـف. تـردد صـدى كعبهـا لـدى اصـطدامه بالدرجات الحجرية. انغلق باب القسم بتكة خفيفة.

- لم يكن من الضروري أن تقول ذلك يا "مارتين"، حكاية "الذين دخلوا التاريخ منتصرين". زوجها نائب في برلمان الولاية...

سارا جنبًا إلى جنب في حديقة المستشفى في اتجاه المدخل الرئيسي.

قالت "ريناتا مويرر":

- المرضى هنا إمَّا عواجيز، أو شباب.

قال "مارتين":

- الببغاوان يتحدثان طوال اليوم. صباح الخير يا "ريناتا" - بالهناء والشفاء يا "ريناتا".

- بجد؟

- صباح الخير، تصبحي على خير، أحلام سـعيدة. نعمـل إيـه النهـارده؟ "ريناتـا"، "ريناتـا"، "ريناتا". طوال النهار على هذا المنوال.

- غريبة.

قالت ثم ظلت واقفة.

- وغير ذلك؟ أخرجت من كيس نقودها قرطًا أحمـر في لـون اليـاقوت، وثبتتـه في حلمـة أذنها الملتهبة.

- لا بد أن تسمعيهما بنفسك.

قال "مارتين" الذي كان قد كور ورق الزهور حتـى أضـحى في حجـم البيضـة. مـرت بهـما سيدة تحمل شنطة مخططة بالأحمر والأسود.

قال "مارتين":

- الأتوبيس سيجيء في السادسة إلا الربع، ليس من الضروري أن تمشي بسرعة.

رمى "مارتين" بالكرة الورقية عاليًا ثم تلقفها باليد الأخرى.

سألته دون أن تنظر إليه:

- هل تحتقرني؟ أصبحت قاسيًا – بسبب..؟

راحت تعبث بخصلة من شعرها.

- لأنك صبغتِ شعرك؟

- لأنني لم أحكِ لـ د. "هوليتشك" عن.. بسبب.. الحَلَق منه.

- لائق عليك. ما اسم العاشق المجهول؟

- من؟ "هوبرتوس"؟

- هل تريدين فعلًا طلب الطلاق؟

- لدي دائمًا الشعور بأني أفعل شيئًا خاطئًا. عندما تراقبني هكذا أفقد الثقة في نفسي. هل تعتقد أنني أثير السخرية؟

- لا تجري. الأتوبيس لن يجيء قبل أربعين دقيقة.

تتأبط ذراعه وتحاول أن تسير على خطوته، ثم تسأله:

- "مارتين"؟ أريد أن أسألك شيئًا.

ونظرت إليه قبل أن تسأله:

- هل أنت.. من مثليي الجنس؟ لا تضحك! أعتقد أن السؤال مسموح. لماذا لا تبحث عن امـرأة؟ أنت الرجل الوحيد الذي أعرفه الذي لا يحاول حتى، ثم "داني"...

- "داني"؟

- لقد اعتقدت فعلًا أنها هربت من "إدجار" هذا.. لم تفعل ذلك إلا لتسكن عندك. أنا متأكدة تمامًا. ولهذا قصت شعرها، لأنها ظنت أن هذا سيعجبك. أيضًا هذه المرأة في المعطف الشفاف الواقي من المطر، "هوليتشك". لم تنزل عينيها عنك. هل لاحظت كيف احمر وجهها وعيناها، عندما حكيت عن حادثة "أندريا"؟ ألم تلحظ ذلك؟ ليس من الطبيعي أن شخصًا مثلك.. أخوك "بِت" مختلف عنك في هذه النقطة.

ضحك "مارتين". ضغطت على ذراعه، وقالت:

- "بِت" يحاول على الأقل.. ولكنك لا تفعل شيئًا على الإطلاق. مع أنه ليس هناك أجمل من الحب، على الإطلاق!

- أعرف.

- هل تعتبرني عبيطة؟ لا أتحمل هذا الحلق المعدني. يردد دائمًا: الحب نعمة من السماء. هل توافق على هذا الرأي، هه؟

- من.. آه...

- اترك "إرنست" حيث هو يا "مارتين". أنت لا تعرف العبء الذي ستلقيه على كاهلك. أي امرأة سترضى بك عندئذ؟ من يقيد نفسه هكذا؟ توقف قليلًا عن الضحك!

تأبطت ذراعه، ثم واصلت قائلة:

- وهل سينام في حجرة "تينو"، أو أين؟ لسنا قبيلة من العصر الحجري.

تتكئ برأسها على كتف "مارتين" الذي قال بعد أن خرجا من البوابة:

- ربما أتزوج عن قريب.

- هل هذه نكتة؟

- لا. ممكن نجلس هناك.

أشار "مارتين" إلى محطة الأتوبيس ذات المظلة على الجانب الآخر من المدخل. يعبران الشارع. تقول "ريناتا مويرر" وهي تشده بعيدًا:

- يعني..

- إلى أين؟

تركت ذراعه. ظل واقفا عند المحطة. ورجعت هي إلى الشارع، ثم قالت:

- أعتقد أن الأتوبيس لن يأتي إلا قبل...

- ماما!

صاح "مارتين" عندما شرعت تشير بذراع مفرودة لتوقف سيارة. فرملت السيارة الأودي الحمراء ذات الأربعة أبواب، وقبل أن تتوقف زادت من سرعتها ومرقت أمامهما.

- دعكِ من هذا، سننتظر.

انحنى "مارتين" لالتقاط الكرة الورقية التي وقعت أمام قدميه.

صاحت "ريناتا مويرر" دون الالتفات إلى ابنها:

- تراهن؟ تراهن أن السيارة القادمة ستتوقف؟

سارت ببطء إلى الأمام، ملوحة بذراعها، مثبتةً عينيها على سيارة زرقاء قادمة، ثم همست:

- من فضلك، من فضلك!

(23)

نهاية الإرسال



"كريستيان باير" يقسم أن "هني" فهمت خططه خطأ. تحول فجائي. رجل أعمال معذب، وموظف فاسد. فقط لعدم وجود الإيصالات. أغمضي عينكِ - ربما تستمتعي بذلك. رحلة بالقطار في هدوء الليل.

- ليس صحيحًا.

قال "باير":

- هذا ببساطة ليس صحيحًا، "هني"، من فضلك!

ألقى بمعطفه على الأريكة.

- "هني"، كَفى بكاءً من فضلك. لا داعِ لذلك، إطلاقًا.

خلع الجاكت واستدار إليها. ظلت واقفة بمعطفها الأسود عند باب غرفة الجلوس، قدماها ملتصقتان ببعضيهما، وإحدى يديها أمام فمها. واصل قائلًا:

- لا أستطيع سوى القول إن هذا ليس صحيحًا، وإنك فهمتِني خطأ تمامًا. هذا هو كل شيء. وخلاص، الموضوع انتهى.

ما زالت شنطة يدها تتدلى من مرفقها الأيسر.

- غير صحيح! كم مرة ينبغي عليَّ أن أقول لك هذا لتصدقيني؟! المفروض أن أكون **أنا** الغاضب، ينبغي علي **أنا** أن أحاسبك لأنك تتهمينني بذلك. هكذا بالعكس. لماذا لا تصدقينني؟

رغم أن "هني" تضغط بيدها على فمها، فإن نحيبها يعلو أكثر فأكثر. رجعت عدة خطوات إلى الوراء، واستدارت فوقعت شنطتها على السجادة في المدخل. هرعت إلى الحمام وركلت الباب ثم أقفلته بالمفتاح.

سمع "باير" خرير الماء المنساب في الحوض، ثم صوت السيفون. التقط شنطة يدها، ثم أزاح جانبًا التليفون والأباجورة الصغيرة على المنضدة القصيرة القوائم، ووضع الشنطة.

أحضر السجائر والكبريت من الجاكت. قبل أن يجلس أزاح بإصبعه المنفضة على المنضدة الزجاجية مقربًا إياها ناحية الأريكة.

تساءل "باير" أي كرافتة يرتدي اليوم. إنه لا يتذكر أحيانًا اسمًا أو يومًا من أيام الأسبوع السابق. وكأن شخصًا آخر يجلس مكانه في غرفة رئيس التحرير. تحسست أصابعه الربطة، ثم مرت على القماش حتى نهاية الكرافتة ورفعها قليلًا. لم يكن يحب الكرافتة الزرقاء ذات المكعبات الصفراء. لكنه لا يستطيع أن يلبس كل يوم الكرافتة نفسها.

راح يفكر في "هني"، في فكها المرتعش وصرختها التي بدأت مثل تنهيدة، أو آهة. دق على العلبة "المارلبورو لايت". أمسك بعود الكبريت عاليًا. شرع يدخن وهو مرتكز بكوعه على ركبته.

تناول "باير" جهاز التحكم عن بعد. مؤشرا "داو جونز" و"داكس" ارتفعا مجددًا. كل دولار أصبح الآن أغلى بنحو 40 فنكا عمَّا دفعه أثناء رحلة نيويورك. حشر السيجارة في تجويف بالمنفضة ثم نهض. قرفص أمام باب الحمام ناظرًا عبر ثقب الباب. لم ير غير بقعة مضاءة، ولا شيء سواها، لا شيء يتحرك.

- "هني"، نادى عليها.

- "هني"؟

ما زال الماء ينساب في الحوض. لا بد أنها فتحت الصنبور عن آخره. انتظر برأس منكس ثم عاد إلى الأريكة. سحب نفسًا آخر من السيجارة ثم أطفأها ومال إلى الوراء وذراعاه مفرودتان بينما استند رأسه على حافة مسند الظهر. ارتجف بسبب برودة الكسوة الجلدية على قفاه. بل إن قشعريرة انتابت فخذيه.

حدق "باير" في سقف الغرفة والتذكارات على الرف العلوي من الفترينة. تأمل طويلًا الدن الخشبي منتفخ البطن الذي اقتناه في قرية "بلوديو"، وحاول أن يستكمل في خياله نقشات الزهور المحفورة بدوائر متموجة. بجانبه جرة من رومانيا ملونة بالأزرق والأبيض، كان يجب أن توضع في المطبخ، إلا أنه لم يجد لها مكانا على الدولاب المعلق على الحائط هناك. الشمعدان النحاسي تلقاه هدية من أولاد الجارة بعد وفاتها – كتعبير عن الشكر على ذهابه ليلًا بالسيارة إلى صيدلية الإسعاف. عندما استلم الشمعدان كانت شموعه السبع الحمراء قد احترقت حتى منتصفها ومغطاة بطبقة من الغبار. إلى اليمين زهرية بيضاء كروية الشكل على حافتها فانوس رقيق من الورق الملون، ثم كأس بيرة كبير بغطاء وقاعدة من القصدير، وأخيرًا مكبر الصوت الأيمن. أغمض "باير" عينيه. بكعبه خلع حذاءه الأيسر، كان يريد أن يخلع الأيمن أيضًا لكنه خشي أن يتسخ جوربه عند الكعب.

فزع "باير". انفتح باب الحمام. لم يعرف كم من الوقت ساد الهدوء. تحمل "هني" الآن معطفها على ذراعها، وبإصبعين الحذاء. بجانب المدخل فتحت

بإبهامها الدرج الأسفل ووضعت داخله الحذاء. ثم راحت بعناية تفرد معطفها على إحدى الشماعات.

- "هني".

نادى "باير". وقف على عتبة باب غرفة الجلوس ويده ما زالت تمسك بجهاز التحكم عن بعد. لم تتحرك سوى أصابع قدمه اليسرى في الجورب الأزرق. أقبلت "هني" ناحيته ووقفت أمامه. احتضنها هامسًا:

- حبيبتي. روحي وقلبي.

استندت عليه حتى أنه وجد نفسه يرجع خطوة إلى الوراء. كان التليفزيون قد انطفأ.

قالت "هني":

- طبعًا لا بد أن يصيبنا ما أصاب الآخرين. ظللنا حتى الآن بعيدين عن الضرر، هذا هو كل شيء. كنا ببساطة محظوظين، محظوظين جدًّا..

ضمَّها إليه.

قالت "هني" عندما تمالكت نفسها واستطاعت أن تتحدث:

- الحقيقة كان الحظ حليفنا طوال الوقت. اعتقدنا أن هذا لم يعد له وجود، على الأقل هنا، اعتقدنا أن هذا أمر قد زال بلا رجعة، كالإقطاع. ولكن الحقيقة هي أننا كنا بعيدين عن الخطر.

قال "باير":

تعالِ.

قبّل جبهتها وسار إلى الأريكة. جهاز التحكم عن بعد ملقى الآن على السجادة.

- تعالِ.

وأمسك بمعصم "هني". تركته يُجلسها على حجره.

أحاطت بعنقه قائلة:

- من الجنون ألا تفعل ذلك. ليس هناك وجه للمقارنة.

- اهدئي ولا تتكلمي!

- لا أعرف لماذا انفعلتُ هكذا. إذا فتحت التليفزيون تجد كل مساء حكاية كهـذه. فعـلًا. ربما ليس كل مساء، ولكن تقريبًا كل مساء.

- ماذا تقولين؟ اهدئي!

رمق "باير" أظافر قدمي "هني" المطلية بالأبيض. من الإصبع الأوسط في قدمها اليمنى برز نتوء متصلب صغير.

- رأيت مرة فيلمًا رائعًا عن ذلك، فيلمًا أمريكيًّا، في عز أيام ألمانيـا الشرقيـة. رجـل وامـرأة، طالبان في سن شباب. كانا يضاربان في البورصة على لحم الخنازير. في البداية كان الفشـل مـن نصيبهما بالطبع. وجد نفسه مرغمًا على العمل سائق تاكسي. كانت هـي في المنـزل واعتقـدت أن عليها أن تفعل شيئًا. لهذا بدأت تعمل في ذلك المجال إيَّاه. المضحك أنـه أوصـل إليهـا ذات مرة زبونًا، ثم قال لنفسه، ما دمت هنا فلأرى ماذا تفعل زوجتي! كـان هـذا هـو المضـحك في الأمر. وفي نهاية الفيلم اكتشفا أن المضاربة على لحم الخنزير كانت هي الشيء الصحيح. فـيلم كوميدي يفطس من الضحك.

اتكأت جانبًا ثم شدت إلى أسفل سلكًا متدليًا من الأباجورة، فأضاءتها.

- أتعرف في أي شيء أفكر عندما تسوء حـالتي؟ عنـدما ذهبنـا قبـل عيـد الميلاد إلى أحـد المتاجر الكبيرة. هناك جلس شحرور على صناديق الخضار. ثم جاء هؤلاء الرجال بالعصا التـي تنتهي بشبكة وحاولوا اصطياده.

مرت بأصابع منفرجة على رأسه، فأوقفت شعره.

- قلت لنفسي: لماذا لا يفعل أحد شيئًا؟ سيطاردون الشحرور المسكين إلى أن يموت من الرعب أو الإنهاك! تركنا عربة التسوق، وذهبت أنتَ إلى مكتب المدير الذي لم يكن يعرف على الإطلاق ما يحدث. وعندما سألك عمّا ينبغي عمله، قلت له: "الأمر بسيط - أطفئوا كل الأنوار ما عدا نور المدخل، وافتحوا الأبواب!".

مسح "باير" على خصلة من شعرها خلف الأذن، وقال:

- لكنه لم يفعل شيئًا.

- لا أعرف أحدًا يدق باب مدير متجر من أجل طائر. لهذا أحبك. وعندما أتخيل أن شغلك كله قد أصبح الآن هباءً.. هل تعرف متى كانت آخر مرة جلست في البيت وقضيت أمسية جميلة؟ أنت تقريبًا نسيت مثل هذه الأشياء.

- سيتغير الوضع الآن يا "هني". صدقيني. لا أقول هذا على سبيل التهدئة.

- هل تعرف في أي شيء فكرت؟ من لديه سُلطة، يبتز الآخرين. شخص مثل هذا يرى كل ما يحدث أمرًا عاديًا تمامًا.

ثبت خصلةَ شعرها خلف أذنها، وباليد الأخرى راح يمسِّد فخذها.

ألقت "هني" بالكرافتة فوق كتفه، ثم فتحت بالتعاقب أزرار قميصه.

- هو يضع توقيعه. وبعد أن يوقع، ينصرف، أليس كذلك؟ عندئذ ينتهي الأمر. عندئذ ينتهي الأمر إلى الأبد، أليس كذلك؟

- انسِ ذلك يا "هني"، انسِ الموضوع كله.

- هو وحده. هو وحده، أليس كذلك؟

- طبعًا.

- لا أحد غيره يجب أن يوقع؟

- لا أحد غيره.

- أترى! عندئذ سيكون هو في أيدينا. في الحقيقة إنه في أيدينا **نحن**.

- "هني"، ليس الذنب ذنبي. لو لم يتذكر حسابات عام 91. الآن لم يعد ذلك مسموحًا لـه. أنا وثقت في الناس، لأنني لا أفهم شيئًا في الحسابات، أتفهمين؟ لم يحـدث شيء، شيء مخـالف للقانون، لم يحدث اختلاس. ولكن لا أحد يصـدق. في هـذه الفـوضى لا يصـدقني أحـد أن كـل شيء كان على ما يرام. لا يصدقني أحد لأن الإيصالات غير موجودة. الأدلـة ضـاعت، هـذا هـو كل شيء.

- أعرف. لست بحاجة لتبرير موقفك.

- إنه الشعور بالعجز يا "هني". لم يكن لي أن أبدأ بالأمر. هذا هـو الخطـأ الـذي ارتكبتـه، أنني بدأت بالأمر. ما كان لي أبدًا أن أفعل شيئًا كهذا. لقد عرضت عليه مالًا أيضًا.

قالت:

- اللاعبون لا بد أن يلعبوا لعبتهم. أرى كل ما تفعله من أجلي. أنت تفعـل كـل شيء مـن أجلنا. من غيرك..

- "هني".

تنهد "باير" متكئا إلى الوراء. شعر أن عينيه تدمعان.

قالت:

- خلاص. لقد شرحتَ لي ذلك من قبل. قلتَ لي إنك تشعر كأنك ذبابة، ذبابة بـين الشـباك والستارة. آنذاك اعتبرت التشبيه غريبًا. قلتَ إن الذبابة لن تنقذها سوى الصدفة، لن ينقـذها سوى شيء مخالف لمنطقها، لأن منطقها يقول لها إنها تستطيع المـرور مـن الزجـاج. ولهـذا لا تتوقف، حتى تموت. هل تذكر؟

- نعم. لن يتوقف الأمر. سيكون بمقدور الجميع أن يتفرجوا عليك.

- مرة أردت أن أفزع ذبابة، وتعجبت أنها لا تتحرك. لا أعـرف لمـاذا يرقـد الـذباب الميـت دائمًا على ظهره؟! تلك الذبابة كانت راقدة على بطنها، يعني كانت واقفـة تسـتند عـلى قـرون استشعارها. عندئذ تذكرت تشبيهك.

- أود أن أطير معك يا "هني"، إلى أي مكان دافئ. أسبوع على الأقل. هل نفعل ذلك؟

اعتدل في جلسته، وقال:

- متى سيعود؟

- إنه هنا. لقد عاد يوم الإثنين - سيظل حتى الجمعة، فندق "بارك"، غرفة 212.

- ومتى نطير؟

- غدًا، أو يوم الجمعة، أو يوم السـبت، نـذهب إلى المطـار، ونأخـذ الرحلـة التـي نحصـل عليها!

- يوم السبت؟

- إذا كنت تريدين.

داعب عنقها، فقالت:

نعم، عندما ينتهي الموضوع. أتعرف، سأغمض عيني، وأفكر فيك.

استقامت في جلستها.

- ربما أستمتع بالأمر، إذا فكرت فيك أثناء ذلك.

ابتسمت وانزلقت من على حجره.

- غرفة 212؟

- نعم، فندق "بارك".

- وما اسمه؟

- غرفة 212.

قالت وهي تشد سلك الأباجورة مرة أخرى، ثم سارت في اتجاه الحمام مرة أخرى:

- سأعود حالًا.

انحنى "باير" وخلع حذاءه الأيمن، والتقط جهاز التحكم عن بعد. بلا صوت راح يتفرج على فرقة تعزف آلات النفخ. يرتدي الرجال سراويل خضراء تصل إلى تحت الركبة، أمَّا الجمهور فيجلس إلى موائد طويلة، وعندما تمر الكاميرا يرفعون كؤوس البيرة في الهواء ويهتفون: "في صحتك!" امرأتان بعيون واسعة تتبادلان الابتسامات أثناء الغناء.

سار "باير" إلى الخزانة وأمسك بزجاجة البراندي بين إبهامه وسبابته، ثم انتشل بالخنصر كأس الكونياك. أثناء السير ملأ لنفسه كأسًا، وتجرعها مرة واحدة، ثم زفر بصوت عال. أحضر كأسًا أخرى وملأ كلتيهما حتى المنتصف. بعد ذلك حمل حذاءه ومعطفه إلى ركن تعليق الملابس عند المدخل.

عندما عاد إلى غرفة الجلوس فك عقدة الكرافتة قليلًا، وسحبها من بين رأسه. خلع البنطلون وثناه ووضعه فوق مسند الكرسي. أخفى الجوارب خلف أرجل البنطلون. علق القميص والفانلة الداخلية على المسند.

ألقى "باير" نظرة قصيرة على الكلسون، ثم خلعه. بقدمه اليمنى طوَّحه عاليا في اتجاهه كأنه كرة، ثم خبأه بين القميص والفانلة. أطفأ النور في حجرة الجلوس ووضع ساعته على المائدة.

برودة الكسوة الجلدية هيجته. تأمل عضوه في الضوء المتغير الذي كان ينفذ من الشباك، وبحذر تحسس خصيتيه.

راح "باير" ينتقل من قناة إلى أخرى حتى عاد إلى الموسيقى الشعبية، فأعاد الكرة. على قناة "ألمانيا الوسطى" مباراة كرة قدم بالأبيض والأسود. شغل زر الصوت، ولاحظ كيف تتكاثر خطوط درجة الصوت الخضراء، لكنه لم يسمع شيئًا. أخذ سيجارة، إلا أنه لم يشعلها، بل طوح يده ودحرجها على المائدة الزجاجية.

"رولاند دوكه"، قال شخص بصوت عالٍ جدًّا، "اليوم كعادته شعلة نشاط". الآن سمع "باير" أيضًا الأصوات الأخرى في الاستاد. شورتات اللاعبين كانت قصيرة وضيقة جدًّا، أمَّا الجمهور فلا يكاد يُرى في الظلام. "عشَّاق الرياضة أمام شاشة التليفزيون، نقترب الآن هنا في الاستاد الرئيسي من نهاية الشوط الأول". تعرَّف "باير" على صوت "هاينتس فلوريان أورتل". بحروف بيضاء على الحافة السفلية من الشاشة قرأ: "ألمانيا الشرقية وإنجلترا، صفر / صفر". من فوق الكرسي تناول "باير" البطانية التي تتلفح بها "هني" مساءً أمام الشاشة، ونفضها، ثم ألقى بها على كتفه وهو راقد.

رن جرس التليفون. ركع "باير" على الأريكة، في يده اليمنى طرف البطانية وفي اليسرى السماعة.

- "باير"، مساء الخير.

قال بشكل آلي. في الخلفية سمع موسيقى جيتار. قال مرة أخرى:

- آلو؟

إلا أن السماعة وضعت على الطرف الآخر، في تلك الأثناء، كان قد نام حوالي ساعتين فقط.

على الشاشة كان" يورجن فروريب" ينحني على المكتب، وقد بسط ذراعيه. سدد نظراته إلى شابة رفعت رأسها ببطء وقالت شيئًا.

أضاء "باير" النور. شنطة "هني" لم تكن موجودة. سار عاريًا في غرف الشقة. ما زال الغطاء الكبير مثني الطرف فوق السرير، والبيجاما على الوسادة. باب الحمام موارب. فتش عنها في كل مكان حتى في غرفة تخزين المواد الغذائية.

أفرغ "باير" إحدى الكأسين في جوفه. قدماه في برودة الثلج. مرة أخرى راح يتنقل بين القنوات. بحث عن الصورة الضوئية المنقطة التي كانت تظهر دائمًا بعد نهاية الإرسال وتنير الغرفة كلها. لبرهة أخذ يتفرج على رحلة بالقطار عبر مراعي صيفية. لا بد أن الكاميرا مثبتة على القاطرة. انتظر أن يحدث شيء. ثم بدل القناة إلى أن وصل مرة أخرى إلى رحلة القطار التي تواصلت عبر سهل ذي أشجار قليلة، لا بيوت، ولا ناس. الصوت الوحيد الذي سمعه كان يشبه الطقطقة، خافت ومكتوم، وكأنهم يدحرجون طبلات ضخمة. لم يظهر شيء من القاطرة. بضعة فلنكات ملقاة على طريق القطار.

أفرغ "باير" الكأس الثانية أيضًا، ثم تمطى تحت الغطاء محولًا نظره بعيدًا عن التليفزيون. ما زال المكان دافئًا حيث كان راقدًا. لكنه كان يشعر على الفور بالبرد إذا حاول أن يستدير على بطنه أو على ظهره. اعتقد أنه يسمع صوت القاطرة البخارية، والصوت الرتيب لارتطام العجلات بالقضبان.

فجأة انتابت "باير" الرغبة في أن يرى المنظر الطبيعي الذي يمر به القطار الآن. أراد أن يستدير لينظر من الشباك عندما خطر على باله أنه في نصف الليل، أي أن الظلام دامس. عطس، فرفع البطانية لأعلى ومسح بها على أنفه. بين الحين والآخر كان يحرك أصابع قدميه. فيما عدا ذلك لم يحرك ساكنًا.

(24)

بدر



"بِت مويرر" يحكي عن حفلة الشركة. هو و"بيتر برترام" يختلسان النظر إلى "هني" من تحت الجيبة. خطط للعودة إلى المنزل. "ماريانا شوبرت" المنقذة الشهمة. ولادة فارس، وبداية عشق، ومحاولة فاشلة للخلاص.

أجرّ "كوتسنسكي"، صاحب صحيفة الإعلانات التي أعمل بها، غرفة الاحتفالات العائلية في مطعم "توسكانا"، وهناك قام بدور الدي جي مرة أخرى. زوجته - التي ظهرت وهي ترتدي فستانًا أبيض ذا خيوط فضية براقة - كانت ترقص منذ البداية وغالبًا دون مرافق. ملامح وجهها كانت أثناء ذلك تشبه ملامح عازف جيتار منفرد. كانت تتراقص رافعةً ذراعيها إلى أعلى بحركات ثعبانية، لتمر بأصابعها المنفرجة بين خصلات شعرها.

صعب علينا تجاهل محاولات "كوتسنسكي" لإشاعة المرح، وهكذا رحنا نرقص رقصة البطة التي عزفها لنا أيضا العام الماضي عدة مرات. السيدات

الخمس من أقسام الصف والتنضيد والاستقبال كن قد أتين على ثلاث زجاجات خمر، وطلبن بعد ذلك زجاجتين "باتيدا دو كوكو" ثم اختفين.

جاء "برترام" متأخرًا جدًّا فحيوه في الميكروفون باعتباره حاملًا رقم 13. عندما نادى "كوتسنسكي" علينا لنرقص رقصة "البولونيز"، وعندما جرت زوجته في دائرة وهي تحاكي بذراعيها القاطرة البخارية، أظهر "برترام" شجاعة فائقة وهرع إلى التواليت. لم أفهم لماذا فصلوا "إدي" وعينوا "برترام"، المدرس العاطل عن العمل. التقطيبة بين حاجبيه جعلته يظهر في كل وقت وكأنه يركز في شيء. يعامله "كوتسنسكي" بحذر شديد.

حاولت أن أحتسي كأسًا حتى أجرب النوم في هذه الليلة التي سطع فيها البدر. كلما تأخر الوقت، كان ذلك أفضل، قلت لنفسي. "كوتسنسكي" كان قد أرانا عدة مرات وبجدية بالغة كيف يرتشف المرء التيكيلا المكسيكي بطريقة صحيحة، وفي أثناء ذلك كان يلعق إبهامه من كل النواحي. بعد فترة صافح كلًّا منا وترك زوجته تقود السيارة إلى المنزل.

بعد منتصف الليل بحوالي نصف ساعة لم يعد هناك سوى "برترام" وأنا مع زجاجة "كالفادوس" شبه ملآنة. لم أعد أتذكر من طلبها. انتقلنا إلى الأمام، إلى المطعم حيث تناولت في أيام كثيرة طعام الغداء. بعد نصف ساعة كان آخر الرواد قد انصرفوا من هناك أيضًا. وحدها السيدة الجالسة إلى المائدة لشخصين ظلت في مكانها القريب من باب المطبخ. كانت رشيقة وأنيقة الملبس، ترتدي جيبة قصيرة سوداء وجاكتة. ظلت تحملق في كأس نبيذ فارغة وقد اتكأت على ذراعيها. شنطة يدها معلقة على ظهر الكرسي.

عندما عاد "برترام" من التواليت ذهب إليها وتحدث معها مشيرًا مرتين إليَّ. لم تكد ترفع رأسها.

- تبكي وتنتحب.

قال وهو يجلس جانبي حتى تبقى في مجال بصره. في كأس كونياك كبير لها بريق أزرق قدم "فرانكو" لها جرعة كبيرة من "الكرابا"، ثم عاد بالكأس الفارغة على الصينية وهو يغمز لنا.

أخذ "برترام" يتحدث عن "كوتسنسكي" وزوجته. حتى أغير الموضوع سألته عن صيد الأسماك. "برترام" يستقل كل يوم جمعة القطار الليلي كي يصل في الصباح الباكر إلى نهر الراين أو النيكر أو إلى القناة الهولندية، إلى أماكن تصب فيها المياه الباردة للمفاعلات الذرية. في منتصف الحكاية قال:

- هل تعجبك المُزة؟

- ربما.

أجبته فأومأ برأسه وواصل حديثه. شرح "برترام" لي كيفية صيد سمك الشبوط، وتحدث عن الديدان، وعن الصراع المباشر مع السمك، عن الحركات العنيفة وعن التمرين، وعن الدوامات. لم يصمت إلا عندما نهضت المرأة. كانت، ربما، في منتصف العقد الثالث من عمرها. تأرجحت في مشيتها بكعبها العالي إلى التليفون. لا بد أنها شربت عدة كؤوس. تحت الجاكت لم تكن ترتدي سوى بلوزة حريرية.

والسماعة في يدها أدخلت قطعة نقدية من فئة العشرة فنكات، ثم أدارت القرص، لكنها أعادت السماعة دون أن تتحدث. ربما أخطأت الرقم. على كل حال كان الجهاز قد ابتلع العملة. مرة أخرى التقطت قطع نقدية من كيس نقودها الصغير. أثناء ذلك وقعت على الأرض قطعة من فئة نصف مارك أو مارك. لم تهتم بها وطلبت الرقم. في هذه المرة تحدثت، ولكن بسبب الموسيقى – "فرانكو" يعشق موسيقى الجيتار ويفضلها على أي شيء في العالم - ولأنها كانت تعطينا ظهرها، لم نفهم كلمة مما قالت. بعد أن علقت السماعة انحنت تلتقط العملة من أمام حذائها، دون أن تثني ركبتيها.

- يا وعدي!

قال "برترام". حملقنا معًا في الكيلوت البنفسجي.

- يا وعدي!

قال مكررًا عندما استقام عودها.

- غضة وبضة، مش كدة؟

تبعها "فرانكو" على مسافة قصيرة بزجاجة "كرابا" إلى المائدة، وانتظر إلى أن جلست، ثم ملأ الكأس حتى ربعها.

بيد أمسكت بـ"فرانكو"، وبإبهام وسبابة الأخرى أشارت له أن يصب أكثر. لكنه توقف عند الحد المقرر. أفرغت الكأس بسرعة البرق. قبل أن يصب كأسًا أخرى* وضع علامة على الورقة المقوية الموضوعة تحت الكأس في كل مرة يطلب "فرانكو" كأسًا ليجمع في النهاية عدد الخطوط عند طلب الحساب. قال "برترام":

- تشرب المحيط.. المحيط.

رفع "فرانكو" الزجاجة ثم وضع خطًا آخر.

قال "برترام":

- "بِت".

وشرع يشرح خطته. تكلم بكل هدوء ناظرًا في عيني مباشرة. لم أجب ولم أومئ، لكنني استحسنت خطته، أو على الأقل وجدتها معقولة. بين الحين والآخر كان يردد:

- إذا نفعت كان بها، وإذا لم تنفع.. خلاص.

---

* الجرسون في ألمانيا يضع علامة عبارة عن خط على الورقة المقوية التي توضع تحت الكأس، وفي النهاية، عند الحساب، يجمع عدد الخطوط، فيعرف عدد الكؤوس التي شُربت.

ثم أضاف:

- سنستمتع نحن الثلاثة بالأمر، متعة بريئة يا "بت"، وسترى. ولكن إذا لم تكن تريد...

وقال:

- إنها لا تشرب، إنها تسكر.. طينة.

بدأ مفعول الخمر يظهر علينا. سمعت "برترام" يتحدث ورحت أشاهد "فرانكو" والمرأة التي ترتدي كيلوتاً بنفسجيًّا صغيراً للغاية تحت الجيبة. وضع "برترام" يده على كأسه عندما أردت أن أصب له. ببساطة كنا في موقف غبي وسخيف.

- شطبنا!

صاح "فرانكو". التفتت المرأة إليه ثم نهضت؛ بعبارة أدق: ارتكزت على المائدة وهي تقوم. مشت الخطوات الأولى بثبات بعض الشيء، ثم اصطدمت بكرسي، وأطاحت بآخر جانبه، فتوقفت. تلفتت حولها ثم شدت جيبتها لأسفل وترنحت في اتجاه التليفون.

- أترى الشفتين؟

سأل "برترام":

- شفاه قوية.

مط شفتيه وكأنه يقلد فم الشبوط، ثم لوح لها.

- لن تتذكر، ولا حتى هذه الحركة.

وضعت السماعة فوق الجهاز ووضعت عدة ماركات في الفتحة.

قال "برترام":

- تحدثنا مرة مع بعضنا، قبل سنوات، عندما كانت مديرة متحف العلوم الطبيعية.

سألته:

- وماذا إذا طلبت تاكسي؟

أشرق وجه "برترام" وهو ينظر إليَّ، إلا أن ذلك لم يفرد التقطيبة بين حاجبيه.

- إذًا نقوم نحن بدور التاكسي.

وضع يده فوق ساعدي ضاغطًا عليه.

- أتعرف كيف كانوا يفعلونها في الماضي، أيام الحرب؟ يرفعون الفستان حتى يغطي الرأس، ثم يجلس أحدهم على رأس المرأة، على الرأس.

قبل أن يسحب يده، ضغطَ على ساعدي مرة أخرى.

راحت تنتظر والسماعة على أذنها، وذراعها اليسرى في وسطها، ثم في اللحظة التالية وضعت السماعة بعنف. تساقطت العملات المعدنية المتبقية وتجمعت بالأسفل.

أثناء سيرها كانت تستند على ظهر الكراسي، لكنها فقدت توازنها فجأة، فانهارت على مقعد يبعد عن مكانها بمائدتين حيث لم تكن الأطباق والكؤوس قد رُفعت بعد.

أوقف "فرانكو" الموسيقى. انهمك في الحساب. لم تصدر أصوات إلا من المطبخ. "تشطيب"، همس "برترام" وأزاح الكأس تجاهي. قسمت "الكالفادوس" المتبقي على كأسينا، فقال:

- كريم جدا "كوتسنسكي"، لا بد من الاعتراف بذلك!

ثم حدث التالي بسرعة فائقة: وضعت "هني" رأسها على المائدة. أتى "فرانكو" بالفاتورة والورقة التي سجل عليها الطلبات، ثم انحنى عليها ونقر على كتفها متحدثًا إليها. رفعت مرفقيها وكأنها تريد أن تدافع عن نفسها.

صاح "برترام":

- "فرانكو"!

ونهض ساحبًا محفظته من جيب البنطلون. في اللحظة نفسها ظهرت "ماريانا شوبرت". لم أرها منذ فترة طويلة.

صاح "فرانكو":

- خلاص، شطَّبنا، المطعم مغلق!

جلس "برترام". مرت "ماريانا" بمائدتنا وحيت "برترام" قائلة:

- مساء الخير يا "بيتر".

ثم أومأت إليَّ تحييني.

قالت لـ"فرانكو" متناولة الفاتورة وورقة الطلبات.

- سأدفع أنا.

همس "برترام":

- الآن فهمت كل شيء! "ماريانا" المسترجلة و"هني" صديقة "باير". كيف يخطر هذا على بال؟

سألته:

- "باير"، صاحبنا؟

- بالضبط، عشيقته و"ماريانا". هل تفهم الآن لماذا يحصل "باير" على كل إعلانات متجر "جنة الأثاث"؟ أنا أعرف زوج "ماريانا"، واعتقدت أنني عن طريقه وعن طريقها أستطيع أن أضع قدمًا في "الجنة". إنهم منجم فلوس! ولكن إذا كانت له هذه العلاقات، فلن تحصل على شيء حتى لو شفت حلمة أذنك.

سألت "هني" بصوت عال:

- هل حصلت عليها أو لا؟

لم أستطع فهم إجابة "ماريانا".

- أنت قلت ستحصلين على رخصة!

بدت "هني" فجأة منفعلة.

- على الساقين، عليك أن تقولي. لماذا لم تقولي: على الساقين؟ هكذا أنت!*

ركضت "ماريانا" مرورًا بمائدتنا.

سأل "فرانكو":

- "كرابا" و"أماريتو" و"كونياك"؟

أعطته إيصال الدفع وورقة بخمسين، ثم استندت على طاولة البار وكيس النقود بين يديها المبسوطتين.

لا أعرف لماذا بقينا؟! لم ننطق بكلمة، والزجاجة كانت أيضًا فارغة. وهكذا ظللنا جالسين هناك دون أن نفعل شيئًا. فكرت في جمع العملات المتبقية في جهاز التليفون وإرجاعها إليها على المائدة.

سقط رأس "هني" إلى الأمام ففزَعت وتحركت حركة فجائية أطاحت بكأس. اصطدمت الكأس بمنفضة وتدحرجت عائدة، ثم سقطت واستقرت فوق السجادة. وضَعت يدًا فوق الأخرى، ووسَّدت رأسها فوقهما وقد ابتعد المرفقان عن جذعها.

صاح "برترام":

- أي مساعدة؟

* إشارة إلى اختبار الحصول على رخصة لحمل السلاح، حيث يُسأل مقدم الطلب إلى أي جهة سيصوب سلاحه في حالة الخطر، وذلك للتأكد من أنه لن يصوب ناحية القلب أو الرأس، بل على الساقين مثلا.

هزت "ماريانا" كتفيها. إلا أن "فرانكو" كان أسرع. بدا الأمر في البداية وكأن "فرانكو" انحنى لالتقاط الكأس، إلا أنه أمسك بـ"هني" من تحت الركبتين، مُمررًا ذراعه تحت إبطها الأيسر، ثم - في هذه اللحظة وقع كرسي على ظهره - رفعها. حاولت "ماريانا" أن تسند رأس "هني" المتدلية إلى الخلف. كنتُ قد نهضتُ ونظرتُ تحت مائدتها لأرى إذا كان قد وقع منها شيء، ثم أخذتُ شنطة يدها. حمل "برترام" معطفها وخرجنا جميعًا.

كان من الواضح أن "فرانكو" لديه خبرة في هذه الأمور. بكل سهولة استطاع أن يضع "هني" فوق المقعد الأمامي بجوار السائق. كانت "ماريانا" قد أرجعت ظهر الكرسي إلى الوراء. بحرص وعناية فَرَدَ "برترام" المعطف على "هني".

سألتُ "ماريانا" وأنا أعطيها شنطة اليد:

- هل ستحتاجين إلى مساعدة، عند النزول؟

- هل أنتَ متجه أيضًا إلى شمال المدينة؟

- نعم.

قلتُ وأنا أفكر: "هل بإمكان "برترام" كشف كذبي؟".

قال على الفور ضاغطًا على يدي:

- إذًا لستما في حاجة إليَّ.

ثم التفت إليها قائلًا:

- سلام يا "ماريانا".

سألته:

- هل نوصلك؟

صاح "برترام" ملوحًا مرة أخرى أثناء السير:

- كيف إذًا؟

قلت:

- باي "فرانكو".

قادت "ماريانا" السيارة بحذر وببطء بالغ عند الملفات. منذ مـدة طويلـة لم أحشر نـفسي على الأريكة الخلفية في سيارة. جبين "هني" كان يقترب شيئًا فشيئًا تجاه ركبتي اليمنى. رحت أرقب "ماريانا" في المرآة العاكسة. تقابلت نظراتنا، لكننا لم نقل شيئًا.

حاملا "هني" على ذراعي ظللتُ واقفًا أمام المدخل إلى أن وجدت "ماريانا" مكانًا أوقفـت فيه السيارة. تخيلت المنظر عندما يتجه شخص ليلًا إلى الشباك، ويرى رجلًا واقفًا يحمل امـرأة على ذراعيه. تمنيت أن تستيقظ "هني"، وتجود عليَّ بابتسامة، ثم تستغرق ثانية في النوم.

بالمفتاح في يدها ومعطف "هني" على كتفها حاولت "ماريانا" أن تخمد بوادر سعال أعلن عن ظهوره لديها.

- هل ستتحمل حتى الدور الثالث؟

بدأت أشعر بالخدر في ذراعي. كانت تفوح رائحة طيبة من شقة "ماريانـا". جمَعَـت مـن على الأريكة مجلة "بوردا" ومجلة برامج التلفزيون، ثم كتاب من مكتبـة المدينـة الاسـتعارية. بآخر ما تبقى لدي من قوى ثنيت ركبتي وأنزلت "هني" برفق. طلبت مني "ماريانا" أن أخلع الحذاء.

- حذاءها، وليس حذاءك!

استدركَت عندما بدأتُ أفكُ ربـاط حـذائي. أمسـكت بكاحـل "هنـي" وخلعـتُ الفـردة الأولى بسهولة. عند الثانية رفعتُ ساقها سهوًا فلمحت الكيلوت مرة أخرى.

أحضرَت "ماريانا" بطانية وألقتها على "هني"، مثبتةً أطرافها تحت كتفيها وتحت جانبيهـا، وأيضًا تحت قدميها. ربطتُ حذائي مرة أخرى. تنفسَت "هني" بصعوبة، وكأنها عـلى وشـك أن تشخر. بين شفتيها انفجرت فقاعة صغيرة.

وضعت "ماريانا" عند رأسها دلوا بلاستيكيًّا أزرق به قليل من الماء، ثم تنحنحت وقالت:

- تحسبًا للظروف!

جلسنا في المطبخ. كان الحائط الأيسر مغطى بكروت سياحية. قالت "ماريانا":

- كلها من بنتي، بالأمس اتصلت "كوني" من "كاراكاس". هل ستعرف دون تفكير طويل أن "كاراكاس" تقع في فنزويلا؟

- لا.

- أعتقد أن "كوني" نفسها لا تعرف أحيانا أين هي!

شربنا شايًا ثم قهوة. لم أستطع أن أقول لها ما المدة التي قضتها "هني" في المطعم.

قلت:

- شَربتْ حتى سكرتْ طينة، ثم اتصلت بالتليفون مرتين.

- مرتين؟ كنت راقدة مستيقظة، وعندما أردت إحضار زجاجة بيرة رأيـت جهـاز الـرد الآلي يومض. عندئذ انطلقت.

قلت لها:

- الخمر هو الشيء الوحيد الذي يساعد على النوم عندما...

- من كان يظن أنك ستجلس هنا في مطبخـي؟.. والـدك أعرفـه.. الرفيـق "مـويرر"، حضرة ناظر المدرسة.

- هو الآن في المصحة، في "دوزن".

- في "دوزن"؟ أنا رأيته شخصيًّا مرتين أو ثلاث مرات. ولكن هل تصدقني عندما أقـول لـك إنه لا يوجد شخص تحدثت عنه هنا مثلما تحدثت عن والدك، هنا حول هـذه المائـدة؟ هـل تصدقني؟

أومأت برأسي. أردت أن أقول لها إن "إرنست" ليس أبي الحقيقي. ولكن ربما كانت ستفهم ذلك على نحو خاطئ.

مع القهوة كنا نأكل مخبوزات مملحة تشبه العيدان الرفيعة، ونتحدث عن المخاوف التي تنتاب الكثيرين، وتمنعهم من الخروج إلى الشارع في الظلام - مخاوف تقترب من الهستيرية.

قلت:

- يكفي أن ينظر الإنسـان إلى أبـواب الشـقق، لـيرى أنـواع وأشـكال الأقفـال التـي يركبهـا الجميع.

واصلت الحديث قائلة:

- عندما أكون وحدي في المساء في متجر الأثاث أشعر أنـا أيضًـا بـالخوف. لفـترة طويلـة لم يكن لدي هذا الشعور. من يشعر بالخوف، لديه ما يخسره. إذًا فحالي لا يمكن أن يكون سـيئًا بالدرجة التي أعتقدها دائمًا، وإلا كنت سأشعر باللامبالاة. هكذا ظللت أفكر فترة مـن الـزمن. أمَّا الآن فكثيرًا ما أفكر أنهم سيهجمون في اللحظة التالية وينهبون كل شيء. ولكن ليس معنى هذا أن يصرحوا لي بحمل مسدس.

جاهدت "ماريانا" لتكبت التثاؤب.

- المحللة النفسية، دائمًا هناك محللة نفسية في مثل هـذه الحـالات، سـألتني مـاذا أفعـل عندما يقترب شخص مني. قلت سأطلق النار. إلى أين؟ أرادت أن تعرف. قلت لها إنه لا يوجد إلا مكانان مضمونان، في القلب أو في الرأس. أرادت التأكد فسـألتني: إذًا سـتطلقين الرصـاص؟ طبعًا، أجبتها، ماذا تعتقدين أنت؟ قالت لي إنني لن أحصل على المسدس، إنها لن توافق عـلى ذلك، لا تستطيع أن توافق، بسبب اللوائح. شكرتها. كان الرد واضحًا.

تناولت "ماريانا" آخر قطعتين من العيدان المملحـة، عارضـةً عـليَّ واحـدًا. الأخـرى كانـت تختفي ببطء وبانتظام في فمها. كانت تمضغ بعناية، ثم مرت بطرف لسانها على أسنانها.

صاحت "ماريانا":

- آه، انظر من يقف هناك!

كانت "هني" تقف في فتحة الباب وهي تدعك بكعبها الأيمن سمانة قدمها الأخرى. نصف وجهها كان محمرًّا. سألتها "ماريانا":

- هل أيقظناك؟

كانت "هني" تريد أن تقول شيئًا، إلا أنها وضعت ساعدها أمـام فمهـا. في النهايـة رفعـت رأسها وقالت:

- مساء الخير.

أجبتُ:

- مساء النور.

وقفتُ. عرفتنا "ماريانا" ببعضنا. وهكذا تعرفت إلى "هني". بعد ثلاثة أشـهر سـألتني عـن رأيي في أن نتزوج. وكان هذا أجمل شيء حدثَ لي في كل حياتي حتى تلك اللحظة.

أمي فقدت عقلها بالطبع. ولكن حتى "إرنست" و"مارتين" و"داني"، بل حتى "سارة" – ابنة "هني" – كان رأيهم كلهم أننا منسجمان.

في حفل الزفاف سار "إرنست" فجأة إلى مائدة "ماريانا". ثم رقصت "ماريانا" معه دون أن يتبادلا كلمة واحدة. عندما رافقها عائدًا بها إلى مائدتها، شكرها بانحناءة. بعد ذلك انصرفت. قبل الحفل كانت قد رفعت التكليف بيني وبينها وتوقفنا عن مخاطبة بعضنا بكلمة "حضرتك". كما أننا نحصل الآن على إعلان "جنة الأثاث" الذي ينشر على صفحة كاملة. تركت هذه الصفقة الدسمة لـ"برترام". "ماريانا" غضبت من أجل ذلك كثيرًا. قالت لي إن "برترام" حاول كثيرًا أن يتقرب إلينا من أجل الصفقة، وإنه من الغباء، من الغباء البالغ أن أستغني عن 800 مارك عمولة شهرية. لو كانت تعرف ذلك لما بذلت كل هذا الجهد من أجل أن نحصل على الإعلان. قالت لي:

- لم أفعل ذلك من أجل سواد عيون "برترام".

أعرف أن "ماريانا" محقة، حتى لو لم أعترف بذلك. بالطبع لا أريد أن تعرف "هني" شيئًا عن الموضوع كله. وخصوصًا أن استغنائي عن النقود لم يأتِ بأي نفع، على الإطلاق. كان عليَّ أن أعرف أن الأمر لن يسير كما أريد، أنني لن أستطيع أن أعتق نفسي بالمال، أن "برترام" ليس هو الموضوع. أدركت هذا، على أقصى تقدير، عندما رأيت كيلوت "هني" البنفسجي مرة أخرى.



(25)

يا الـلـه، ما أجملها!



"إدجار كورنر" يحكي حكايات، ويدعو "جيني" و"مايك" للمبيت في "موتيل". فجأة يريد ترك كل شيء والرحيل. لكن ما يريده لا يتم. النادلة تذهب إلى بطل شاب.

- كنت أصور قبل الظهر في جزيرة "إجليزيا دي سان كريستوبال". كان عجوز رث الهيئة يجلس هناك، إلا أنه نهض وهرب عندما رأى آلة التصوير التي أحملها. في الظهيرة كان العجوز نفسه يقف في "كاله دي سبستيان" ويشير إلى مكان شاغر يمكنني أن أوقف فيه السيارة. أعطيته 300 بيزو. عندما ركبت سيارتي بعد ساعتين كان يقف هناك أيضًا ممسكًا بعصا بيضاء رفيعة في يده. أعطيته الفكة التي وجدتها معي. بعد العصر كان جالسًا على البار في حانة "دي كولونيال" يحتسي البيرة – أو هذا الشيء الذي يطلقون عليه بيرة. عندما دخلت كان يبصق على الأرض، ثم أمسك بمنديل ورقي وتمخط فيه ثم ألقاه.

أسقط "إدجار" منديل السفرة إلى جانب المائدة.

- هكذا. ثم خطف منديلًا آخر، وكأنه فص ملح وذاب. كنا نجلس متقابلين على البار الذي يشبه حدوة الحصان.

رسم "إدجار" في الهواء زاويتين قائمتين.

- حيَّاني العجوز وقال شيئًا ما. لعابه كان جافًّا على حافتي فمه، وأيضًا على شفتيه في الأمام. بدا وكأنه يُقدِّر المسافة بيننا. ثم نزل من على كرسي البار، ولكنه، ولله الحمد، جلس ثانية وواصل الشرب.

نظر "إدجار" إلى "جيني" أولًا حتى إنها حولت عينيها عنه، عندئذ نظر إلى "مايك" الذي كان يدخن، وفي طبقه لا تزال نصف شريحة اللحم. أدار "إدجار" فنجانه من أذنه وكأنه يدير عقرب ساعة، ثم واصل:

- وبعدين، بيننا على البار – يعني في رأس الحدوة - كان يجلس رجلان، رأسهما متلاصقان. وفجأة...

استطال جذع "إدجار" قبل أن يكمل قائلًا:

- أمسك أحدهما بالجرسون. مد يده إلى الوراء دون أن يتحرك، فوقعت يده على جيب بنطلونه. صعق الجرسون وأصيب بحالة ذهول. ثم سرعان ما بدآ يتبادلان السباب والصراخ وأنف كل منهما تكاد تلامس أنف الآخر. سكب الرجل قهوته الإسبريسو فوق كيس السكر على طبق الفنجان، ثم جاء مادًّا ذراعه ناحيتي، وطلب إسبريسو آخر، ثم أشار بيده مشمئزًا وخبط فوق خشبة البار. في هذه اللحظة شممت رائحة العجوز. رفع كأسه في اتجاهي صائحًا:

- صباح الخير!

رفع "إدجار" فنجانه بكلتا يديه، وكأنه يريد أن يتدفأ.

- من اليمين واليسار حاصره جرسونان. حملق العجوز في بيرته، ثم رفع عينيه وكأنه يفكر بهدوء فيما ينبغي فعله، ثم صاح: "مساء الخير!"، نهر

الجرسونان العجوز. وبعد أن حددا مكاني بطرف الأعين، انهالا على مؤخرة رأسه بالضرب، بسرعة، مرة، مرتين، ثلاث مرات – لا أعرف إذا كانوا فعلوا ذلك بالكف أم بالقبضة. كان رأس العجوز يندفع إلى الأمام مع كل ضربة، لكنه لم يدافع عن نفسه، واكتفى بالتشبث بكأسه.

وضع "إدجار" فنجانه الفارغ وانحنى إلى منديل السفرة، ثم سأل:

- هل تريدان طلب شيء آخر؟

أشعل "مايك" لنفسه سيجارة، وسألت "جيني":

- وبعدين؟

- كانت رائحته فظيعة لا تُطاق. وشربت كأسي وانصرفت.

سألت "جيني":

- والعجوز؟

- بالتأكيد رموه أمام الباب.

راح "إدجار" يتأمل الاثنين. كان "مايك" يرسل البصر إلى الخارج. لم يكن من الممكن رؤية الطريق السريع من هنا. قطع "إدجار" قطعة من الخبز الأبيض ومسح بها صلصة الطماطم على حافة الطبق. سأله "مايك" دون أن ينظر إليه:

-لماذا تحكي لنا ذلك؟

- حتى لا أنعس. لأنكما لم تفتحا فميكما بالحديث.

قال "مايك":

- ليس صحيحًا. وإنما لأنني قلت لك إنني أعمل على البار، والجرسون في رأيك شخص معدوم القيمة.. هذا هو السبب.

صاح "إدجار":

- يا بني آدم. أنت بارمان!

طبَّق المنديل وحشى به الفنجان. ظلت النادلة واقفة والأطباق الفارغة على ذراعها.

قال "إدجار" للنادلة:

- كله تمام يا "بريتي"، شكرًا.

قالت "جيني":

- شكرًا، الأكل كان لذيذًا.

انصرفت النادلة، عندما لم يلتفت إليها "مايك".

قالت "جيني":

- أنا أحب العواجيز.

راح "إدجار" يمضغ وهو يهز رأسه عدة مرات.

- الأمر لديهم واضح تمامًا. تسألهم عن شيء فيجيبونك عن آخر. تسأل مرة أخرى، فيحكون لك شيئًا آخر تمامًا. ثم تسأل للمرة الثالثة. والأخيرة.

سألها "إدجار":

- ألا تريدين الإجابة الصحيحة على الفور؟

- لا. أنا أسأل مثلًا عن السبعة، فيجيب العواجيز عن الأربعة. وعندما أسأل مرة أخرى، يكلمونني عن الستة ثم عن الثلاثة. وعندما أستسلم يقولون: أربعة زائد ستة ناقص 3 يساوي سبعة. ولكن ليس هذا تشبيهًا جيدًا.

قال "إدجار":

- بلى. أفهم ما تقصدين. تشبيه جيد.

- هل حصل لك شيء مشابه؟

قال "إدجار":

- لا أعرف إذا كان ذلك ينطبق على ما قلتِ. مرة حدث لي شيء مشابه في السينما. كنا قد أتينا متأخرين، ولم يكن هناك أماكن سوى في الصف الأول. دخلنا في الظلام. التصوير في الفيلم كان من فوق، طائرة تمر فوق غابة موحشة. أغلقت عيني حتى لا أدوخ. عندئذ سمعت على يميني قرقرة عميقة، ضحكة رائعة.

- ماذا هناك يا "مايك"؟

سألته "جيني". ترك "مايك" ولاعته تسقط في جيب الصدر، ثم اتكأ إلى الوراء.

قال "إدجار" ورجع بكرسيه إلى الوراء وكأنه على وشك النهوض:

- أنا أيضًا تعبان.

قالت "جيني":

- لا، أريد أن أسمع بقية الحكاية، من فضلك.

نظر "إدجار" إلى "مايك":

- طيب، سينما، الصف الأول، ضحك بجانبي..

قالت "جيني":

- ضحكة رائعة.

- بالضبط. ودائمًا في مواضع لا يضحك خلالها أحد. كانت تضع ساقًا فوق الأخرى، وتؤرجح قدمها اليمني. أحيانًا كنت أرى سمانة قدمها وكاحلها. كنت أنظر إليها من طرف عيني وأترقب صدور الضحكة. وهذه الساق المتأرجحة، كأنها دعوة. لامس كوعي كوعها، فلم تشعر على الإطلاق. قلت لنفسي ليس عليَّ إلا أن أحيطها بذراعي، وسوف تتكئ على الفور على كتفي، وكأن هذا شيء بديهي تمامًا،

وكأن هذا هو المفروض أن يحدث. وفي الوقت نفسه أردت أن أمر بيدي على سمانتها. كان عليَّ أن أتحكم في نفسي، أتحكم بقوة في نفسي. كنا نجلس متلاصقين. أخذت أقول لـنفسي: "يـا اللــه، مـا أجملها!" بعد كل ضحكة كنت أريد أن أقبلها.

- وبعدين، هل فعلت؟

- لم أعرف من يجلس بجانبها. رجل – نعم، ولكن هـل هـما معًـا؟ لم أعـرف. لم أعـرف إلا أنني لا بد أن أكلمها، حتى لو تركت صديقتي بسببها.

سألت "جيني":

- لم تكن وحدها؟

وضعت النادلة منفضة نظيفة على المائدة. ضغط "مايك" على سيجارته.

- لا، لم تكن وحدها. كانت مع شلة كبيرة.

وتوقف "إدجار" عن الكلام.

- وبعدين؟

هزَّ رأسه قائلًا:

- لم يكن من الممكن أن أرى ذلك. كانت عبيطة. المجموعة كلها كانت من العبط.

قالت "جيني":

- حظك زفت!

- أحببت بلهاء.

- غير معقول.

- أما أسوأ ما في الأمر فهو أنني كنت أشتهيها على الرغم من ذلك.

- ماذا؟

- كنت واقعًا في حبها، السهم كان قد أصابني.

اتكأ "إدجار" واضعًا أصابعه على حافة المائدة. ابتسمت "جيني". كان "مايك" قد أخرج ولاعته من جيبه مرة أخرى وراح يلهو بها.

على الموائد حولهم لم يعد يجلس سوى سائقين فرادى، أو ثنائيات صامتة. على الموائد الأمامية، بين الخزينة والمدخل، علت أصوات.

قال "إدجار" واضعًا مفتاح الغرفة بين "جيني" و"مايك":

- لا بد أن نذهب الآن، فعلًا. اذهبا أنتما، سأدفع الحساب.

تناولت "جيني" المفتاح ونهضت قائلة:

- كله تمام يا "مايكي"؟

ثم قالت لـ"إدجار":

- شكرًا.

تمعن "مايك" في العلّاقة المعدنية الثقيلة في يدها وعليها رقم 7 البارز. دون أن ينظر إلى إدجار زحزح كرسيه إلى الوراء وتبعها.

- من أين أتيت بهذين الطفلين؟ هل أحمل كل شيء؟

هز "إدجار" رأسه موافقًا، وأجابها:

- لم يعودوا أطفالا. ولكنهم يتصرفون كالأطفال، أليس كذلك؟

قالت النادلة:

- أنت "علقت" العروسة منه، بحكاياتك المرعبة.

- "بريتي"، لا تبالغي.

- أنت ترى. أفسدت الليلة عليه.

- لا أريد شيئًا من البنت، أنت تعرفين ذلك. أحضري فنجاني قهوة ودعك من الحمقى في الأمام.

- الأمر لا يهمني على الإطلاق يا "إدي". يمكنك أن تفعل ما تريد. وأنت تفعل ما تريد.

رفعت كل شيء من على المائدة، وكرمشت المناديل الورقية.

- الاثنان كالماء والنار. هي من برلين الشرقية، وهو من "شتوتجارت". لا أعرف لماذا تشاجرا. هل تعاطفت مع الشاب؟

- أتريد أن تقول لي...

استدارت نصف استدارة، ثم أكملت:

- أن كل الشبان لا بد أن يمروا بموقف كهذا؟

- أنا أستلطف الاثنين، بأمانة. أشعر بالفرحة عندما ألتقطهم من الطريق، ولأنني لستُ واقفًا على الطريق مثلهم بشنطة الظهر في انتظار توصيلة. أحيانًا أشعر فعلًا بالفرحة من أجل ذلك.

- الحساب كله؟

- كله.

تتبعها بنظره وهي تمر بالخزينة، ثم وهي تبطئ خطواتها أمام الباب الأوتوماتيكي، إلى أن دخلت المطبخ من اليمين. تناول مسواكًا، وكسره، ثم كسر النصفين. أظافر يديه نظيفة. راح ينظر إلى الموائد أمام البار. كانت امرأة قد استدارت بكرسيها، وراحت تتحدث بصوت عال مع رجال من المائدة المجاورة. جاءت بريت بفنجان قهوة كبير.

- أنت زعلان؟

رمى "إدجار" ببقايا المسواك في المنفضة. وضعت "بريت" القهوة أمام "إدجار"، وكنست المفرش، ثم دست الفرشاة الصغيرة في جيب المئزرة.

- كانا يريدان السفر إلى فرنسا. ثم سُرقت أموالهما، والآن هما على الحديدة، أو على الأقل هذا ما يقولانه.

- وأنت تنام في سيارتك القديمة وتدفع لهما ثمن غرفة؟

- هل هذا عيب أو حرام؟

- على الأقل غير معتاد.

- وبعدين؟

أنت دائمًا كريم خصوصًا عندما تفتح الشابات قلوبهن لك.

- "بريتي"!

قالها "إدجار" واضعًا ورقة بمائة على المائدة.

- قولي لهما في الصباح الباكر إن كل شيء على ما يرام، ماشي؟ سأدفع الفطار.

- ماذا؟

- سأسافر إلى "هرليسهاوزن". ولا أحد يعرف، ربما يتساقط ثلج كثيف ولا أستطيع العودة.

- ومسموح لك؟

- لا يزال أمامي أكثر من ساعة.

- لن يجيئا إلى الفطور إذا لم يكن معهما فلوس.

- أريد أن أنطلق الآن يا "بريتي". هذا أفضل على ما أعتقد.

صاحت:

- يا ربنا!

- ماله ربنا؟

- لا تتصرف هكذا كالأطفال. وكما ترى ليس عندي وردية فطار.

- سأدفع الآن. وإذا لم يجيئا، تحتفظين بالفلوس لي. ماشي يا "بريتي"؟

- وإذا سرقا شيئًا؟

- كفاكِ تخاريف!

- أنا أسأل فقط.

- إنهما أبرياء سذج.

- ليسا بريئين يا "إدي"، هما الاثنان.

نقر على الورقتين الماليتين سائلًا:

- هل تكفي؟

- الآلة الحاسبة مضربة عن العمل.

جلست أمامه، وحسبت الطلبات مجتمعة، ثم قطعت الورقة من الدفتر.

سأل "إدجار":

- من يجلس هناك في الأمام؟

- زبائن زفت اليوم.

- كالخنازير.

- آه.

وراحت تبحث في محفظتها عن فكة، ثم قالت:

- يا خنازير العالم[*]...

- خلاص. إذا لم يظهرا، قيدي الباقي في رصيدي، ماشي؟

قالت وهي تلوح بدفتر الفواتير أمام أنفه:

- طفل عنيد.

- وارمي هؤلاء الخنازير بره.

- مَن، أنا؟ طالما ماكينة القهوة تعمل...

- قهوة؟ إنهم سكارى.

أرجعت "بريت" زجاجة الخل إلى مكانها فوق المائدة بجانب التوابل.

- واحلق ذقنك يا "إدي".

صاح خلفها:

- إذا كانت هذه هي رغبتك.

وفتح العلبتين البلاستيكيتين الصغيرتين وسكب الحليب في القهوة، ثم دس محفظته في الصديري. في دورة المياه غسل وجهه طويلًا. تأمل في المرآة كيف يسيل الماء من ذقنه. أثناء التجفيف أخذ يدير رأسه يمينًا ويسارًا.

ارتشف القهوة ونظر إلى الرجلين. وقفا أمام بعضهما البعض كأنهما لاعبا كرة قدم، وراحا يتبادلان الصراخ، بالألمانية، إلا أنه لم يفهم شيئًا. عند المدخل عاد زوجان عجوزان مرة أخرى. تحسس "إدجار" مفتاح السيارة في محفظته. كان الزبائن الذين يجلسون إلى الموائد المطلة على النوافذ يقومون وينصرفون دون أن يلاحظهم أحد. عدد المنصرفين يتزايد من وقت لآخر.

---

[*] إشارة ساخرة إلى عبارة ماركس الشهيرة: "يا عمال العالم اتحدوا!".

تعرف "إدجار" على الشاب بشعره الكثيف الأشقر المائل إلى الحمرة. وأيضًا بسبب حركة كتفه. حشر نفسه بين الرجلين، وكأنه يريد الوصول إلى "إدجار" من أقصر طريق، إلا أنه لم يستطع التقدم. ظل واقفًا بين الرجلين. وقعت شنطة الظهر ومفتاح الغرفة على الأرض.

عندئذ تراجع الرجلان. ساد الهدوء في المطعم. ببطء شديد رفع "مايك" يده اليسرى. وضعها أمام عينيه مثل كتاب ثم أخذ يرمش، وكأنه لا يستطيع القراءة بسبب العتمة. بلا حراك تأمل كفه الذي نزف منه الدم مارًّا بساعده ومرفقه حتى تساقط على الأرض. كان الرجلان قد اختفيا.

اقتربت "بريت" منه وأمسكت بكتف "مايك"، ثم انحنت وتفحصت وجهه. التقطت النادلة الأخرى مفتاح الغرفة من الأرض. حملا "مايك" إلى أقرب مائدة، ثم أجلساه على كرسي. أقبلت امرأة من البار. دخل الرجل العجوز وزوجته مرة أخرى ووقفا أمام "مايك". أحضروا صندوق إسعافات أولية من المطبخ. تزايد عدد الناس الواقفين حوله وراحوا يتحدثون إليه وكأنه يحتاج إلى تهدئة. عبر رؤوسهم لمح "إدجار" وجه الشاب الشاحب. صاح "إدجار" بعدما نفذ إلى داخل الدائرة:

- أنت غبي. أنت أبله وغبي!

انزلق "مايك" على كرسيه وفرد ساقيه، ثم ابتسم له. ربطوا يده. أكثر من مرة داعبته "بريت" في شعره. وضعوا شنطة الظهر المعلق بها كيس النوم بجانب كرسيه. قال "إدجار" وهو ينقر بإصبعه على جبينه:

- أنت فعلًا أبله وغبي!

دون أن يفقد "إدجار" من مجال بصره تحسس مايك المائدة بيده غير المربوطة حتى عثر على المفتاح، ثم ألقى به بين قدمي إدجار. وضحك، ضحك فجأة ضحكة عالية مجلجلة جعلت "إدجار" يتراجع، بينما كانت علّاقة المفتاح المعدني وعليها الرقم 7 في الوسط بينهما تمامًا.

(26)

طفل يومض



برلين، مساء يوم أحد في شهر أغسطس. تحكي "ليديا" - وهي تأكل أرزًا بلبن - عن "جيني" و"مايك" و"جان" و"ألكس". مسن يجلس على البلكونة. مصباح إشارات التحذير على النافذة. من وماذا وإلى أين؟

عندما ملأت طبقي من الأرز باللبن كان لا يزال دافئًا. في المنتصف صنعت حفرة صغيرة ملأتها بقطع اليوسفي من العلبة المعدنية. تجمع العصير على شكل دائرة رقيقة على حافة الطبق. أرش الطبق كله بالتساوي بالسكر والقرفة، وأمسك بالملعقة عموديًّا حتى لا ينسكب شيء.

على حافة الشباك توقف مصباح إشارات التحذير عن الإضاءة. المصباح يتأثر على الفور بالضوء أو بالعتمة. زجاج المصباح أصفر، تقريبًا برتقالي، فوقه مثلث معدني يستخدم كعلّاقة. على الإطار الأصفر مكتوب بخط أسود: SIGNALITE.

شباك المطبخ يطل على الفناء. إلى يساري، في الجناح الجانبي، ما زال العجوز يجلس في بلكونته. يتشمس بشمس العصاري. أثناء ذلك غالبًا ما يستمع إلى موسيقى "موتسارت" أو فاجنر، وأيضًا إلى موسيقيين آخرين تبدو أعمالهم مألوفة لدي، لكنني لا أستطيع تحديدها بالضبط. عندما يفتح العجوز باب البلكونة تظهر أولًا أصابع يده اليسرى المرتعشة التي تستند إلى إطار الباب. باليمنى يتكئ على عصا. قدماه والجزء السفلي من فخذيه لونها أزرق محمر من الورم. يسير وكأن قدميه محشورتان في حذاء ثقيل رهيب، لذا يختبر في كل خطوة إذا كانت الأرض ستتحمله. يستغرق الأمر وقتًا طويلًا إلى أن يجلس العجوز واضعًا كلتا يديه على رأس العصا، أو يداً على كل فخذ. كل نصف ساعة تقريبًا يزحزح كرسيه وفق اتجاه أشعة الشمس. حوالي الساعة الرابعة يكون قد استدار كليةً إليّ. يرتدي كلسونًا أبيض تحت برنس الحمام ونظارة داكنة. خصلات شعره التي تحيط بصلعته تصل إلى الياقة. لقد استغرق في النوم، على ما يبدو، أثناء كونشيرتو "الأبوا". تقترب الساعة الآن من السادسة مساءً.

بسبب هذا الحر أشعر بالتعب طوال اليوم. في الليل أرقد على سريرى مستيقظة. ولا حتى النسيم الرقيق يساعدني على النوم.

صباح اليوم كان رجلان يركلان علبة معدنية فيما بينهما، وأمام بيتنا تحديدًا. حوالي الساعة الخامسة. بعد ذلك جاءت الغربان التي بدأت تتسامر. أقسم بربي أنها كانت فعلًا تتسامر. ومسك الختام كان رنين جرس التليفون، في مكان ما مجاور، فالشبابيك كلها مفتوحة. عندما استغرقت في النوم أخيرًا دق "يان" الجرس. كان آتيًا من "تريزور". أراد الحرس والنادلات هناك أن يذهبوا إلى بيوتهم في الصباح. ليس هناك وردية صباحية بسبب موسم الإجازات. لذلك كان لا بد أن يغلقوا. أراد "يان" أن يفرجني على المصباح الذي سرقه هو و"ألكس" من ورشة البناء في شارع "بوتسو". طوال الليل كانا يقفزان في الديسكو الشبيه بالخندق حاملين مصباح الإشارات التحذيرية. لا

أعرف ما حدث بعد ذلك. لم يقل "يان" غير أن كل شيء بالنسبة لـه قـد انتهـى مـع "ألكـس"، وأنه لا يريد سماع اسمه، ثم سألني إذا كان من الممكن أن يسكن عندي، فقـط لبضـعة أيـام. ولكنني لا أريد أن أخوض في هذا الموضوع من أصله.

حوالي الحادية عشرة كانت "جيني" ومعهـا "مايـك" يقفـان أمـام البـاب. لم يكـن قـد مـر أسبوع على سفرهما إلى فرنسا. يد "مايك" اليسرى مربوطة وتستند على ربـاط مشـدود حـول العنق. مفتاحهما لدي. يتقاسمان مع "ألكس" و"يـان" شـقة ذات غـرفتين ونصـف في الطـابق الأسفل.

في العصر جاءت "جيني" وحدها. كانت قـد اختفـت قبـل نصـف سـاعة، ولا أعـرف هـل ينبغي عليَّ أن أكون غاضبة أو زعلانة، أو أعتبر ذلك علامة على حيرتها، أو ربما عـلى ثقتهـا بي؟ فيما مضى كنت أضحك على شيء كهذا.

طبعا تسرني زيارتهما. نظريًّا من الممكن أن أكون أمهما. على نحو ما نكوِّن أحيانًا عائلة. لكنهما لا يلاحظان متى يبدآن في إرهاقي. يعتقدان أن عليهما أن يعتنيا بأمري لأنني أعيش وحيدة. لهـذا طبعوا إعلانًا باسمي في مجلة "تسيتي" في باب "البحث عن أصدقاء". منذ أن رأوا صورة لـ"باتريك" عندي يلحون عليَّ كي أكتب له. شرحت لهم مرارًا أن "باتريك" كان من الأسـباب التـي جعلتنـي لا أطيق "ألتنبورج". فاض بي الكيل وطفح بعد الأمسية التي قضيتها مـع "هوليتشـك". هـي وسرهـا المفضوح. كما أن هروبي – كما أقول دائمًا – هو الخطوة الأولى لإدخال النظام في حياتي. هذا النظام لن أتخلى عنه هكذا بسهولة، حتى لو كانت "جيني" والأولاد الثلاثة يتصرفون معي وكأن الوحـدة هي أسوأ شيء في الحياة. كنت أعتقد أن الشـباب يفكـر بطريقـة أخـرى. بالإضـافة إلى ذلـك فـإن "باتريك" لديه الآن زوجة أخرى كما أنه عثر على عمل جديد - ولكن ليس لكل هذا وزن عندهم.

على كل حال كانت "جيني" جائعة. فتحت الثلاجة وصاحت:

- متى ستأكلين كل هذا؟

راحت تتفحص محتويات الرف واضعةً يدها عليه.

- أسخن لك المكرونة، لازانيا بالخضار، من الغداء؟

من الفريزر أخرجَت كيسًا به خضار على طريقة "ناسي-جورنج"، وراحت تقلبه عدة مرات إلى أن عثرت على طريقة التحضير. البلوزة الزرقاء الفاتحة الخالية من الأكمام – التي لم تعد تصلح لي – كانت واسعة عليها. "يمكن إعدادها في الطاسة أيضا"، قالت "جيني":

- هل تأكلين معي؟

فسألتها:

- ولماذا لا تريدين اللازانيا بالخضار؟

كانت "جيني" قد رفعت علبة، وصاحت:

- يوسفي! تسمحين لي؟ ما زال هناك علبة.

حشرت كيس "الناسي - جورنج" في الفريزر مرة أخرى.

- لا تضع أمي معلبات في الثلاجة لأنها تستهلك كهرباء كثيرة.

قالت وانحنت، ثم أخرجت برطمان المربى لترى ما وراءه.

- اللـه، رز بلبن!

بكلتا يديها رفعت علبة أرز بلبن قائلة:

- من فضلك، من فضلك، من فضلك يا "ليبيديا"!

كان رف الخضار بارزًا لذلك لم يغلق الباب جيدًا.

- عندك قرفة، سكر وقرفة؟

- "جيني".

قلتُ محذرة:

- الثلاجة.

ضغطت ببساطة على البـاب حتـى انغلـق، ثـم سـحبَت سـكينة صـغيرة مـن درج أدوات المائدة، وقطعَت الطرف المخطط من علبة الأرز باللبن وفتحتها. سألتني:

- أين صفيحة الزبالة؟

أشرت إلى الكيس الذي أجمع فيه العلب تحت الحوض.

بعد ذلك صرخت:

- يع! شوفي التفاحة!

بقعة كبيرة بنية اللون عليها. راحـت جينـي تقلـب في الليمـون الهنـدي وبقيـة التفـاح في السلة المصنوعة من القش.

- هذه وحدها.

قالت وهي تشطر التفاحة بسكينة الخبز.

- وبقايا الطعام؟

أشرت لها إلى صـفيحة فضـلات الطعـام، ثـم حكيـت لهـا عـن "يـان" و"ألكـس" ومصـباح الإشارات.

- إذا كان ما يزال لديك رغبة، ثم تنتهي الموسيقى، فإنك تشعرين وكأنك بالونـة أفرغوهـا من الهواء.

شرحت لي "جيني". كانت تقصد الموسيقى وهذه الأشياء التي يبلعونها حتى يصبح المـزاج عاليًا.

- المصباح ينرفز، فعلًا.

قالت:

- شيء سخيف جدًّا. حتى لو لم أره، أشعر به. لماذا يأتيان بشيء كهذا إلى البيت؟ هذا هـو ما يجنني.

- إنه طفل "يان"، على الأقل طالما ظل وحيدًا.

- رائع! طفل! ليس طفلي على أي حال.

ثم صاحت:

- أولًا، لقد عاد ينام مع ألكس. ثانيًا، هما أيضًا لم يسمحا لي بالاحتفاظ بالقطة. طفل! ينقصـنا طفل! عندما تظلم الدنيا يبدأ هذا الشيء في الوميض. أعصابي!

قطعت التفاحة إلى قطع صغيرة. عـلى كتفهـا الـيسرى التـي انزلقـت عنـه البلـوزة رأيـت شريطًا أبيض على بشرتها السمراء.

سألتها عن يد "مايك". زفرت "جيني" بصوت مسموع.

- يجمع الآن أشياءه. أنا قلت له أن يجمع أشياءه. تسمحين لي بأن أشغله؟

راحت تدير مؤشر الراديو.

- في البداية يقول لي: ليس عليك أن تهتمي بالفلوس. وبعـد خمسـة أيـام يصـبح مفلسًـا. كنت ثائرة، على الدوام مطاعم وبارات. أي محطـة هـذه؟ كنـت أريـد التفـرج عـلى بـاريس! تصعلكنا يومين في مدينة "راس"، في المدافن. والآن يتصرف وكأنني أنا التي بذرت كل فلوسه.

تطفئ الراديو مرة أخرى.

- "مايك" حشر نفسه بين اثنين يتشاجران، ورط نفسه وهو سكران، الأستاذ مهم!

أخرجت "جيني" الطاسات.

- كـان الرجـل لطيفًـا جـدًّا... الرجـل الـذي أخـذنا معـه. كـان "مايـك" يريـد السـفر إلى "شتوتجارت"، إلى والديه. قلت له، ما فيش مشكلة، سافر، ولكن من غيري. قلت له: لن أسافر في سيارة نقل. ومع ذلك سأل السائق. كان مكتوبًا على السيارة شيء يشبه كلمة برلين، ولكنـه كان يقصد "ميران"، إذا كان هناك مدينة اسمها هكذا. سيارة فولفو مشـحونة ببرتقـال إسـباني من فرنسا. تحدث "إدي" طوال الوقت. إذا توقف عن الكلام ينعس عـلى الفـور، هكـذا قـال. علينا أن نسليه. حوالي خمسين نكتـة إلى أن وصـلنا إلى تقـاطع "هرمسـدورف". كـان "مايـك" وقحًا، وقال له إن عليه أن يشغل الراديو.

وضعت "جيني" الطاسة المتوسطة فوق الموقد.

- عند مثلث "كيرشهايم" دعانا "إدي" إلى تناول الطعام والمبيت في موتيل عـلى حسـابه. لم أجد في الأمر شيئًا، أن يعزم شخصين مفلسين. قبل ذلـك كنـت حكيـت لـه حكايـة المشرفـة في حمام السباحة. كان بيننا تفاهم.

لم أفهم عمَّا تتحدث.

- أنت تعرفين طبعًا حكاية حمام السباحة.

- لا.

قالت "جيني" وهي تقرب الولاعة من عين الموقد:

- الآن يعرف المرء كيـف تصـغين! كـان ذلـك في اليـوم السـابق لحصـولي عـلى أول بطاقـة شخصية، أبريل 89. كنت مع صديقة في حمام السباحة. كنا على وشك النزول إلى المـاء عنـدما جاءت مشرفة وقالت لنا إن علينا أن نرتدي ملابسنا ونمشي من هنا، لأن التمرين سـيبدأ الآن. أخرجت ساعتي، كان لا يزال أمامنا عشرون دقيقة على الأقل.

وضعت "جيني" زبدة في الطاسة، ثم انحنت وأدارت مفتـاح الموقـد لتحصـل عـلى شـعلة أكبر.

- ضيعتما وقتكما في اللعب؟

- دفعنا ثمن التذكرة. وكان لا يزال هناك وقت. حتى غطاء الشعر كنا قد ارتديناه. وفجـأة اقتحمت الحمام مجموعة كبيرة من السباحات المحترفات ذوات القدرات الخاصة، هكذا كـان يطلق عليهن آنذاك، أليس كذلك؟ أحطن بنا في دائرة، ولعبن بنا كرة اليد. شـبعنا ضرب. كنـت أكرر لنفسي: لا تبكي، لا تبكي. ولا حيوان اهتم بأمرنا. ومع ذلك نزلنا إلى الماء، بركب مجروحة. عند بوابة الخروج، عندما أردنا تسليم مفتاح الأمانات، كانت المشرفـة تجلـس خلـف المائـدة. ولم تترد في أن تقول لنا: "شكرًا".

أخذت "جيني" تحرك الطاسة بالزبدة السائلة.

- كانت تلك أول مرة أعرف كيف يتصرف الكبار، وكيف هو الوضع عندما لا يريد شـخص أن يتعب نفسه ويوسخ يديه من أجلك. أردت أن أحكي القصة في المساء لأمي. عنـدما وقفـت أمام سريري كنت أعرف أنني لا يمكن أن أحكي لها عـن ذلـك شـيئًا. لـن تتحمـل ذلـك. الأمـر بالنسبة لها أسوأ بكثير منه بالنسبة لي، أسوأ بكثير. لم أستطع أن أحكي لها شيئًا فظيعًا كهذا.

ألقت "جيني" قطع التفاح في الطاسة، وخلعت وهي تسير صندلها المثني من الخلف، ثـم سحبت بأصابع قدمها الميزان من تحت الأرفف. وقفت فوقه، ثم نزلت، وحاولت مرة أخـرى، ثم صاحت:

- شوفي، مش ممكن. 50.5. وزني خمسون كيلو جرامًا؟

برزت عظام كتفيها إلى الأمام وكأنها جناحان صغيران.

-51، شوفي!

تركتني أعتلي الميزان وهي تمعن النظر في المؤشر.

قلت لها:

- 68. الميزان يعمل جيدًا.

- ماذا؟ أنت تزنين 68؟

رمقتني "جيني" من أعلى لأسفل. أزحتُ الميزان وأعدتُه إلى مكانه تحت الرف، ثم سألتها مرة ثانية عن يد "مايك".

- لم أستطع أن أواصل الحكي على راحتي لأن "مايك" كان دائمًا يقاطعني.

ارتدت "جيني" صندلها، ثم وضعت على المائدة طبق الفواكه المحفوظة وعلبة القرفة، وأزاحت السكرية في اتجاهي.

- دائمًا كان يحشر نفسه في الكلام، إلى أن رجاه "إدي" أن يتركني أحكي في هدوء. وعندما لم ينفع الرجاء زعق فيه، وطلب منه أن يخرس. وكان معه حق يا "ليديا"، فعلًا.

نظرت "جيني" تجاهي نظرة قصيرة. رجوتها أن تأخذ ملعقة خشبية للتقليب بدلًا من الشوكة حتى لا تخدش الطاسة، وأن تقلل من درجة الشعلة.

- عندما استيقظنا في الصباح، كنَّا، "مايك" وأنا، وحدنا في غرفة الموتيل، كان "إدي" لا يزال جالسًا في المطعم، وعندئذ انهال عليَّ بالاتهامات: لماذا أحكي هذه الحكاية لـ"إدي" ولم أحكها له من قبل؟ هذه الأفكار لا تخطر إلا على باله، هكذا هو "مايك". كما أنه يتبول وهو يأخذ دشًّا.

- كل الرجال يفعلون ذلك.

- "مايك" لا يقول إلا كلامًا فارغًا: لن يمنعني إذا كنت أريد أن أكسب بعض المال هذه الليلة. هكذا تحدث. هذه كانت النهاية بالنسبة إليَّ. مرة حكيت له شيئًا عن رجل كنت أقابله بين الحين والآخر، قبل أن أبدأ علاقتي بـ"مايك". كان الرجل أكبر مني كثيرًا في السن، لكنه كان على ما يرام، مهذبًا جدًّا وكريمًا وغرقان في حبه لي. كان يجد كل ما أفعله رائعًا. بدلًا من الهدايا كان يعطيني نقودًا. ولسبب ما لم يكن قادرا على فعل شيء.. اعتقدت أنه ربما يشعر تجاهي بمشاعر أبوية، أو أن غريزة الحماية استيقظت لديه، أو شيئًا من هذا القبيل. وفجأة قرأ عليَّ حكاية قذرة، تقريبا سادية مازوخية. ربما كنت سأضحك عليها لو لم يكن

هو الذي قرأها. في تلك اللحظة انهار كل شيء، وضاعت الصورة التي كونتها عنه. هـذه الحكايـة حكيتها لـ"مايك"، دون داع. منذ ذلك وهو يعتقد أنني أخبئ سرًّا.. ألعابًا سادية مازوخية أو شيئًا من هذا القبيل مما يخترعه في جنون البقر الذي لديـه. فقـط لأن الرجـل كـان يعطينـي نقـودًا. ولكن هذا هو "مايك". لم ألحظ أنه أغلق الغرفة بالمفتاح إلا عندما صـعدوا بـه. أوصـلتنا إحـدى النادلات بسيارتها إلى المستشفى، ثم أرجعتنا. والأخرى كانت قد وجدت شخصًا يأخـذنا معـه إلى برلين. هذا السائق لم ينطق طوال الرحلة بحرف، وأنزلنا عند محطة "فانزيه".

أقول لها إن عليها أن تلبس شيئًا تحت البلوزة، وإلا فإن المرء يرى كل شيء عنـدما تحـرك يديها أثناء الكلام.

- ليس هنا.

أقول عندما وضعت "جيني" ذقنها على صدرها.

- هنا، عند الإبط.

تسألني:

- منظرهما منفر؟ يتدليان هكذا، شكلهما بشع، أليس كذلك؟

وفجأة عانقتني. بالكاد نهضت. ضممتها بقوة ومسحت على شعرها. تبلَل كتفـي الأيسر. عندئـذ فقط عرفت أنها تبكي. وكما عانقتني فجأة، ابتعدت عني فجأة أيضًا. خلطتُ السكر بالقرفة، وفرشتُ المائدة لشخصين، وسألتها عمَّا تريد أن تشرب.

- مثلك.

أجابت "جيني" وهي تقلب الأرز مع قطع التفاح. فتحت العلبة عن آخرها. "يُقدم بـاردًا، مع موزلي"، قرأت بصوت عال، ورفعت درجة الشعلة مرة أخرى. أخذت تبحث عـن الفتاحـة وعلبة اليوسفي في يدها. بدأ الأرز يغلي في الطاسة.

- تسمحي؟

وأعطتني العلبة والفتاحة ثم قلبت في الطاسة.

دون مقدمات قالت "جيني":

- لعلك على حق. ربما من الأفضل أن يعيش الإنسان وحده.

عندما فتحَت العلبة، رن جرس الباب. "لكِ"، قلت لها، ولم أنهض إلا عند الرنة الثانية. عندئذ خرجت "جيني". سمعتها تفتح الباب. لكنها لم تقل شيئًا. ثم انغلق الباب. انتظرت. ناديت على "جيني"، ثم بحثت عنها. ليس في الشقة غيري.

أنزلت الأرز من على الموقد. وقفت بجانب باب الشقة وانتظرت. لم يكن هناك أحدٌ على السُلَّم أيضًا. أطفأت الموقد فتحت حنفية الماء لملء البانيو. هذا يساعدني دائمًا. في البانيو ألعب بعلبة الشامبو الفارغة. آخذها بين قدمي، ثم أضعها على حافة البانيو، وأركز تفكيري ثم أضربها بأصابع قدمي، شريطة ألا تسقط في الماء. هذه هي طريقتي للعب البلياردو، وهي مفيدة لعضلات البطن.

عندما رن الجرس مرة أخرى، جريت ببرنس الحمام إلى الباب. على مسَّاحة الأقدام أمام الباب وجدت مصباح الإشارات يومض. انحنيت على الدرابزين – لا شيء. حملت المصباح إلى المطبخ، ووضعته على حافة النافذة حيث توقف على الفور عن الوميض.

ها أنا الآن قد انتهيت من الطبق كله، وما زلت لا أفهم ما حدث. أضع ما تبقى من أرز دافئ في الطبق. الطاسة – التي لا تدخل الحوض إلا مائلة – أغسلها على الفور. عندئذ أملأ علبة الأرز الفارغة بالماء ليسهل غسلها فيما بعد. بعد ذلك أكمل الأكل.

لا أسمع صوتًا، لا في الفناء الداخلي ولا في الشقة تحتي. لو كان الأربعة أبنائي كنت أنبت نفسي، وقلت إن الخطأ خطئي، وإنني لا أهتم بأمرهم، وإنني فوضوية. أو كنت سأقنع نفسي أن السبب هي المنطقة السكنية أو الزمن الصعب أو درجة الحرارة العالية.

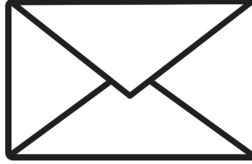
ما زال العجوز نائمًا. عندما يستيقظ سيتعجب كيف انقضى النهار؟! عذر رائع. لكنه ربما لم يعد بحاجة إلى أعذار. في الربيع يضع دائمًا شجيرة موز على البلكونة. بالمقبض المقوس لعصاه يجذبها ناحيته، ويتحسسها ثم يعيدها. يتطاير طرف حزام برنسه الآن في الهواء. ستؤلمه الربطة. لا أستطيع النوم حتى في السرير، وهو يغفو على كرسي كهذا. لكنه سيلاحظ أثر ذلك في الرقبة والأكتاف، وسيرقد مثلي صاحيًا في الليل، يستمع إلى الموسيقى، ويتعجب من الضوء الذي يومض، ويتساءل عن معناه. ربما يكون له تأثير مهدئ، مثل تكات المنبه في الماضي. كنت آنذاك في الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، ولم أقل لأمي شيئًا، ليس فقط لأنني كنت خائفة، ولكن لأنني اعتقدت أن وقع الأمر بالنسبة إليها أسوأ، وأنني لا يمكن أن أحكي لها شيئًا كهذا؛ ثم، ولأسباب أخرى تمامًا، طلَبَت هي الطلاق من الشخص الذي أنجبني.

عندما أنتهي من الطعام سأغسل الطبق والعلبة الفارغة. ربما أضع المصباح في الدولاب بين الملابس الشتوية، أو في الحمام وأترك الضوء مشتعلًا. في الصباح الباكر لا بد أن أنزل المعلبات الفارغة. عمال القمامة يأتون لجمعها يوم الإثنين. سأضع صندل "جيني" على المشاية خارج الباب، والمصباح أيضًا. إذا لم يكن "يان" يريد طفله، لأن "ألكس" عاد إليه، فعليه أن يعيده إلى ورشة البناء في "بوتسو شتراسه". هذا هو الحل حتى يعود كل شيء إلى مكانه.



(27)

الرجل الخطأ



"باتريك" يهجر "داني". مشهد في غرفة المعيشة. رسالة "ليديا" والأرطال الزائدة. "تينو" و"تيري" والوحش.

"باتريك" يجلس على فوتيه كبير رمـادي أمـام التليفزيـون العطـلان. إلى يسـاره نافـذة، وإلى يمينه المائدة وأمامه "داني" عـلى كـرسي وظهرهـا إلى "باتريـك". مـا زالـت أطبـاق العشـاء لثلاثـة أشخاص في مكانها. كرتان من الكرات الأربع الزجاجية الصفراء يرسـلان ضـوءهما الباهـت فـوق المائدة. وتحتهم شمعة تحترق. يسمع المرء الأصوات الصادرة عن أجهزة التليفزيـون قادمـة مـن الشقق المجاورة .

تقرب "داني" سيجارة من الشمعة. تستدير وسـاعدها الأيسر فـوق المسـند وترفـع سـاقها، الكعبان على حافة الكرسي.

يدس "باتريك" قدميه في حذائه النصف رقبة، ويفك الرباط الأيمن قليلًا، ثم يشـده حتـى يتساوى الطرفان، ويعقده عقدتين. يكرر الشيء نفسه مع الأيسر. يسألها "باتريك":

- هل أنت نائمة؟

تهز "داني" كتفيها. باليد اليمنى تحيط بأصابع قدميها الاثنتين وكأنها تشعر بالبرد.

- أتعرف ماذا قال لي "بيلي"؟ إنه فقد عمله ويبحث عن آخر. هربت زوجته منـه، ووجـد أخرى. ماذا يريد أكثر من ذلك؟ هكذا تساءل "بيلي".

تنفخ "داني" الدخان في اتجاه باب الشقة المغلق أمامها.

- كانت أيامًا جميلة في "كورن – ساليس"، أليس كذلك؟

رد "باتريك":

- جميلة جدًّا.

- لا بد أن يرغم المرء "تينو" أحيانًا لكي يكون سعيدًا. الأطفال يحتاجون إلى طريـق واضـح يسيرون فيه.

- كان حظنا جيدًا مع الجو.

- أن يصعد "تينو" على أكتافك يا "بات". هـذا أول الغيـث، ألا تـرى ذلـك؟ وتجـديفكما معًـا، وكيف كان يسمع كلامك ويبذل كل جهده.. هذه معجزة حقيقية.

تهرش في قصبة رجلها وتلمس بذقنها ركبتها، ثم تضيف:

- سيكون الأمر فظيعًا بالنسبة إليه.

يفرد "باتريك" راحتيه على بطنه، وبعد ذلك يضعها على مسند الذراع.

- عليكَ أن تتصل بصديقك "إنريكو". الآن بالـذات، في الوقـت الـذي بـدأت أتعـود عليـه. كيسان مليئان بالغسيل القذر للتعارف، فعلًا شيء فريد من نوعه! حتى اليـوم لا أعـرف مـاذا كان ذلك الشيء الأخضر؟ وكأنه ملأ الشنطتين بأوراق شجر البتولا أو فتـات القـرنبيط. وكيـف وقف هناك بالتيشيرت المبقع، فاغرًا فمه وكأنه على وشك أن يتقيـأ. اعتقـدت أننـي لا أسـمع جيدًا عندما بدأ مرة عاشرة يتحدث عن سرطان معدته. خياله محدود جـدًّا ككاتـب، محـدود بطريقة مفزعة. هل قلت له مـرة ذلـك؟ وإذا كـان بالفعـل خبـيرًا بالصـين و"شـوبنهاور" كـما يدَّعي.. الواحد منا يعرف أقل من اللازم، هذه هـي المشـكلة. عـلى الأقـل أعفـاني مـن سـماع حكاية البرازيل مرة أخرى.

تضع "داني" قدميها أمام الكرسي على الشبشب الكبير المخطط بالبني. تستكمل قائلة:

- الواحد لا يستطيع حتى أن يطلب منه فرش المائدة. سيتلف شـيئًا بالتأكيـد، أمـا أدوات المائدة فسيبعثرها على المائدة بأي شكل. أتعجب من صبرك معه. أتعجب فعلًا. كـل مـا قالـه إن لا شيء يربطه مع تلك المجنونـة؟ وإذا كـان يكـذب عليـك؟ وإذا كانـت هنـاك شيء؟ ربمـا كانت تريد هي أن تنام معه؟

قال "باتريك" ماصًا شفتيه:

- لا. بالتأكيد لا.

- من أين لك أن تعرف؟

تدّعك "داني" بقدمها اليمنى كعبها الأيسر ثم ترتدي الشبشب.

- "تيري" أُصيب بالبراغيث مرة ثانية.

تضع ساقًا فوق الأخرى. الشبشب الأيمن متعلق فقط بأطراف أصابعها.

- كنت أسأل نفسي دائما كيف تهرب امرأة منك – دعني أكمل كلامي – لتذهب إلى واحد مثله. أنا مندهشة فقط. كل مرة يظهر هنا أسأل نفسي كيف..

- "ليديا"..

- لا تكمل، من فضلك يا "بات". لا تنطق اسمها هنا.

- أردت أن أقول إن لديها أسبابها.

يتطلع برهة إلى "داني".

تطفئ السيجارة في طبق فنجان وتقول:

- "بات". عندنا واحد يقول بعد كل جملتين إنه خلاص زهق. هذا هو السيد "إنريكو فريدريش" الذي يعتقد أنه كاتب. وهناك آخر يجلس أمامه ويمسك بيده ويشرح له لماذا لا ينبغي أن يفعل ذلك. دائمًا ما ترفع من روحه المعنوية، وتقول له إن الحياة مليئة بالأشياء الجميلة، وتحاول أن تنزع عنه الخوف. يمكنه أن يقدم طلبًا ويحصل على نقود للسكن، لديه تأمين، بل إنه يستطيع أن يقدم طلبًا ويحصل على غسالة مجانًا.

تُبقي "داني" أصابعها الثلاثة مرفوعة.

- لكنه يشعر بالسعادة عندما يفسد عليك كل الاقتراحات التي تقدمها له. هذه هي مهنته وهوايته. لا أحد، لا عمل، لا أصدقاء، لا شيء، لا شيء، لا شيء. أنا أعتبر ذلك مهينًا، على الأقل للموجودين معه. وفوق البيعة يملأ سرير غيره بالقيء، ويبكي وينوح لأنه وحيد. لو يقول له أحد: لعل أفضل شيء أن تفعل أخيرًا ما تتحدث عنه طوال الوقت – يا إلهي، هل هذه معجزة؟ كما أنك لم تقل ذلك له. أنت ائتمنتها على ذلك. وبعدين؟ أنت لم تدَّعِ أنك سعيد بالأمر. هذه سخافة! وفوق ذلك: إن أولئك الذين يتحدثون طوال الوقت عن فعل شيء، لا يفعلون أي شيء. الذين يريدون فعل شيء لا يتحدثون عنه. أم أنا مخطئة؟ أليس هذا صحيحًا يا "بات"؟

قال دون أن ينظر إليها:

- في الغالب.

- والآن ما زلت ترى أن لديها أسبابها؟ هل هـذا سـبب؟ أن يهجـر الإنسـان شخصًـا عـاش معه سنوات، فقط لأنه قال عن شخص يعرفه: إنـه لـن يفلـح؟ بسـبب ثـلاث كلـمات لهـا مـا يبررها؟ ولا حتى عنده الشجاعة أن ينظر في وجهك. يكتب لها عـلى ورقـة "وداعًـا"، وخـلاص؟ كان عندك حق! اليوم أكثر من آنذاك! لن يفلح هذا البني آدم في شيء!

تمسك بخصلات شعرها عدة مرات وتشدها خلف أذنيها.

أنا أوجه أسئلة فقط يا "بات"، ليس أكثر. وما أعرفه، أعرفه منك. كل هذا حكيته أنـت لي. أنا لا أخترع شيئًا! أو الفيلم الذي عملته بسبب التشيكية التي تنظف البيت، ومن أجـل ذلـك لم تستطع الآنسة "شوماخر" أن تنام طول عطلة نهاية الأسبوع – حلقات سوداء حـول العـين، وكأنك كسرت أصص زهور البنفسـج التـي تملكهـا. هـل هـي جريمـة أن يكلـف المـرء شخصًـا لينظف له البيت؟ لا أخترع كل ذلك يا "بات"، والناس لا تتغير.

تمرر "داني" أصابعها في شعرها.

- ماذا كنت ستفعل آنذاك إذا ضبطتها عند "إنريكو"، إذا كانت لم تزل هنـاك؟ لم أسـألك أبـدًا عن ذلك. ولماذا اعتقدت أن الطفل سيحل كل المشكلات؟ أتريد من كل امـرأة طفـلًا؟ مثـل قـرود المعبد في بانكوك؟ لا تريد سوى أن تفرض جيناتها.

يندفع "باتريك" في الفوتيه إلى الأمام.

- أنا آسفة! آسفة. لا تريد أن تأكل شيئًا آخر؟ أنا عملت السلطة من غير لزوم.

يبقى "باتريك" جالسًا على حافة الفوتيه. يقول:

- سأتصل غدًا بالكهربائي.

- لماذا؟

- لأن التليفزيون عطلان.

- ولماذا تريد أن تتصل أنت بالكهربائي؟

- "داني"..

- أنا أسألك: لماذا تريد أن تتصل أنت بالكهربائي؟ لماذا لا أفعل أنا ذلك؟

- لأنني قلت إنني سأفعل ذلك. لقد وعدت"تينو".

- وماذا ستقول للكهربائي؟ عليه أن يتصل بي؟ أم ماذا ستقول له؟ لا أفهمك. أنت لا تفكر فيما يحدث. لا أطلب منك أن تفكر فينا. ولكن على المرء أن يفكر ويتأمل فيما يحدث. هذا هو كل شيء.

تقرب "داني" سيجارة جديدة من الشمعة.

- أنت لا تقول أي شيء؟ فجأة انفجرت ينابيع التسامح عندك؟

- وماذا ينبغي أن أقول؟

- مثلًا، ما تقوله دائمًا، إن بحارًا يموت عندما يشعل المرء شيئا من شمعة...

- كنت أعتقد أنك لا تطيقين هذه العبارة؟

- هناك ما هو أسوأ.

أثناء الكلام يتصاعد الدخان من فمها.

- هل تعرف لماذا أحببتك من أول لقاء؟ لأنك قلت لي في أول يوم في غرفة التحرير: أنت تحبين أن تقفي هكذا.

تضع "داني" طرف قدمها الأيمن على الأرض خلف كعبها الأيسر. والسيجارة في فمها تنهض مرتكزة على المائدة ومسند الكرسي.

- أو هكذا.

تضع طرف القدم الأمامية على الكعب.

- صحيح؟ أنا في كل الصور تقريبًا على هذا الوضع.

"باتريك" يومئ. تترك جسدها يتهاوى على الكرسي.

- قلت لنفسي، أخيرًا وجدت رجلًا يدقق النظر. رجل يعرف أن المرأة تود أن تُعامل كامرأة، رجل لا أحتاج معه أن أعلق شهادة الليسانس في المطبخ حتى يفهم أنني أستطيع فعل أشياء أخرى.

تحك "داني" ظفر إبهامها الطويل بفلتر السيجارة.

- هل تعرف متى خيبت أملي فيك لأول مرة؟ عندما قال "باير" إن اسمينا لن يظهرا في الصحيفة، عندما كان "الفاشيون" و"البانكس" لا يتوقفون عن المشاجرات.

- وما زالوا.

- ولكنني أقصد آنذاك، عندما لم تكن تعترض على ذلك. عندئذ شعرت أنك خنتني. لستَ وحدك الذي فعل ذلك. آنذاك كنت على وشك أن أفقد كل أبراج عقلي، أنت تتذكر، بسبب عيون التماسيح؟ أما أنت فقد شلك الخوف.

- لم أكن خائفًا على نفسي.

- أعرف، كانت قد انتقلت قبلها بقليل لتسكن معك. لو أنا مكانها، كنت طلبت أن يظهر اسمك. ألم تتعجب هي من الأمر؟

- لا.

- في رأيي علاقتنا جيدة لأننا نعرف بعضنا. الإنسان يكون عندئذ أكثر واقعية، التوقعات ليست 100%، ربما ليس الحب الكبير جدًّا، ومع ذلك. يترك الإنسان

الفرصة للحب كي ينمو. ثم تعاملك مع "تينو". وأن كلينا لسنا كمعظم الناس الذين يفكرون أن عليهم تحقيق النجاح في العمل حتى لا يكونوا وحدهم في رأس سنة 99.

- "داني"، أنا أريد مساعدتكما. سأرسل نقودًا، لـ"تينو".

- ماذا تقول؟

- فلوسك قليلة، وحدك مع الولد. "مارتين" لا يرسل شيئًا، أو ليس كثيرًا على أي حال.

- أنت غير معقول يا "بات"، فعلًا غير معقول. هل أعطي "تينو" 100 مارك عندما يسأل عنك، أم 200؟ كان ينبغي عليَّ أن أقول مزق الرسالة وارمها، أو فلنحرقها في منفضة السجائر، في هذه، أو في ذلك الشيء هناك.

تشير إلى جهاز التليفزيون، وتتابع:

- ماذا كنت ستفعل إذا كنت طلبت منك ذلك؟ ماذا كنت ستفعل إذا كنت طلبت منك أن تمزق الرسالة قبل أن تقرأها وأن تحرقها؟

بعد فترة صمت تضيف:

- هه؟

- "داني".

- أقصد أنه كان بإمكاني أن أتخلص منه، وألا أعطيه لك على الإطلاق. أو يضيع، في أي دهليز من دهاليز البريد؟ رأيت اسم المرسل. لا تخجل من شيء. هل فكرت يومًا في عواقب ذلك لو كان حدث؟ هل أقول لك؟ لا ينبغي عليَّ، أليس كذلك؟ عندما أطلب منك أن تفكر وتتأمل، أقصد مثل هذه الأشياء أيضًا. أنت نفسك قلت إن هذه المرأة مريضة – إلا أنك أردت أن تبرهن وبأي ثمن أنه يمكنك أن تعيش معها، أن توقظها، كما قلت أنت في صياغة جميلة، أن تنجب أطفالًا منها، وأن تحيا معها حياة رائعة. هذا كان طموحك. أنت قلت إنك كنت تعرف أنها ليست سهلة.

لقد شبهتَ علاقتك بها بأشجار سيبيريا، أشجار سيبيريا تنمو ببطء، ولكن إذا حاول المرء أن يقطعها بمنشار عادي فإنه ينكسر – أم أنني أخلط الأمور؟ طوال الوقت كنت أسأل نفسي: لماذا يحكي لي هذا؟ ربما يفكر الرجال على هذا النحو. ولكن لماذا ينبغي عليَّ أن أسمع ذلك؟ لا أريد أن أعرف شيئًا عن كل ذلك!

تنقر "داني" بضعة مرات بأصابعها على رأسها.

- أنا أحتفظ جيدًا بكل ما أسمعه. كل شيء هنا، كل شيء. هل تعرف أنك حب ريفي؟ هل تريد أن تعرف معنى ذلك؟ لقد فكرت في الأمر. هذا معناه ببساطة: في "ألتنبورج" لم يكن هناك أفضل منك. أنت كنت الحل الاضطراري بالنسبة إليها، طوق النجاة. الواحد يعيش مع شخص آخر لأنه إن لم يفعل لن يجد أحدًا. هذا هو الأمر ببساطة. أما في برلين الكبيرة، عندما تكون كل الاختيارات مفتوحة أمام "ليديا شوماخر"، فإنك مستبعد منذ البداية. هذا ما أرادت أن تقوله لك. أحتفظ بكل شيء في ذاكرتي. لقد قضت على كل طموحاتك لأنها أظهرت لك من أنت. خطوة خطوة فككت الصورة، وكان لديها الحق دائمًا، أطلقت عليك "الفشّار"، لم تقل هذا بلهجة حادة، وإنما عَرَضًا، وكأنها لا تنتظر منك شيئًا آخر، هكذا قلت. إلى أن فهمت أنتَ أيضًا أخيرًا أنها مريضة. امرأة تعاني من الصداع منذ خمس سنوات.. ماذا أقول أكثر من ذلك؟ ولكن هكذا هن المدللات الغربيَّات لا يتحملن شيئًا...

- لكنها ليست...

- وإيه يعني؟ إنها تتصرف مثلهن. إنها مريضة. حتى "إنريكو" أدرك هذا. منذ أن ألمحت له تلك المرأة، زوجة نائب البرلمان المحترم، "هوليتشك" هذه، منذ أن ألمحت له أن صواميل الآنسة "ليديا شوماخر" ليست كلها في مكانها، حتى "إنريكو" أدرك عندئذ حقيقة الأمر. لأي سبب تعتقد أنها هربت منك؟ فقط لأنها خافت من "هوليتشك"، لأنها لا تستطيع أن تمثل أمامها. اسأل صديقك "إنريكو"، فهو قد فهم الأمر. لها نظرة ثاقبة، "هوليتشك" هذه، فهي محللة نفسية. هل نسيت كل هذا؟

تصب "داني" شايًا في فنجانها.

- وأنتَ؟

يهز "باتريك" رأسه نافيًا. تشرب "داني" ثم تضع فنجانها.

- ومع كل ذلك كنت أحسدها. ما كنت تحكيه، قصائد غزل فيها، ببساطة. واللـه على رِجليها!

- "داني"!

- لا تعجبك؟ فخذها أطول ثلاثة أو أربعة سنتيمترات، وحجمها أقل اثنين إلى ثلاثة سنتيمترات. هذا هو! كنت من اللياقة والكياسة لدرجة أن تقول لي: اللـه على رِجليها! شكرًا، على الأقل أعرف قيمتي عندك!

- أنا آسف يا "داني".

- لماذا تعتذر؟

- لأن الأمر يؤسفني.

- وما معنى هذا؟

- أن الأمر يؤسفني.

- لا أفهم ماذا تقصد! أنا أسألك فقط: ما معنى هذا؟

تجذب "داني" طبق الفنجان إلى حافة المائدة ثم تطفئ السيجارة.

- هل تشرح لي ذلك من فضلك؟ هل يعني أنك كنت تحبني حتى ظهر أمس؟ ولكن منذ ظهر الأمس لم تعد تتحمل، لم تعد تتحمل "تينو" ولا تتحملني؟ هل هذا هو ما تقصده؟

قال "باتريك":

- ما أقصده هو أن الأمر يؤسفني. كما أن وزنها زاد.

- إيه؟

- قلت إن وزنها زاد. حوالي عشرة كيلوات...

- عشرة؟

-..... زيادة.

- آخ، عشرون رطلًا؟ ومنذ متى تحب السمينات؟ كان عليَّ إذًا أن آكل ما أشتهي بدلًا من الرياضة والساونا؟ سيان ما يفعل الإنسان، فإن ما يفعله خطأ – أيضًا ليس بالشيء الجديد.

- لم ترتكبي أي خطأ. ليس لهذا أي علاقة بك.

- ولا كلمة ثانية يا "بات"، من فضلك.

- ربما هو القدر. ربما هي ببساطة قدري.

يسود الصمت إلى أن تهمس "داني":

- أنا غبية.

تضغط بيديها على عينيها وتقول:

- ومثل هذا الرجل أحبه!

ينظر "باتريك" إلى شاشة التليفزيون التي انعكست عليها الغرفة كلها، ثم يقول:

- الآن سينام.

يقف مستندًا على كعبَي حذائه، ثم يقوم بخبط مقدمة قدميه ببعضهما.

- سأتصل بك، ماشي؟

قال ونهض. سار حول الفوتيه وأمسك بالحقيبة وشنطة السفر.

- مع السلامة يا "داني".

نظر إلى الشبشب الكبير، إلى قرصة البرغوث عند كاحلها، ثم إلى ظهر يديها وأصابعها ذات الأظافر المطلية التي تخلو من الخواتم. عند خروجه احتكت سوستة شنطته بزجاج الباب. ثم سمعت تكة القفل.

بقيت "داني" جالسة. فجأة نادى طفل يؤكد على مخارج الحروف:

- مو-ما، مو-ما.

بعد برهة انفتح الباب. بللت "داني" طرف الإبهام والسبابة بلعابها وأطفأت الشمعة.

- مو-ما.

نادى "تينو" وهو يدخل متلفتًا حوله. يرتدي بيجاما بيضاء بدوائر زرقاء.

- في إيه؟

سألته "داني" ومسحت أطراف أصابعها في كمها، ثم نهضت. مد "تينو" ذراعيه. رفعته "داني" وخرجت به من الغرفة صافقةً الباب خلفها. باستثناء ضجيج التليفزيون من عند الجيران خيَّم السكون. وفجأة ظهر كلب - لا أحد يعلم من أين أتى - كلب من فصيلة الثعلب، جلس على كرسي "داني"، ومنه صعد على المائدة.

بنهم يفترس بقايا العشاء. يسمع المرء أصوات المضغ. لا يتوقف الصوت إلا عندما يبلع وهو يمد رأسه إلى الأمام. قبل أن يواصل الافتراس يلحس خطمه ناظرًا إلى الباب. بين الحين والآخر يهرش في عنقه بأصابع قدمه الخلفية. بعد عدة دقائق يترك المائدة قافزًا على الفوتيه الرمادي الضخم، وفيه يختفي.

(28)

ثلوج وأنقاض



"رافائيل"، صاحب شركة التاكسي، يحكي عن متاعب يعانيها مع كاتب وموقد. "إنريكو فريدريش" يغير اسمه الأول ويريد كسر ساقه. جيران أشرار. حيثما يكون المرء سعيدًا.

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة عندما عدتُ مع "بِترا" من "الايبتسج" حيث احتفلنا بعيد ميلاد أخيها. بحثنا عن مكانٍ لإيقاف السيارة. سرت على طول طريق "شبرلينجسبرج" حيث نسكن منذ أقل من نصف عام. بين الشجيرات التي تحيط بباب البيت اعتقدت أنني رأيت هيئة شخص يرتدي معطفًا طويلًا في منتصف أغسطس. عندما وجدنا مكانًا للسيارة ورجعنا للبيت رأيت الشبح مرة أخرى، هيئته توحي بأنه رجل.

- لا تفزعي.

قلت وجذبت ذراع "بِترا".

- مجنون يستعرض قضيبه.

لم تفهم.

- مجنون يستعرض قضيبه.

كررتُ مُخرجًا سلسلة المفاتيح. لم يكن هناك أي ضوء في مدخل بيتنا. ولا في مدخل البيوت الأخرى.

- مساء الخير.

يصيح صوت رجل.

- لا تريد. لا يعجبها شيء.

اقترب الشكل منا خطوة ورفع رأسه. ظل أحد ذراعيه ممدودًا وكأنه يشير إلى شيء أمام قدميه.

سألت "بترا":

- السيد "فريدريش"؟

قال الصوت:

- أحيانًا يمشي الحال.. واحد، اثنين. ثم تقضي حاجتها. ولكن اليوم.. ستمطر قريبًا.

صاحت "بترا":

- لا! انظر. لم أر في حياتي شيئًا مثل هذا. قطة برباط.

انكمش الحيوان أمامنا واختبأ في العشب، بينما لمع رباط رقبتها.

قال "فريدريش":

- الرباط عملي. لا تريد الخروج أبدًا. إنها تفـزع سريعًـا. لكننـي أحتـاج إلى بعـض الهـواء النقي.

حتى على بعد مترين كنت أشم رائحة الخمر المنبعثة من فمه، ربما فودكا. بُرنس الحـمام، بني في لون الصدأ وبه زهور، كان ينشر في الهواء رائحة طيبة.

قرفصت "بترا" وحركت أصابعها. استدارت القطة أمامها ووقفت بالجانب.

- ما اسمها؟

أجاب:

- "كيتي". هي في الحقيقة قط، أو كانت قطًا.

- نعم؟

نظرت "بترا" إليه ثم ثبتت نظرها على قدمه الأمامية وسألته:

- ماذا فعلت في قدمك؟

قال مُزيحاً البُرنُس وناقرًا على الجبس:

- كسر مضاعف. عظام هشة، كان الأمر جحيمًا!

خرجت من فمه أصوات ارتطام: "كلاك، كلاك". سرواله الـداخلي الطويـل كـان مقصوصـا قبل الجبس.

صاحت "بترا":

- يا إلهي!

أضاف شارحًا:

- فرن التدفئة. أردت أن أتخلص منه، هذا الفرن الأصيل، على عربة يد. حاولت ذلـك، ثـم انزلقت قدمي و...

أشار "فريدريش" بيده مقلدًا حركة الوقوع ثم ضرب بحافة يده على الساق المجبسة، وأصدر صوت فرقعة.

- لا يزال الفرن في الممر على حاله كما وقع.

قالت "بترا":

- نحن احتفظنا بالفرن القديم.

ابتسم "فريدريش":

- لا أحد يعرف...

- نعم، لا أحد يعرف. هذا هو الشيء الوحيد الذي سيعمل في حالة الطوارئ.

رفع "فريدريش" زاوية فمه إلى أعلى وعض على شفته السفلى، ثم قال:

- نعم، هذا صحيح.

سألت "بترا" وكأنها تتكلم مع القط:

- لافتة اسمك على الجرس.. اعتقدتُ...

- "هاينريش" ليس إلا الصيغة الألمانية لـ"إنريكو". أردت أن أغير اسمي الآن. من الأفضل أن يفعل المرء هذا الآن، قبل أن تجيء.

- قبل أن تجيء؟

تفحصني بنظرته، ثم قال مترددًا:

- الشهرة.

نظرت "بترا" إليه مرة أخرى وقالت:

- ولكن "إنريكو" اسم جميل. لقد اعتقدت أن أحد أقربائك انتقل ليسكن عندك.

لم يعد القط يهتم بذراع "بترا" الممدود وأصابعها المُداعبة.

كرر "فريدريش" مواصلًا العض على شفته السفلى:

- الصيغة الألمانية، ليس إلا.

راح يحك الجبس فوق الرصيف وكأنه يريد أن يزيل شيئًا ملتصقًا في نعل الحذاء.

- هل تشعر بألم؟

- أما الأسماء الموضة فإنها لا تشي بأصلها اللغوي. ما يهمني هو اللغة، ولا شيء غير اللغة.

- آه.

- لا، ليس لأسباب قومية، إطلاقًا.

- وفي أي شيء تعمل الآن؟ في شيء مثل "آل بودنبروك"* أم "هاملت"؟

- من الأفضل أن تتركي "كيتي" في سلام. ستمطر قريبًا.

نهضت "بترا" على الفور.

قال "فريدريش" مفسرًا:

- أتتبع عدة أهداف في وقت واحد. هذا يدفع بالأمور إلى الأمام. لكنهم لا يحبون أن يصر المرء على مبادئه. الناشرون لا يحبون ذلك.

أومأت "بترا"، ثم قالت:

- لقد جربت الكتابة أنا أيضًا.

---

* رواية "آل بودنبروك" من أشهر روايات الأديب الألماني توماس مان (1875-1955)، وعنها نال جائزة نوبل عام 1929.

لبرهة أخذنا نراقب القط وهو يخطو فوق العشب.

قالت "بترا" مادةً يدها إلى "فريدريش":

- تصبح على خير.

فقلتُ أنا أيضًا:

- تصبح على خير!

- وأنتم من أهله.

عندما استلقينا لننام بدأت بالفعل تمطر. سألت نفسي إذا كان "فريدريش" لا يزال بالخارج مع قطه لأنني لم أسمع أي صوت صعودٍ على السُلَّم.

قالت "بترا" إن علينا نحن أيضًا أن نتخلص من فرن التدفئة الصغير وأن نرتب قبو الفحم. قبل أن ننتقل لنسكن هنا قمتُ بترميم الشقة كلها وتجديدها، وأردت أن أحتفظ بالفرن على أي حال لأن الفحم انتقل إلى حيازتنا أيضًا.

قلت لها:

- "فريدريش" مزود العيار حبتين.

قالت "بترا":

- كعادته. ولكنه الآن يغتسل أيضًا بالكحول الطبي.

قلتُ محاولًا تقليد طريقة كلامه:

- بالضبط. الكحووول الطبييي.

بدأت المتاعب مع "فريدريش" - الذي لم يعد يُسمى "إنريكو" - نهاية سبتمبر، في يوم أربعاء. في العصر اتصلت بي "بترا" في مقر شركة التاكسي. طلبت مني المجيء فورًا. كنت وحدي في المكتب فسألتها كيف تتخيل أن أترك المكتب وكل

التليفونات دون أن يرد عليها أحد. أجابت أن كل شيء بالنسبة لها سيان وأنها لن تضع قدمها خارج باب الشقة، ثم ألقت السماعة بغضب. منذ تحسن الأوضاع في الشركة وبخاصة منذ انتقالنا من شمال المدينة للسكن في "شبرلينجسبرج" أصبحت مثل هذه الشجارات بيننا نادرة. أيضًا لم نعد نذكر كلمة الطلاق.

عندما عدت في الساعة السادسة إلى البيت كانت "بترا" راقدة بالعرض على سريرنا في غرفة النوم. كل ما فهمته أن أحدًا كان ينتظرها على السُلَّم وسألها عما إذا كان بمقدورها أن تكسر قدمه. لم أعرف عن أي شخص تتحدث.

صرخت "بترا":

- "فريدريش"، "فريدريش"، مَن غيره؟

في مثل هذه الحالات تبرز عظام وجنتيها ويصبح بإمكان المرء أن يرى عروق صدغها. لوهلة كانت تشبه تلك البوسنية التي طبعوا صورتها في صفحة المحليات لأنها قفزت من نافذة بيت اللاجئين.

حاولتُ ضمَّ "بترا" أو على الأقل الإمساك بيدها. في تلك اللحظة ظهر "دافيد" في الممر في طريقه إلى المطبخ. كان آنذاك في السادسة عشرة. سمعت باب الثلاجة ينغلق. ثم عاد إلى غرفته دون أن ينظر إلينا نظرة واحدة. أغلق الباب خلفه. على الأقل خفَّض من صوت الموسيقى.

قالت "بترا":

- فريدريش كان سكران على الآخر. كنا نقف متواجهين عند الباب وسألني هذا السؤال! باعتباري مدرسة أحياء فأنا بالتأكيد أعرف...

وأجهشت بالبكاء فقبلت يدها المرتعشة. واصلت قائلة:

- بالتأكيد أعرف. عليَّ أن أشير له على الموضع الذي يسهل فيه الكسر. لكنه لم يقل الكسر، بل عمل بلسانه صوتا يشبه: طق. شيء مقرف!

- هكذا.

وقلدتُ الصوت.

- آه.

صاحت "بترا" وتقوقعت على نفسها من الاشمئزاز. في غرفة المعيشة قدتها إلى فوتيه متناولًا يدها بين كفي.

- إنه يعتقد أنني أفكر في الأمر...

سألتها محاولًا أن أمنح صوتي نبرة هادئة وعميقة:

- ولماذا يريد ذلك؟

تعلقت بعنقي، فمها على أذني، وقالت:

- هذا ما سألته إيَّاه أيضًا. لكنه بدأ ثانية يقول إن من الصعب على الواحد أن يفعل هذا بنفسه وأنه لا يفهم في علم وظائف الأعضاء. تخيل هذا!

مسَّدتُ ظهر "بترا"، وقلتُ لها:

- ربما يريد أن يسجل نفسه مريضًا فترة أخرى. يريد أن يقبض تعويضًا عن المرض، ويستفيد بالوقت في كتابة الروايات.

حاولت التخلص من عناق "بترا". لكنها تشبثت بي. كان كتفاها يضغطان على ذقني ويرفعانه إلى أعلى.

- وعليَّ ألا أتحدث مع أحد، ولا حتى معك.

أضافت. ثم بعد فترة صمت قالت هامسة:

- غدًا يأتي...

رفعت أنفها عاليًا، وحبست أنفاسها. صاحت:

- يا إلهي!

كان وقع كلماتها كأنها مصابة بزكام.

قالت "بترا" إن "فريدريش" قد أطلق لحيته الآن، وجهه انتفخ أكثر، ولكن دون جبس، لم يعد يراه أحد سوى بالبرنس.

- وهذه العفونة!

- كحول طبي؟

أومأت:

- وخمر.

- لا تحملي همًّا.

قلت لها عندما استطعت تحريك الرأس مرة أخرى. احتسينا كأسًا من الكونياك ثم ذهبت إلى الطابق الثالث.

"هاينريش فريدريش" كان مكتوبا بحروف مطبوعة تحت جرسه. بعد الرنة الأولى - كلينج كلونج - لم يحدث شيء. بعد الثانية بدأت مكنسة كهربائية تشفط الغبار في الشقة المجاورة مصطدمة عدة مرات من الداخل بباب الشقة. بعد نصف ساعة صعدت مرة أخرى ودققت الباب. لم أكن متأكدًا: هل المشاية لم تكن موجودة أمام الباب أيضًا في المرة الأولى؟ خلفي فتحت السيدة "بودين" بابها ومسحت العتبة، فحيينا بعضنا البعض بإيماءة رأس.

حوالي العاشرة مساءً جلست بجوار باب الشقة حتى أشعر بـ"فريدريش" إذا نزل هو وقطه.

سألني "دافيد" إذا كنت أحتاج إلى مساعدة.

- شهادة عجز - هذا هو بالطبع ما يريدونه!

قال لي:

- هم فاكرين نفسهم إيه؟

سألته من يقصد بـ"هم". أشار بإبهامه إلى أعلى:

- كل المخرفين، "فريدريش" وأمثاله.

استلقت "بترا" على الفراش وانهمكت في القراءة. كنت أسمع الصفحات وهي تُقلب. فجأة وقفت كطفل أمامي وقالت:

- أنا خائفة.

أحطت خصرها بذراعي وجذبتها إلى حجري. أبقيتها حتى شعرت بالخدر يسري في قدمي.

في عصر اليوم التالي ذهبت لاصطحابها من المدرسة وأوصلتها بالسيارة إلى المنزل. شباك التواليت لدى "فريدريش" كان مفتوحًا قليلًا، إلا أنه لم يفتح الباب. في الأسابيع التالية أيضًا لم يظهر. من السيدة "هارتونج" التي تسكن فوقنا عرفت أن "فريدريش" يذهب للتسوق كل ثلاثاء وجمعة وهو يجر أمامه عربة صغيرة. في كل مرة يجد صعوبة بالغة في حمل أكياسه المليئة بالزجاجات على الدرج.

في أحد أيام السبت في منتصف نوفمبر فككت فرن التدفئة الصغير إلى أجزاء - القيشاني وبلاطات الفخار وماسورة التهوية والدواسات والقصدير والباب والشبكة الحديد، كل هذا كومته في الجزء المخصص لنا في القبو، ثم ألقيت بالباقي في حاوية القمامة. لم أكد أنتهي من الدش حتى سمعت جرس الباب.

كان وجه "فريدريش" متورمًا. التصق شعره على رأسه ولمع وكأنه عائد لتوه من المطر. من خلال لحيته السوداء لمحت ذقنه يبرق في شحوب. حول عنقه شال أحمر وفي كلتا يديه مظروف سميك.

قال:

- زوجتك تريد قراءة هذا.

شكرته. من تحت البدلة الرياضية برز صدره وبطنه. أومأ برأسه واستدار. قدماه في شبشب ودون جورب. النعل الأزرق المخطط بالبرتقالي - الذي كان يصطدم بكعبه ثم بدرجات السلم - كان يبدو مثل الخطوط التحذيرية المعلقة خلف الشاحنات.

- "فريدريش"، قالت بترا دون أن تنظر إليَّ. كانت تجلس في الفوتيه وبين ركبتيها المكنسة الكهربائية.

سحبت المخطوطة من المظروف. "صمت"، كان مكتوبا على الصفحة الأولى، وتحتها، بخط أصغر قليلًا: "رواية". ثم، بخط أكبر مرة أخرى، "هاينريش فريدريش".

يا له من كلام فارغ! لم أفهم حرفًا. فتحت مخطوطته في عدة مواضع مختلفة. لم أدرك معنى جملة واحدة. أقصد لم أكد أجد جملًا، فقط كلمات مرصوصة بجوار بعضها البعض، وبينها تصحيحات بخط اليد. في بعض الأحيان أعاد "فريدريش" كتابة فقرة بأكملها بخطه الرديء على الهامش. أعطيتها لـ"بترا". على المظروف كان اسمه مشطوبًا. في الأسفل يسارًا كانت هناك آثار ملصق أزاله "فريدريش".

قالت "بترا":

- إنه يقضي وقته الآن في فعل مثل هذه الأشياء.

نظرت مرة أخرى داخل المظروف. لم تفتني رؤية شيء.

- لا أعرف.

عندما سألتها عمَّا قرأته للتو، أجابت "بترا":

- لا أستطيع أن أقول لك، مهما حاولت!

هذا بالضبط ما حدث معي.

قالت:

- ما قرأته يفسد المزاج الجيد. لا بد أن نشرح له أن هذا لا ينفع.

- هل تعتقدين أن لا موهبة لديه؟ ربما يستطيع أن يكتب شيئا جميلا؟

- لا أعتقد. ليتني لم أرَ ما كتبته. لم تكن أشياء سيئة، على الأقل لم تنقصني الموهبة، هكذا قالوا لي. كانت ستعجبك بالتأكيد.

سألتها ماذا تعني بذلك.

- كانت شيقة مثيرة. القارئ كان يود دائمًا أن يعرف بقية الحكاية.

في الأيام التالية كان المرء يسمع دائمًا صوت "فريدريش" على السُلَّم. يتخلص فيما يبدو من "الكراكيب". مساء الثلاثاء لم أستطع إغلاق حاوية القمامة المخصصة للورق والكارتون مع أنها أُفرغت يوم الإثنين. على السطح كان هناك ملف فارغ قرأت عليه: "إنريكو فريدريش" - القصائد. على آخر: "إنريكو فريدريش" - الرسائل. بالإضافة إلى ذلك صحف ممزقة، كتيبات، نسخ وأوراق مكتوبة بخط اليد - "القطة لا تفارق النور"، استطعت بعد فترة أن أقرأ العنوان. كان يفك مدفأته أيضًا. من خلال عين الباب السحرية كانت "بترا" تراقبه وهو ينقل جرادل مليئة بالردم ومخلفات البناء ما بين التاسعة والعاشرة مساءً. قالت لي إنه يهيئ مكانًا لبداية جديدة، وأن مخطوطته حاليًا في الحفظ والصون عندنا وسط الفوضى السائدة لديه فوق.

- إذا احتاج إليها فسيأتي.

عندما وقعت الحادثة في ظهر يوم السبت الرابع قبل عيد الميلاد، كانت السيدة "هارتونج" تمسح السلم. ادعت فيما بعد أن "فريدريش" نظر في عينيها أثناء سقوطه. كنت جالسًا في المطبخ أقرأ الصحيفة. أفزعتني صرخة "هارتونج"

وصدى الدرابزين. برونج - برونج - برونج، هكذا دوى صوت الدرابزين. لكي يكون المرء فكرة عن الصوت لا بد أن يخبط بقبضته عليه عدة مرات.

كان "فريدريش" راقدًا تحت النافذة على آخر درجات المدخل، وجهه إلى أسفل، ساقه اليمنى مقوسة في وضع غير طبيعي. لم ألحظ الدم إلا بعد برهة. كان يسيل من الفم والأنف. عينه اليسرى كانت مفتوحة، أمَّا اليمنى فلا تُرى. لم يرد أحد أن يلمس "فريدريش".

اتصلت بالإسعاف. كانوا يعرفون الموضوع، وبعد قليل وصلوا بصفارتهم المميزة وضوئهم الأزرق. بعد عشرين دقيقة انطلقت السيارة مرة أخرى، دون "فريدريش". كيف فعل ذلك - أن يقع ويهبط طابقًا ونصف طابق - كان ولا يزال لغزًا بالنسبة إلي. السُلَّم صغير جدًّا، وبالتالي لا يكاد يوجد بئر للسلم. بالإضافة إلى ذلك لا بد أن رأس "فريدريش" قد شُجت على نحو تعيس تمامًا.

الشرطة الجنائية أغلقت شقته بالشمع الأحمر. سألوا كل سكان العمارة. في هذه المناسبة تخلصنا من المخطوطة والمظروف.

لأول وهلة اعتقدت أن "فريدريش" لاحظ ولا شك أن لا أحد يريد أن يقرأ التخاريف التي يكتبها، ولهذا رمى نفسه من على السلم ورأسه لأسفل. إلا أن "بترا" قالت إن هذا ليس سببًا كافيًا للانتحار. لقد توقفت هي الأخرى عن الكتابة وبحثت عن شيء آخر. "لا بد أنه كان يريد أن يكسر فقط إحدى ساقيه"، قالت. "على حسابنا جميعًا. ولكن مَن يتصرف على هذا النحو السيئ...".

عندما جاءت سيارة القمامة لم تفرغ الحاوية التي وضع فيها "فريدريش" مخلفات مدفأته القديمة، ولا في الأسبوع التالي أيضًا. قالت السيدة "هارتونج" إن الحاوية ثقيلة جدًّا، حتى الرافعة الهيدروليكية لم تفلح في رفعها.

بعد عدة أيام وجدت رسالة بلا طابع بريد في صندوقنا. السكان كلهم وقَّعوا عليها.

صاحت "بترا":

- لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق.

كان علينا أن نقوم بنفسنا بإفراغ الحاوية لأن الشركة التابعة لها عمارتينا لا ترى سببًا يـدعوها لدفع تكاليف التخلص من مدفأتنا القديمة. ليس هذا معتـادًا هنـا. هـذه الجملـة كانـت إسـقاطًا واضحًا علينا لأننا انتقلنا للسكن هنا قبل عام فقط.

صاحت "بترا":

- فرجهم على بلاطات القيشاني في القبو. فرجهم! الوضع هنا يزداد سوءًا يومًـا بعـد يـوم، يوما بعد يوم!

جلست على الفور وشرعت تكتب رسالة. كان رأيي أن أمر بهم شقة شقة، وأشرح لهم أن البلاط في الحاوية ليس بلاطنا، أنني ربما أكون قد ألقيت بين الحين والآخر عدة بلاطات، ولكن كل البلاط تقريبًا مرصوص في قبونا. ثم رحت أفكر كيف كتبوا تلك الرسالة - هل جلسوا معًا، أو مرَّ شخص من شقة إلى أخرى؟ ومن الذي قام بالمبادرة؟ وكيف كانوا يتكلمون عنا؟ وفكرت أن كل ما سيفعلونه الآن - بعد أن وقعوا جميعًا دون أن يفكروا في الأمر - أن يجمعوا الحجج ضدنا حتى يبرروا تصرفهم. تناهى إلى سمعي كيف كانت "بترا" تمـزق الورقـة تلـو الأخـرى. لم يكن هناك جدوى.

في اليوم التالي كانت حاويات القمامة جميعها - باستثناء تلك التي تحوي بلاط "فريـدريش" - مربوطة بسلسلة وعليها قفل. كما يبدو، لديهم جميعًا مفتـاح، مـا عـدانا. يـوم الأربعـاء التـالي أيقظتني "بترا" قبل السادسة بقليل. ارتديت الحذاء الرياضي و"الأفـرول" الـذي كنـت اسـتخدمه أثناء ترميم الشقة. الثلج يهبط - لأول مرة هـذا العـام. مـن الخـارج أتى السـيد "بـودين" حـاملًا سلاسل وأقفالًا في يديه. من الواضح أنه يتولى شؤون البلوك كله. تبادلنا النظرات دون تحية.

انتظرت تحت سقف مدخل البيت ورحت أتفـرج عـلى العـاملين كيـف يـدفعان حاويـة بعـد الأخـرى إلى ذراع السـيارة الشـبيهة بالشـوكة، ثـم ينـزلان ذراعًـا أخـرى

يحكم القبض على الحاوية. في البداية تُرفع الحاوية رأسيًّا بعض الشيء، ثم تُرفع لأعلى بنصف استدارة، بينما تكون عجلات الحاوية تجاه السماء ينفـتح البـاب تلقائيًّـا فـوق فوهـة العربـة وتفرغ محتواها.

تخيلت الحاوية التي تضم مخلفـات "فريـدريش" في الهـواء وكـأن الرافعـة الهيدروليكيـة تعجز فعلًا عن رفعها. لم يستطيعا أن يرفعا الحاوية سـنتيمترًا واحـدًا عـن الأرض. حـاولا مـرة ثانية. في النهاية دحرجاها إلى مكانها ورفعا الأخيرة على الشوكة.

توجب عليَّ الصراخ حتى يسمعاني وسط هدير السيارة. أخرجتُ ورقة بخمسين ماركًا مـن المحفظة، لكنهما هزا الرأس نفيًا. ظللت أرفع الورقة وقلت إن عليهما أن يأخذا النقـود. لا بـد أن نفكر في فعل شيء. كانا يرتديان طاقية صوفية و"أفرول" أصفر ذا "كبوت". قالا إن علـيهما أن يكملا العمل. أعطيتهما ورقة أخرى بخمسين.

ساعداني على الصعود وناولاني فأسًا وجاروفًا. كان البلاط قد بدأ يتجمد. رحت أنهال عليه بالفأس. أمَّا البلاط الهش فقد جمعته بيدي وألقيت به في حاوية فارغة دفعاها بالقرب منـي. حاولت بالجاروف. ولكن معظم المخلفات كانت تنزلق إلى أسفل أو تذروها الريح. صرخت في الرجلين أن يرفعا "الكبوت" فوق الطاقية، بسبب الوساخة. لم يتحركـا وظـلا يقفـان بظهـريهما إليَّ ويدخنان. هبط الثلج في "الكبوت" المتدلي.

أخذت أكسر وأقلب وأشيل بالجاروف. فكرت أنني لو وجدت تحت المخلفات جيفـة القـط، فإن هذا ربما يدعم نظرية الانتحار. أو أن "فريدريش" أعطاه لأحد قبل ذلك. من المحتمـل أيضًـا أن تكون الشرطة لم تره في الشقة وحبسته ببساطة. سقطت بلاطة من الجاروف وانكسرت فـوق أسفلت الشارع. التفت الرجلان حولهما. جمع كـل مـنهما بعـض البقايـا وألقيـا بهـا في الحاويـة الفارغة. ثم استدارا ثانية وواصلا التدخين ونظرت مرة أخرى في الكبوت. هدير العربة كان يصـم

الآذان. ليس من المعقول أن يكون المحرك وحده هـو السـبب. ربمـا هنـاك ماكينـة تضـغط عـلى القمامة وتهرسها. نويت أن أسأل عن ذلك عندما أنتهي.

بجهد جهيد كنت أنجز شيئًا، لكنني كنت أتقدم. يمكنني القول إنني أصبحت أمسـك بزمـام الأمر، مما منحني شعورا بالهدوء. نعم، بل لقد انتابني شعور طيـب وأنـا واقـف هنـا في الأعـلى. ربما لأنني أتخلص من إحدى المشكلات في العالم. المسألة مسألة وقت فحسب. فجأة بـدا لي كـل شيء سهلًا وقابلًا للحل. كاد يتملكني شعور بالزهو، وكأن شركة التاكسي ليس لها وجـود، لا هـي ولا الديون. لم أفكر في "بترا" التي وقفت خلف ستارة غرفة المعيشة، ولم أفكر في "دافيـد" النـائم، ولا في "فريدريش" التعس، ولا في الجيران السـخفاء. كانـت لحظـة مـن لحظـات السـعادة التـي يعتقد فيها الإنسـان أنـه قـادر عـلى إنجـاز كـل شيء، وأن بإمكانـه أن يجمـع أشـياءه ببسـاطة، ويرحل، وحده، أو مع "أورلاندو"، أو مع امرأة تبدو كتلك البوسنية. مصمصـتُ بشـفتي مُصـدرًا أعلى طقطقـة في حيـاتي، حتـى أن أحـد الـرجلين التفـت إليَّ. قهقهـت وزأرت أن عليـه أن يرفـع "كبوته" أخيرًا. أشاح بوجهه بعيدًا، وواصلت أنـا التجريـف. ثـم انهلـت عـلى المخلفـات بالفـأس. ولكن حالما أرفع رأسي كنت أنظر مباشرة في "كبوت" جامعي القمامة. كنت أستطيع رؤيـة الـثلج وهو يتجمع ويتكاثر، ويتكاثر، ويتكاثر.



(29)

أسماك



"جيني" تحكي عن وظيفة جديدة وعن "مارتين مويرر". الرئيس في العمل يعطي تعليماته. أين بحر الشمال؟ كل شيء يسير في البداية على ما يرام. "جيني" تبذل جهدها كي تكون مقنعة. ماذا حدث للأسماك أثناء الطوفان؟ في النهاية تتصاعد أنغام آلات النفخ.

وقف بين كرسيين مرتديًا سروالًا رياضيًّا، وراح يحاول أن يحشر نفسه في بدلة الغوص، البدلة ذات الخطوط الحمراء التي حاولتُ بالأمس أن أقيسها. أما تلك ذات الخطوط الزرقاء فكانت ملقاة على المنضدة. تصافحنا. قال:

- "مارتين مويرر".

قلتُ:

- "جيني".

قال:

- الأخرى أصغر مقاسًا، ولكن الزعانف جيدة.

أعطيت له ظهري وخلعت ملابسي. أثناء ذلك انحل زر من الجاكيت. دخلتُ في بدلة الغوص وسحبت القلنسوة على رأسي. لم يعد يظهر لا شعري ولا أذني ولا رقبتي. أما وجهي فيبدو منتفخًا. جمعت أشيائي وانتظرته حتى ينتهي أخيرًا من ارتداء الزعانف.

في يده اليمنى حمل كيسه البلاستيكي، وفي اليسرى نظارة الغوص وأنبوب التنفس، ثم أخذ يمشي على الممر بحذر كطائر اللقلق متوجهًا إلى مكتب "كِرندل". خبَّط على الباب مرتين. فقلت له أن يفتح الباب. جلسنا على الكرسيين إلى يسار الحائط وانتظرنا. قلت له:

- أبدو كراهبة.

- لا. بل مثل مقدمة البرامج التي ترتدي بدلة رواد الفضاء. هل لديك خبرة في ذلك؟

- في ماذا؟

- هذا. لقد انتهيت بسرعة.

- كنت بالأمس هنا. لكنهم لا يتركون المرء في حاله أبدًا.

- الجو دافئ جدًّا.

- قدماي باردتان.

- قدماي باردتان أيضًا، ولكن عدا ذلك.

يصيح "كرندل":

- أهلًا "جيني"، كيف حالك؟

ننهض. "مويرر"، يقول معرفًا بنفسه وهو يدس كيس البلاستيك بين ركبتيه.

- "مارتين مويرر".

يصافحه "كرندل". ونجلس ثانية. يتكئ "كرندل" على المكتب، ويتناول ورقة ويقلبها. يحكي ما حكاه بالأمس.

- ثم تسألون: أين يقع بحر الشمال؟* أو: هل يمكن أن تقول لنا أين بحر الشمال؟ أو: كيف أصل إلى بحر الشمال؟ لكم حرية الاختيار، ولكن لا بد من بحر الشمال، واضح؟

أقول:

- نعم، ليس هناك مشكلة.

يتطلع "كرندل" ناحيته.

- واضح؟

يجيب "مارتين" وهو يلعب بالزعنفة اليمنى فوق البساط:

- واضح.

أقول:

- وعلينا دائمًا أن ننشر جوًّا لطيفًا مرحًا.

رد "كرندل":

- وباستمرار! وإلا فالأحسن أن تبقوا في بيوتكم.

يقترب أكثر من حافة المكتب ويتأمل يده الشاحبة التي تحرك الورقة على فخذه إلى أعلى وأسفل، وكأنها إسفنجة استحمام. كانت الورقة على شكل تذكرة دخول

---

* "بحر الشمال" سلسلة من المطاعم المتخصصة في تقديم وجبات وسندوتشات من الأسماك. والسؤال يتضمن تلاعبًا لفظيًا، فلا يفهم المرء على الفور: هل المقصود البحر أم المطعم؟

كبيرة. على جزء منها مقسم بخط منقط ("اقطع هنا واحتفظ بالتذكرة") طُبع جزء من خريطة المدينة. السمكة الحمراء تشير إلى موقع الفرعين. على الجزء الأكبر من الورقة صورة لصحراء لونها بني فاتح موَّج الريح رملها. وفوق الصورة بالخط الأبيض على خلفية سماء بسحب تختلط زرقتها باللون البنفسجي الفاتح:

- أين بحر الشمال؟

- وإذا كان الرد: لا؟

فأجبتُ:

- نقول: نحن نعرف. رقم 10 أو رقم 15 في "شول - شتراسه"!

- هل تسمحون أن ندعوكم إلى سمك؟ وجبة شهر مايو! ثم نوزع الورقة.

قال "كرندل" مصححًا:

- الإعلان. وإذا كانت الإجابة بنعم؟

نظر "كرندل" إلى "مارتين" الذي أجاب وهو يلعب بزعانفه من جديد:

- كيف نذهب إلى هناك؟

قال "كرندل":

- "جيني"؟ ما ردك على "نعم"؟

أجيب:

- رائع! هل تصحبنا إلى هناك؟

- هل فهمتم الآن؟

يحدق "كرندل" في "مارتين" إلى أن يجيب بنعم. عندئذ يسأله أن يتلو مكونات وجبة مايو:

- سمك موسى مقلي، وبطاطس مسلوقة عليها بقدونس، وسلطة مشكلة، وصلصة المايونيز، وثلث لتر كوكاكولا. بدلا من 15,40، الآن بـ 12,95 فقط!

قال "كرندل":

- كل شيء مكتوب هنا. ولكن لا تقرؤوا من الورقة. هذا لا يليق. لا قراءة. مرة أخرى!

أقول:

- سمك موسى مقلي، وبطاطس مسلوقة مرشوش عليها بقدونس، وسلطة خضراء، وصلصة المايونيز. ومع الوجبة كوب كبير من الكولا، فقط 12,95.

يكمل "كرندل":

- بدلًا من 15,40. سلطة مشكلة، وثلث لتر كوكاكولا. البسوا النظارة. والآن تكلموا. تكلموا، تكلموا، تكلموا...

سألتُ:

- كيف أصل إلى بحر الشمال؟ هل تعرف أين بحر الشمال؟

أشار "كرندل" ناحية "مارتين".

- أي شارع يقود إلى بحر الشمال؟ أريد بحر الشمال! يا جمال البحر! هل يمكن أن تساعدني؟

- الكلام طالع من الأنف، كلاكما أخنف، فلنجرب دون نظارة. لا، لا تخلعا النظارة. على الجبين! ارفعا النظارة!

رنَّ التليفون ثم خرس بعد الرنة الثانية. واصل "كرندل":

- وهذا تمسك به هكذا، هكذا.

نهض "كرندل" وشد أنبوب "مارتين" إلى أسفل:

- إلى أسفل أكثر! هكذا! الإعلانات يجب أن تكون قليلة في اليـد، دائمًـا. أربعـة أو خمسـة على الأكثر، لا نريد تضخمًا، مفهوم؟

نومئ بالموافقة.

تساءل "كرندل" مصفقًا بيديه:

- وماذا حدث للأسماك أثناء الطوفان؟

ثم أحاط كتفي بذراعه وجذبني إليه قائلًا:

- إذًا، فلتبدآ.

وذهب إلى مكتبه ورفع سماعة التليفون. ثم هتف خلفنا:

- بالتوفيق!

تركنا أكياسنا في الدولاب عند السـكرتيرة، واسـتلمنا شـنطة تعلـق عـلى الكتـف وبـداخلها الأوراق.

سألتني السكرتيرة:

- كل شيء تمام؟ في كل شنطة ألف.

وفتحت الباب لنا قائلة:

- من هنا، تفضلوا.

أمام المدخل الجانبي ظل "مارتين" واقفًا يتطلع إليَّ، ثم قال:

- لا بد أن نبادر بالحديث مع كل شخص، كل امـرأة وكـل رجـل، منـذ البدايـة، وإلا كـان الفشل من نصيبنا. إذا تهاونًا مرة...

أقول لنفسي، لعله عمل مدرسًا في السابق، لم أكد أغلق الباب حتى يبدأ في إلقـاء دروسـه. نظر صبيان إليه، لا يتجاوز عمر كل منهما الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على أقصى تقـدير. "إيه أنتم مش عارفين؟" يتفحصان زعانفنا، ثم الشنطتين. "عاوزين نروح بحـر الشـمال"، أقـول لهما. يهزان الرأس بالنفي. "آه، يا جمال بحر الشمال!"، يقول "مارتين"، ثم يضيف: "هيا، قولوا لنا". أخيرًا يتناول كل منهما الورقة.

نسير في اتجاه منطقة المشاة. أقول له:

- ليس من الضروري أن نخاطب مثل هؤلاء الأطفال.

يرد وهو يومئ برأسه:

- نعم، مراهقون.

بعد ذلك يكون التوفيق فعلًا من نصيبنا. ننسجم بسرعة. في معظم الأحيـان أبـدأ أنـا، ثـم يواصل هو إلقاء الأسئلة: "نعم، إلى بحر الشمال!" "بالضبط، بحر الشمال"، أقـول، أو: "فعـلا لا تعرف؟" ثم يقـول: "إذًا نريـد أن نكشـف لـك السر!" وبعـد فـترة صـمت قصـيرة ننطـق معًـا بالعنوان. ويضحك الناس وبلا تردد يأخذون الورقة.

فجأة يقول "مارتين":

- أنا آسف. كانت هذه سخافة مني.

لا أعرف ماذا يقصد؟

- أنني تمنيت لهم شهية طيبة.

أجيبه بأنني لا أجد في ذلك شيئًا سيئًا، وأردد أنا أيضا "شهية طيبـة" إذا جـاء عـليَّ الـدور لتوزيـع الأوراق. أحيانًا يرد البعض: "لكم أيضًا" أو "الشيء نفسه". يقول:

- عندما نتحدث إلى الناس يستيقظ فضولهم بحق. بل إنهم يفرحون تقريبًا. إنهم يشعرون بالألفة معنا.

بمجرد أن يلتف حولنا عدة أفراد فإن الآخرين يجيئون من تلقاء أنفسهم. أحيانا يتزاحمون حولنا، عندئذ نوزع الأوراق على الأيدي الممتدة.

يسألني بصوت خافت:

- هل أرسلَ مَن يراقبنا؟

أجيبه:

- بالتأكيد.

- لقد حاولت أن أبدو حيويًّا مثلك. لكن ذلك لم يقنعه.

- أنت لم تتوقف عن تحريك زعانفك.

- ماذا؟

- أنت لم تتوقف عن اللعب بزعانفك، هكذا...

وأرته له ما كان يفعل.

- ألم تلحظ ذلك؟

هز رأسه نافيًا، ثم قال:

- ربما لذلك كان يتصرف هكذا!

- إنه هكذا. وهو أمر لا يمكن تغييره.

في المكان الذي تتلاقى فيه منطقة المشاة بميدان القصر كانت فرقة لآلات النفخ تقف أمام خيمة بيضاء ذات قمة عالية. بدا المنظر شرقيًّا. إلى جانب الخيمة كان التليفزيون يجري حوارًا مع رجل يرتدي جاكت أزرق وعليه ملصق

دائري أصفر اللون، مكتوب عليه: "اللحم البقري الألماني: نحن نضمن الجودة". كان العـازفون يحملون أيضًا الملصق نفسه، وكذلك النساء اللاتي كـن يحُمِّـرن قطـع اللحـم والسـجق. في كـل مكان أرى الآن أشخاصًا بملصقات اللحم البقـري. كـانوا يوزعـون أوراقًـا أكـبر مـن تلـك التـي نوزعها. سألني:

- هل لديك استعداد للعمل مع هؤلاء؟

- نعم. أم أنك ترى أن الوجبة التي نعلن عنها رائعة؟

- لا أعرف. قطعة السمكة تبدو على الصورة ميتة، ربما كالصـخر، ثـم فقـط 1,45 أرخـص. هل هذا الفارق يحمس الناس؟

عندما سألته من أي مدينة هو، أجاب باقتضاب:

- من الشرق. من "تورينجن".

قال إنه يزور أمه هنا، ثم أضاف:

- "كرندل" لم يعد يتحدث عن الدفع، عن الـ 120 في اليوم.

- لا بد أن يلتزموا بما قالوه. هذا ما كان مكتوبًا في الإعلان.

أومأ برأسه. ثم فجأة قال:

- ورقة واحدة تكفي لكل عائلة.

في البداية ظننت أنه يمزح، ثم قلت له:

- لأصدقائهم ومعارفهم.

- عندك حق. إذا سارت الأمور على هذا النحو فسننتهي عند العصر.

علينا أيضًا أن ندخل المحلات في منطقة المشاة، ولكن حتى إذا لم نبادر الناس بالكلام، فإنهم كانوا يظلون واقفين ويمدون أياديهم. دون استراحة واصلت الفرقة الموسيقية العزف. قال:

- أنت ذكرت من قبل حكاية الزعانف.

- نعم.

- هل تعرفين أنك تبتسمين دائمًا؟

_ أنت أيضًا.

بعد حوالي ساعة بدأت السماء تمطر رذاذًا. معظم الناس كانوا يسيرون بموازاة نوافذ العرض، تحت المظلات، من سقف إلى آخر.

بينما واصلَ التوزيع في الخارج، كنت أدخل المحلات. أخذت امرأة تلوح لي وتصيح:

- أيتها الضفدعة الصغيرة.

لا أقطع أي حديث. ولكن عندما يتطلعون إلي، أو يديرون الرأس ناحيتي، فإنني أسأل بصوت خافت وكأنني ضللت الطريق:

- معذرة، ربما تعرفون كيف أصل إلى بحر الشمال؟

يُصدمون لمدة دقيقة. وبعد أن يبدأوا الضحك أناولهم الورقة.

عندما ألاحظ أن "مارتين" لم يعد واقفًا أمام نافذة العرض، أخرج من المحل. أرجع بضع خطوات، لكنني لا أعثر عليه. إلا أنني أرى أوراق "بحر الشمال" متناثرة هنا وهناك. كان "مارتين" يجلس متكئًا بظهره إلى صارية علم، ولا يجيب. عينه اليسرى متورمة. نظر إلى أعلى قليلًا ثم سألني إذا كنت رأيت أنبوب التنفس الذي كان يحمله. أحاول لملمة بعض إعلانات "بحر الشمال" الملتصقة بالبلاط، لكنني أدوس بزعانفي على الأوراق التي أنحني لالتقاطها.

يسألني "مارتين" عندما وقفت أمامه مرة أخرى:

- هل مررت أنتِ أيضًا بتجربة سيئة؟

- لا، لماذا؟

- نظراتك تقول ذلك.

- أنتَ أخذت لكمة حلوة.

- هل عثرت على الأنبوب؟

أواصل البحث. أجد عدة إعلانات وأعود إليه.

- أنا آسف.

يقول لي وهو يرفع أنبوب التنفس من على الأرض، خابطًا بالمبسم على زعنفته اليسرى.

- كان مُلقى هنا، لكنني لم أره.

- هل أحضر لك مكعبات ثلج؟

- أتعرفين في أي شيء فكرت؟ لقد فكرت في تلك الجملة عن الأسماك والطوفان. لقد كنت مشلولًا، بالفعل مشلولًا. في البداية نظر الرجل إلى أسفل، ثم حملق فيَّ، وسأل زوجته إذا كانت تعرفني. كنت أقف على حذائه، بأطراف زعانفي، فقط بالأطراف. لم أشعر بذلك، ولا يمكن أن يكون هو قد شعر بذلك. قالت زوجته إنها لا تعرفني. أعتقد أنني طرت لمسافة قصيرة.

- هل تشعر بغثيان؟

- تلك الجملة عن الطوفان، كم هي عبيطة! لم أقل شيئًا سوى العبارات المعتادة. الجمل نفسها كالمعتاد.

- لا بد أن نذهب إلى "كرندل". هذه حادثة.

- لن أذهب إلى هناك بعد اليوم.

وأخذ يحرك زعانفه.

قلت له، وانتظرت حتى يتطلع ناحيتي:

- أنا أعرف السبب.

- لم تعجبه لهجتي.

- ولكنه سأل زوجته إذا كانت تعرفك. وعندما قالت "لا" ضربك؟

- وكيف يمكن أن تعرفني؟ إنني هنا لأول مرة في حياتي!

- كان فقط يريد أن يعرف إذا كنتَ شخصية مشهورة.

- فقط لذلك!

قلت له موضحةً:

- المشاهير فقط يفعلون هذا، مع كاميرا خفية، أو بسبب رهان خسروه. ولكن غير المشاهير لا يفعل أحد مثل هذا، لا أحد في عمرك. الرجل أحس أنك تستغفله. هذا هو كل شيء.

ينظر إليَّ وكأنني صفعته. أقول له:

- هذا طبعًا غير معقول. أعني أن هذا الأبله ظن شيئًا كهذا. لقد أديتَ عملك فعلًا بطريقة جيدة. لديك كاريزما كانت تدخل الفرحة على قلوب الناس. أنت نشرت من حولك المرح. ليس فقط فيما يتعلق بتوزيع الأوراق. ما فعلتَه لم يفعله أحد من قبلك. وفوق هذا فإن لك قوامًا متناسقًا.

بصقَ. أواصلُ التحدث:

- كل الناس انبسطوا. من المفروض أن نحصل على فلوس أكثر بكثير مما سنحصل عليه. ليس فقط من "كرندل"، بل أيضًا من عمدة المدينة، ومن صناديق التأمين الصحي. بسبب جو المرح واللطف الذي نشرناه.

أخذ "مارتين" يرسل نظراته ناحيتي. كاد الورم يغلق عينه اليسرى. أقول له:

- شيء مقرف. إنه يعتبر اللطف أمرًا مستحيلًا.

- لم يهتم أي إنسان بالأمر.

وبصق من جديد، ثم أضاف:

- لم يتحرك أحد.

- لم يستوعبوا الموقف. الناس لم يعرفوا كيف يتصرفون. لم يستطيعوا أن يفهموا أي شيء مما حدث. لم يمرُّوا في حياتهم بموقف كهذا. في قلب منطقة المشاة ينال ضفدع بشري علقة ساخنة. ربما ظنوا أن الضربات لا تؤلم إذا كان المرء كله داخل المطاط، أو أن هذا جزء من اللعبة. لم يرد أحد أن يتعرض للإحراج إذا تبين فيما بعد أن هذا عرض فني أو مسرحي في الهواء الطلق.

أحكي لـ"مارتين" عن رجل مسن مات أثناء جلوسه في بلكونته في الفناء الخلفي لبيتنا. كان يمسك بإصبع موز، بينما كانت الموسيقى الصاخبة تصدح. اعتقدنا كلنا أنه نائم. ظل جالسًا هناك تحت المطر، طول الليل.

- طول الليل؟

- نعم. الدنيا كانت ظلامًا. وفي الصباح عندما كان لا يزال جالسًا.. سنذهب إلى "كرندل" الآن.

أغلق "مارتين" عينيه مثلما فعلت امرأة رأيتها في مترو الأنفاق. بهدوء تام أغلقت عينيها دون أن تحرك ساكنًا، إلى أن انفتحت الأبواب. هز "مارتين" رأسه نافيًا.

- بلى. لا بد.

فيما هو ينهض أمسكت بنظارته وأنبوبه. الشنطة اتسخت. يسحب بحذر القلنسوة فوق رأسه.

قال "مارتين":

- لن أذهب إلى "كرندل".

احتاجَ إلى وقت طويل حتى استطاع أن يرتدي نظارة الغوص. سألته:

- إلى أين إذًا؟

- بعيدًا. إلى أبعد ما يمكن.

وبصق مرة أخرى، ثم وضع أنبوب التنفس في فمه، وثبته تحت سير النظارة. ثم علق الشنطة على كتفه.

فعلت مثله، وانطلقنا. كان الناس يقفون تحت مظلات المحلات وفي مداخل البيوت، ينتظرون أن يتوقف المطر. وفيما عدا راكب دراجة، كانت منطقة المشاة لنا وحدنا. مشينا بين الحفر المليئة بماء المطر. رأيت شخصًا يلوح لنا ويهتف بشيء فيه كلمة "بحر الشمال" بالطبع. من الممكن أن يعتقد المرء أن الناس يقفون طابورًا لتحيتنا. كل منا يمسك بيد الآخر لأن النظارة تحدُّ من مجال الرؤية حتى إن المرء لا يعرف إذا كان الآخر يسير فعلًا بجانبه. لا تزال الفرقة في الخيمة البيضاء تعزف الموسيقى التي أصبحت الآن أسرع وأعلى. أعتقد أنها رقصة "بولكا". لكنني لا أعرف ما "البولكا"؟ ربما مارش أو شيء مشابه. سيان. كنت أسير مع "مارتين" بالخطوة نفسها. حتى عندما خرجنا من منطقة المشاة، ظللنا نسير بخطى واحدة.

الشخصيات الرئيسة في الرواية

تضم الرواية نحو أربعين شخصية. بعضها يظهر مرة واحدة، وكثير منها يظهر في أكثر من فصل. تيسيرا للفهم أورد هنا قائمة بالشخصيات الرئيسة.

مسرح الأحداث: مدينة "ألتنبورج" الصغيرة الواقعة في شرق ألمانيا (ولاية تورينجن)، وهي المدينة التي قضى فيها "إنجو شولتسه" ثلاث سنوات (من 1989– 1992)، أي فترة التحولات التي شهدت انهيار ألمانيا الشرقية، ثم الوحدة الألمانية.

عائلة مويرر:

"إرنست مويرر": كان يعمل في ألمانيا الشرقية ناظر مدرسة. انضم إلى الحزب الحاكم، وكان يدين له بالولاء. بعد الوحدة يرى كيف ينجو كبار رجال الحزب الفاسدين من أي ملاحقة قانونية، في حين يواجه هو اتهامات زملائه وجيرانه بأنه كان متعاونا مع النظام ومع المخابرات "الشتازي". "إرنست" نموذج لآلاف من الألمان الشرقيين الذين ظل الماضي يطاردهم، فلم يستطيعوا التأقلم مع الواقع الجديد.

ريناتا مويرر: هرب زوجها الأول (د. راينهارد) في عام 1969 من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية تاركا ابنيه مع زوجته "ريناتا" التي تزوجت بعدها بعام من "إرنست مويرر".

مارتين مويرر: ابن "ريناتا" من زوجها الأول. كان يعمل أستاذًا مساعدًا في جامعة "لايبتسج"، لكن عقده لم يتجدد. ينهمك في البحث جاهدا عن عمل جديد. تتوفى زوجته "أندريا" في حادث دراجة، فيعهد إلى شقيقة زوجته، "داني"، بتربية ابنه "تينو".

بيتر "بِت" مويرر: شقيق مارتين. يعمل "بِت" في صحيفة لترويج الإعلانات.

عائلة شوبرت:

ديتر شوبرت: مدرس يُفصل من عمله بسبب وشاية ناظر المدرسة "إرنست مويرر"، معروف باسم "زيوس"، فَقَدَ أثناء اللعب وهو طفل إحدى عينيه. حانق على ألمانيا الشرقية بسبب فصله من المدرسة وعمله القسري في منجم فحم، وبسبب عينه الزجاجية سيئة الصنع والتركيب.

ماريانا شوبرت: زوجة "ديتر". تعمل سكرتيرة في متجر أثاث.

كوني شوبرت: ابنة "ديتر وماريانا". تعمل بعد الوحدة في مطعم في المدينة، ثم على باخرة سياحية.

نويجيباور: كان متورطًا في جرائم النظام السابق، بعد الوحدة يؤسس مكتبا للاستشارات الضريبية تعمل فيه "ريناتا مويرر".

بيتر برترام: كان يعمل مدرسا، كما كان يُستدعى بين فترة وأخرى كضابط احتياط لدى حرس الحدود. كان مؤمنا بالنظام القديم، ويعتبر أحد ممثليه. بعد الوحدة فُصل من عمله كمدرس. ثم عمل في صحيفة الدعاية والإعلانات خلفا لـ "إدجار كورنر". يكتب قصصًا إباحية تثير إعجاب صديقه "ديتر شوبرت".

داني: تعمل في صحيفة أسبوعية، تولت تربية الطفل "تينو" بعد وفاة أختها. يعمل معها باتريك. تربطها علاقة حب بـ"إدجار كورنر"، لكنها تنفصل عنه وتتصادق مع "باتريك" الذي يهجرها من أجل "ليديا".

وداني صحفية جريئة تريد أن تكتب عن موضوعات الساعة، مثل النازيين الجدد، ولذلك تواجه مشاكل مع رئيسها في العمل "كريستيان باير" الذي يخشى من تأثير تلك التحقيقات على إيراد الإعلانات، وفي النهاية تترك عملها.

إدجار كورنر: صحفي، يعيش فترة مع "داني"، غير أنها تهجره بعد خلافهما حول الأطفال وطريقة تربيتهم، ورغبته في الإنجاب منها. يفقد عمله كصحفي، ويعمل سائقا على سيارة نقل. يتمنى العودة إلى "داني"، لكنه لا يفعل شيئا لاستعادتها.

كريستيان باير: رئيس تحرير صحيفة تعتمد على الإعلانات تنافس الصحيفة التي يعمل فيها "بِت" و"إدجار". صديق لـ"هَني". يرتكب أخطاءً كبيرة في إعداد حسابات الجريدة، ويتعرض إلى الابتزاز من المراجع الضريبي، فيدفع صديقته إلى إقامة علاقة جنسية مع المراجع من أجل أن يتغاضى عن أخطائه.

هَني: كانت تعمل مديرة متحف المدينة وتفقد عملها بعد الوحدة، فتعمل في الصحيفة التي يرأس "كريستيان باير" تحريرها، وتكتب عمودا يقدم نصائح للقراء. تشعر بالوحدة لأن ابنتها الوحيدة سارة تريد الانتقال لتعيش مع والدها. تربطها بـ"باربارا هولتشيك" علاقة صداقة منذ الصغر. تتصادق مع "باير"، ثم تتزوج في النهاية "بت مويرر".

ليديا شوماخر: تعمل كإخصائية تحنيط في متحف التاريخ الطبيعي في المدينة. تعيش مع صديقها الصحفي "باتريك". بعد فشل علاقتها معه تسكن بصورة مؤقتة عند الكاتب "إنريكو فريدريش"، ثم تنتقل للحياة في برلين.

باربارا هولتشيك: (يطلق عليها أصدقاؤها: "بابس")، طبيبة نفسية، متزوجة من "فرانك"، النائب في برلمان الولاية. من سياق الأحداث نفهم بشكل غير مباشر أنها صَدمت بسيارتها زوجة "مارتين" وهي على الدراجة وقتلتها، ثم ولت الفرار ولم تبلغ عن الحادث.

جيني ريتر: طالبة في معهد التمريض. كان لها علاقة عابرة بـ"ديتر شوبرت".

مايك: يعمل بارمان، وصديق "جيني".

"**توم**" و"**بيلي**": ورثا إرثًا كبيرًا بعد الوحدة، لذلك اشتريا بيتًا ريفيًا يعيشان فيه مع طفليهما التوأم. ينظمان حفلة يدعوان إليها "ليديا" وصديقها.

إنريكو فريدريش: كاتب محبط، فاشل، سكير.

رفائيل: أسس شركة سيارات أجرة. يواجه مصاعب مالية كبيرة.

أورلاندو: مهندس ميكانيكي لا يجد عملا سوى سائق تاكسي عند "رفائيل".

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.6	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.7	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.8	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.9	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.10	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.11	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.12	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.13	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.14	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.15	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.16	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.17	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.20	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.21	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.22	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.23	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.24	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.25	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.27	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.28	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.29	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.30	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا

31.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34.	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
35.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36.	الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
37.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43.	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
44.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50.	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
51.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52.	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
53.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56.	بنات الصين	يي مِاي	الصين
57.	الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
58.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
59.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
60.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
61.	القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
62.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
63.	صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا

.64	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
.65	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
.66	دكان الساري	روبا باجوا	الهند
.67	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
.68	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
.69	المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامَّة:

.70	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
.71	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
.72	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
.73	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
.74	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
.75	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
.76	خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
.77	ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
.78	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
.79	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
.80	النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
.81	لن أمنحك كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
.82	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
.83	الجري	ثور جوتاس	النرويج
.84	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
.85	اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

.86	النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
.87	وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
.88	أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
.89	القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.90	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
.91	ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
.92	خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
.93	الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
.94	دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
.95	التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
.96	لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
.97	هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامَّة:

.98	بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
.99	القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا

#كتب_مختلفة #ألمانيا



السرد في "قصص بسيطة" يحيا من التفاصيل الصغيرة الدالة، ومن الوصف الدقيق لمشاعر الشخصيات. "شولتسه" أستاذ في الإيحاء والاختصار. لن نجد هنا مباشرة، أو خطبًا أو نظريات سياسية، بل قصصًا من ريف ألمانيا الشرقية، تبدو بسيطة، لكنها ترسم صورة مركبة عن حياة الألمان الشرقيين خلال الحقبة التي أعقبت الزلزال السياسي الذي ضرب أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، وأدى إلى سقوط سور برلين وانهيار الشيوعية. "قصص بسيطة" لوحة فسيفسائية عن التحولات الكبرى التي حدثت آنذاك على كافة الأصعدة، اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ رواية عن الفترة التي تلت تفكك عالم وسبقت نشوء آخر: فترة الانتقال المؤلم من نظام شمولي مستبد، يضمن لمواطنيه أساسيات العيش، ويحمل عنهم عبء الاختيار، إلى نظام ديمقراطي مفتوح، يقوم على الفردية وتحقيق الذات والإنجاز والتنافس الشديد الذي يفرضه اقتصاد السوق الحر.

"شولتسه" يحكي عن البسطاء الذين لم يستطيعوا التأقلم مع تلك التحولات، وعن الذين عرفوا كيف يقتنصون فرص الواقع الجديد، ويبين أن الوحدة لم تكن النهاية السعيدة لكل مواطني ألمانيا الشرقية.



إنجو شولتسه

وُلد "إنجو شولتسه" عام ١٩٦٢ في دريسدن بشرق ألمانيا. درس اللغات القديمة وعمل معدًا مسرحيًا، ثم محررًا في صحيفة محلية. يعيش في برلين متفرغًا للكتابة منذ عام ١٩٩٣. في عام ١٩٩٨ نشر "شولتسه" روايته الأولى "قصص بسيطة" التي حققت نجاحًا كبيرًا. امتدح "جونتر جراس" الروائي الكبير، "شولتسه" ووصفه بـ"الحكَّاء العظيم". تُرجمت الرواية في غضون سنوات قليلة إلى نحو عشرين لغة. من أعمال "شولتسه" الأخرى: المجموعة القصصية "٣٣ لحظة من لحظات السعادة"، ورواية "حيوات جديدة"، ومجموعة "محمول"، ورواية "آدم وإيفيلين". حصل "شولتسه" على عدد كبير من الجوائز الأدبية، منها جائزة "بيتر فايس" (٢٠٠٦)، وجائزة "معرض لايبتسج للكتاب" (٢٠٠٧)، وجائزة "برتولت بريشت" (٢٠١٣). وهو عضو في الأكاديمية الألمانية للغة والأدب في دارمشتات، وعضو في أكاديمية الفنون في برلين.

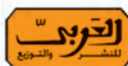
تصميم الغلاف: عصام أمين



WWW.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-395-9





60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg